دار الثقافة

النعمة والجنس

تأليف : ماري ستيوارت

النعمــة والجنــس

تأليف
ماري ستيوارت

ترجمة
نكلس نسيم



Gender & Grace
By : Mary Stewart Van Leeuwen
This book was first published by Intervarsity Press.
Translated by permission and published in Arabic , 1997.

طبعة أولى

النعمة والجنس

صدر عن دار الثقافة - ص. ب ١٢٩٨ - القاهرة
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم إقتباس أو إعادة نشر أو طبع بالرونيو للكتاب أو أي جزء منه بدون إذن الناشر ، وللناشر وحده حق إعادة الطبع)
١٠ / ٧.٩ ط١ / ١-١ / ١٩٩٧
رقم الإيداع بدار الكتاب: ٥٥٥٤ / ٩٧
I.S.B.N 977 - 213 - 361 -x
جمع وطبع بمطبعة سيوبرس

مقدمة الدار

الرجل والمرأة جنسان لا ثالث لهما- خلقهما الله لكي يكونا متكاملين في انسجام تام. فالمرأة والرجل يكوّنا معاً الإنسان، ولكن الخطية دمرّت فيما دمرّت علاقة الرجل والمرأة،فالخطية خاطئة جداً. وهي التي أوجدت هذا الصراع الذي يشبه الحرب الباردة بين الجنسين فهو لم يصل بعد إلى الصراع الدموي!! ولكن ليس كالخطية هكذا الهبة، فالنعمة المعطاة في المسيح تعالج ما فعلته الخطية، وتخلق الكل جديداً فيه، سواء توجهاته أو رؤاه أو أنشطته. وهذا ما تحاول أن تصل إليه ماري ستيوارت أستاذة علم النفس المقارن بكلية كالڤن في كتابها النعمة والجنس، وهي تبحث القضية من كل جوانبها بدأيةً من فكر الله عن خلق حواء وآدم، ومروراً بالتغيير الذي طرأ على علاقة الجنسين سواء كان السبب حضارياً أو بيولوچياً تؤثر فيه الچينات والهرمونات، ودور التربية والتنشئة على تلك العلاقة، وانتهاءً بدور النعمة في إعادة الإنسان رجلاً كان أو امرأة إلى ما قصده الله بخلقهما معاً.

دار الثقافة

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة :

فكرة كتابة هذا الكتاب كان لها تاريخ طويل إلى حد ما، سواء بالنسبة لي، أو بالنسبة لمحرريه. وقد واتتني الفكرة في منتصف السبعينيات، في وقت كان كثيرون من المسيحيين وكذلك معظم المنادين بحركة المساواة بين الجنسين، ينظرون إلى الحركة المسيحية للمساواة بين الجنسين، على أنها أمر يتناقض مع الواقع. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذه الأقوال فتمة نساء كثيرات، وعدد ليس بقليل من الرجال الذين كانوا يعتبرون أنفسهم مسيحيين كتابيين بدأوا يُعرِّفون أنفسهم على أنهم دعاة كتابيون لمبدأ المساواة بين الجنسين. وفي ذات الوقت، فإن البعض ممن وجدوا بصيصاً من الأمل الحقيقي ـ وإن كان محدوداً ـ في الحركة الجديدة للمساواة بين الجنسين التي ظهرت في أواخر الستينيات، واصلوا سعيهم ليجدوا أملاً أكثر شمولية في دعوة يسوع المسيح. وإذ كنت قد عُينت حديثاً في وظيفة أستاذ مساعد لعلم النفس، صرت واحدة من هؤلاء الناس.

ولما كنت على ألفة بالكتابات المتزايدة في موضوع الجنس والفروق بين الذكر والأنثى، طلب مني جيم ساير Jim Sire، ـ الذي كان محرراً لدار نشر Inter Varsity في ذلك الحين ـ أن أفكر في كتابة مؤلَّف عن الأدوار المُتغيرة للنساء من منظور عالِمة اجتماع مسيحية. وبناء على ذلك، قدمت مشروعاً للكتاب وتم توقيع العقد. ومع ذلك، تدبرت الأمر، إذ أدركت أنه إنصافاً للمشروع أحتاج إلى بعض الوقت لكي أكتسب المزيد من الدراسة والخبرة، من جهة الفكر اللاهوتي الكتابي العام، وعلى الأخص من جانب مفهوم الشخصية في فكر الكتاب المقدس، الجنس (من حيث الذكورة والأنوثة) والجماعة. وكان المسؤولون في دار النشر متعاطفين

معي للغاية، وقد أعفوني من العقد كي يتيحوا لي أن أتابع دراساتي - ولو أني أشك في أنهم كانوا عندئذ يدركون أن الكتاب سوف يستغرق خمس عشرة سنة تقريباً قبل أن يظهر إلى الوجود.

على الرغم من ذلك، فقد شعرت، كما شعروا هم أيضاً أن فترة الانتظار قد أتت ثمارها. وكثير من المحاولات التي تعاملت مع الأفكار اللاهوتية المتعلقة بحركة المساواة، انتهت بإحداث تعديلات طفيفة في طرق التفكير التقليدية التي تتركز حول الذكور - الأمر الذي أطلق عليه أحد النقاد منهج "أضف نساء وتحرك". وثمة آخرون اعتبروا الحركة العلمانية للمساواة بين الجنسين نقطة انطلاقهم الضمنية، وصاغوها إلى ما يكاد يُعبِّر عن وجهة نظر عالمية كتابية كاملة - على سبيل المثال، جعلوها تستند بشدة على صلاح الخليقة، غير أنهم لم يركزوا بالقدر الكافي على سقوط البشرية والحاجة إلى الفداء الشخصي بالنسبة للنساء والرجال على حد سواء. ولكي نُنصِف النقد المشروع للقائلين بمبدأ المساواة بين الجنسين، والانتشار السريع للكتابات المتعلقة بدراسات الجنس (من حيث الذكورة والأنوثة)، وفي ذات الوقت نُخضِع الفكر اللاهوتي المُعترف به لقراءة جديدة للكتاب المقدس، لم يكن ذلك بالأمر اليسير. وأملي أن أكون قد نجحت في أن أقدم ولو مساهمة متواضعة تخدم هذا الهدف.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف انتفعت بمصدرين ما كنت سأجدهما لو قمت بكتابة الكتاب في الوقت الذي حُدد له. الكتابات في موضوع الجنس من حيث الذكورة والأنوثة والتي تراكمت على مدار الخمس عشرة سنة الماضية كانت كثيرة جداً ومُعقدة للغاية. وقد ضمت مكتبة كليتي أكثر من ألفي كتاب تتناول دراسات حول ذات الموضوع، صدرت على مدار السنوات الأربع الماضية فقط. فضلاً عن ذلك، الدراسات التي بزغت في السبعينيات على أنها "دراسات نسائية" تحولت شيئاً

فشيئاً إلى دراسات تشمل النساء والرجال. إن كـل النظـم كـانت تهتـم بدراسـات للرجال ـ أي الدراسات التي تهتم "بـالرجل" لا بـالمرأة ــ أصبحـت أمـراً بديهيـاً في حركة المساواة، وهذا هو السبب في أن الأمر كان في حاجة مُلحة لدراسات المرأة، لكي يتحقق التوازن. وأي عالم مقتدر من المختصين بدراسة "علم الذكـورة"، وأي دراسة في مجال "علم الذكورة" تقرر أنها لم تستطع أن تغير إلا القليـل مـن حيـاة الرجـل، حيـث أنهـا ركـزت علـى الأنشـطة العامـة للصفـوة، والذكـور الأقويـاء، متجاهلة بشدة كل المجموعات الأخرى، وحياتهم في هذه الأنشطة المتشابهة عينهـا، والمجالات الخاصة كذلك. إن أي زائر من كوكب المريخ يبحث في أصـل الإنسـان ونطوره يجري أبحاثاً على أرضنا يسـتطيع بالكـاد أن يُخمـن أن الذكـور مـن البشـر يقومون بأشياء أخرى إلى جانب شن الحروب وكتابـة المعـاهدات، أو تحقيـق تقـدم من الفنون والعلوم والتكنولوجيا. أما كونهـم أيضـاً يلعبـون، يتعبـدون، يـتزوجون، يصيرون آباء، ينضمون إلى نـوادي الخدمـة، ولهـم مشـاكل تتعلـق بالهويـة، لا تجـد حلولاً في روايات ومسـرحيات الكتّـاب. إنـه هـدف أفضـل البـاحثين في دراسـات الجنس (من حيث الذكورة والأنوثة) ـ وهدف هذا الكتاب أيضاً ـ أن يُغطي بعـض هذه الثغرات، بالاضافة إلى تلك التي لها تأثيرها على حياة المرأة.

أما مصدر العون الثاني الـذي لجـأت إليـه فهـو التقليـد اللاهوتـي والفكـري البروتستانتي، ولا سيما في تعبيره الكالفيني الحديث، لرفضه أن يُنظر إلى بعض أجزاء الحياة على أنها دينية وأخرى على أنها دنيوية (وبالتالي تكون أقـل جـدارة بـالبحث المسيحي). ذلك أتاح لي قاعدة أحاول من خلالهـا أن أنظـر إلى الجنـس مـن ناحيـة الذكورة والأنوثة في إطار منظور جديـد للكتـاب المقـدس. وثمـة ازدواجيـة أخـرى ترفضها الكالفينية، وهي تلك التي تنظر للجسد على أنه أقل قيمة أو "روحانية" مـن العقل أو النفس. ومن جانب آخر نظرتها التجسدية المحضة للمسيح ولأولئك الذين

جاء المسيح ليخلصهم، واعتقادها أننا سنُقام كأجساد ممجدة هذه الازدواجية هي التي تكمن وراء اهتمامي "بالبناء البيولوجي" للذكر والأنثى في كتابي هذا. أخيراً، التزام الكالفينية بمبدأ ("العمل دائماً من أجل الإصلاح") أتاح لي أن أُلقي نظرة نقدية على ما اعتقده المسيحيون أنه دراسة صحيحة للجنس (من حيث الذكورة والأنوثة) تمشياً مع الاعتقاد الكالفيني أن خطية الإنسان ومحدوديته تتطلب منا دائماً أن نُعيد تقييمنا لنفسيراتنا المحدودة للكتاب المقدس. وحقيقة أن الكالفينيين لم يكتبوا إلا القليل جداً في الموضوعات المتعلقة بالذكر والأنثى (سوى ما كُتب غالباً في دعم الموضوع الراهن في الأدوار والعلاقات الخاصة بالذكورة والأنوثة) تُبين أن هذه المبادىء القيمة أحياناً ما تلقي الاحترام في خرقها بأكثر مما تلقاه في حفظها. وهذا التذبذب كان من بين العوامل التي حفزتني في المقام الأول على تأليف هذا الكتاب!

وبعد أن ذكرت كل هذا، أجد نفسي في حاجة أيضاً إلى القول، إنه على الرغم من أن هذا الكتاب يميل إلى عمل دراسة للنوع تقود إلى وضع معايير ـ حيث يربط بين علم النفس وبعض من الفكر اللاهوتي والتاريخي، وعلم الأحياء وعلم الاجتماع ـ إلا أنه يظل في النهاية وبصفة أساسية كتاب عالِمة نفسية متمرسة، وأنا في أفضل الحالات أعتبر من هواة البحث في ضروب المعرفة الأخرى. وإذا بدا أنني تخطيت حدودي اللاهوتية والتاريخية أو الاجتماعية (أو على النقيض من ذلك قللت من الناحية السيكلوجية في مواضيع أخرى)، آمل أن القراء سيغفرون لي ذلك، وربما يكون هذا دافعاً لإنتاج كتب أخرى أو مقالات أخرى عن هذا الموضوع عينه على أساس مفاهيمهم الانضباطية والمسيحية. ومن المؤكد أن الكنيسة بنظرتها المتطورة بوسعها استخدام أكبر عدد ممكن من الأفكار المتعلقة بهذا الموضوع الهام والمثير للجدل.

وعلاوة على هذا، فعلى الرغم من أني مدرك أن موضوع الحديث عن الجنس (من حيث الذكورة والأنوثة) يتشابك مع موضوعات أخرى مثل الأجناس، العِرق، الطبقية والإثنية، إلا أنه لم يكن متاحاً بالنسبة لي إلا أن أعرض لهذه الموضوعات في عُجالة، في كتاب في مثل هذا الحجم. ثم إنه، على الرغم من أنني أتمتع بقدر لا بأس به من خبرة بثقافات مختلفة (بعضها أشارك فيها القراء من خلال هذا الكتاب)، إلا أنني أدرك مع الأسف حدود نظرتي كامرأة بيضاء من الطبقة المتوسطة أعمل بمهنة تقتضي ثقافة وعلماً، وقد باركني الله بزواج مستقر، رُزقت من خلاله بطفلين سويين. وآمل أن تكون هويتي ونشاطي كمسيحية قد هذباني إلى حد ما، لأن جسد المسيح يتجاوز التقسيمات الناجمة عن الطبقية والعرقية، ولسوف تكون مسيحية لا تعرف المسئولية تلك التي لا تصغي إلى إخوانها وأخواتها في أنحاء أخرى من الكنيسة على مستوى العالم. وحتى الآن، أعمل أستاذاً في العلوم الأدبية، بكلية مسيحية محافظة في مدينة صغيرة بالغرب الأوسط، وهذا من شأنه أن يحدّ من رؤيتي بشكل ما. ولذلك أعود فأقول، إنه من حين يلمس القراء هذه المحدودية، آمل أن يتشجع البعض ويضيفوا إلى الحديث أصواتهم وخبرتهم.

وأخيراً يجب أن أقر ببعض الاعترافات بالجميل لزوجي، وابنيّ، وبعض أعضاء الأسرة الآخرين كانوا يُشكلون مصدر دراساتي، وكانوا نبعاً للتشجيع المستمر. والطلبة الذين يحضرون الحلقات الدراسية التي أقوم فيها بتدريس سيكلوجية النساء في أماكن بعيدة مثل متشجان، وفانكوفر، وتورنتو، قد قدموا لي عوناً كلما كانوا يقرأون أجزاء من المخطوطات أثناء كتابتها. والزميلات في كلية كالفن، ولاسيما أولئك اللواتي كن بقسم الفلسفة، قدمن نقداً بناءً لمسودة أبواب عديدة، حيث ألزمنني بتوضيح ما سردته من حجج، وفي كثير من الأحوال أسلوبي. والباحثات

من زميلاتي في مركز كالفن للدراسات المسيحية سنة ١٩٨٩ - ١٩٩٠ ولا سيما الفريق الخاص بموضوع Calvin Center "أدوار الذكور والإناث" أخذن وقتاً كافياً لتقرأن وتعلقن كتابة على المخطوطة كلها، حيث قدمن تحليلات مفصلة بالنسبة لكل معلومة حتى إنني متأكدة من أن المحررين يفكرون في استخدامهن بالدرجة الأولى كمقيِّمات للنصوص. وحيث إني ألقيتُ فصولاً عديدة من خلال سلسلة المحاضرات فقد تلقيت معلومات قيّمة من زملائي المسيحيين من كلا الجنسين ومن خلفيات كثيرة ومستويات متنوعة من التعليم. وأود بصفة خاصة أن أتقدم بالشكر لأعضاء الكنيسة المُصلحة في براندون، مانيتوبا، لضيافتهم لي خلال سنة ١٩٨٧-١٩٨٨، حين كان زوجي راعيهم المقيم، انتهزت الفرصة للحصول على إجازة لأكمل الكثير من هذه المخطوطة وقتما كنت أقيم في بيت القس طرفهم.

إن أي أخطاء، أو مبالغات ظلت موجودة في الكتاب تقع مسئوليتها على عاتقي. وإني لآمل، على الرغم منها، أن يُشكل الكتاب إضافة نافعة في الحوار الدائر حول الجنس (من حيث الذكورة والأنوثة) ولعله يصبح مرشِداً للتغيير الشخصي في حياة بعض قرائه.

المؤلفة

ماري ستيوارت

جراند رابيدز، متشجان

عيد الشكر ١٩٨٩

الباب الأول

فهم الموضوعات

الفصل الأول : لماذا نقرأ هذا الكتاب ؟

الفصل الثاني : الرجل والمرأة في الكتاب المقدس.

الفصل الثالث : كيف تنظر إلى الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة.

الفصل الأول:

لماذا نقرأ هذا الكتاب ؟

أنا وزوجي أبوان لولدين أحدهما في الثامنة من عمره والآخر في العاشرة. ولا يدعو للدهشة أنه في بعض الأحيان يتعين علينا أن نعالج موضوع المنافسة بين هذين الشقيقين المتقاربين في أعمارهما. وحين اضطررت منذ مدة قريبة مضت إلى التدخل لفض مشاجرة بينهما، حاولت أن أصرف انتباه هذين الخصمين عن العراك بأن صحت بصوت عال متساءلة ما إذا كان من الأفضل لي لكي أريح نفسي بأن استبدلهما ببنتين. ولقد نجحت هذه الوسيلة، وصرفتهما عن العراك. إلا أن ردود أفعال ابني الصغير كان من شأنها أيضاً أن تبدأ ضروباً جديدة من العدوانية.

فقد صاح بأعلى صوته وقد أخذته نوبة من الغضب، كلا، أنتِ لا تريدين بنات، فهن نمامات. دائماً يتوجهن للمدرسة ويثرثرن : لقد فعل هذا ..... وعمل ذاك. لقد رفع إبني صوته مؤكدًا رأيه بدرجة مقنعة حتى أدركت أن الذي يتكلم إنما هو صوت اختبار حديث.

واستطرد يقول : فضلاً عن ذلك فإن معظمهن تردُن اللعب بدُمي الهامبورجر مثل لُعب باربي. لقد واجهت حجته الثانية بقولي إنني وأباه لم نعد

نستسيغ لُعب باربي ولا اللُعب التي على شكل مسدسات ولن نفكر في شـراء هـذا أو ذاك لأي طفل نربيه.

أما فيما يتعلق بأن البنات واشيات، فقد قلت، بعـد أن تصرفـت كإخصائيـة نفسية محترفة، بأن عليه أن يتذكر أن معظم البنات لا تستطعن الشجار البدنـي مثـل الأولاد، ولذلك فمن المعقول أن تدافعن عن أنفسهن بالكلام.

قضية معقدة :

انتهت هذه الجولـة في المعركـة بـين الجنسـين بالتعـادل، فقـد جنـح ابـني إلى السلام على مضـض، وانصـرف إلى نشـاط آخـر. إلا أن هـذه المعركـة كـانت لهـا فائدتها حيث قدمت المفاهيم والموضوعـات المحيطـة بهـذا الكتـاب. لقـد علّـق ابـني (أصدر حكمه) على نموذج مختلف للسلوك بـين الأولاد والبنـات. أمـا بالنسبة لي، فإذ رفضت أن أتحيز لأي طرف في الموضوع، لكنني لم أنكر دقـة ملاحظاتـه بصفـة عامة. و لم يواصل أي منا كلامه ليناقش السؤال الأعمـق والأكـثر مدعـاة للارتبـاك وهو إذا كانت الاختلافات في السلوك والأمزجة تبدو أنها تفرق وتُميز بالفعل بـين الأولاد والبنات، فأين نشأت ؟ هل هي متأصلة في علم الأحيـاء ؟ أوفي الممارسـات المتعلقة بتنشئة الأطفـال ؟ أو في مزيـج مـن الاثنـين ؟ أو في شـيء آخـر غيرهمـا أو مثلهما ؟

وإذا كانت إجابتنا جـاءت لتجمـع بـبن الطبيعـة والتنشـئة، أو علـى الأحيـاء والتقافة، هنا نكون قد ضاعفنا مصاعبنا فحسب، لأننا حين نتأمل الاختلافات بـين الذكور والإناث، كيف لنا أن نُحدد على وجه الدقة مقـدار مـا نجـم عـن الطبيعـة، ومقدار ذاك الذي نجم عن التنشئة. كيف لنا أن نستطيع بالفعل أن نفصل حتى بـين إسهامات كل منهما ؟ لقد أدرك ليون كامين Leon Kamin ـ وهو عالِم نفسـاني في برنسنون ـ هذه المشكلة في سياق سؤال مختلف ولكنه ذو صلـة بـالموضوع ـ وهـو

الإسهامات المتعلقة بالناحية الوراثية والبيئية الممثلة في درجات حاصل الذكاء لدى الأطفال. ولقد كتب كامين يقول :

إنها لحقيقة مؤكدة أن درجات حاصل الذكاء تميل إلى أن تتكرر في العائلات. ولكن هذا في حد ذاته لا يخبرنا أن أداء اختبار حاصل الذكاء قد تقرر على أساس وراثي. فالأباء الذين يقرأون الكتب، يميلون إلى أن يكون لديهم أطفال يقرأون كُتباً. والآباء الرياضيون يميلون إلى أن يكون أبناؤهم من الرياضيين. والآباء الذين يأكلون السمك المدخن يميلون أن يُرزقوا بأطفال يأكلون الشيء نفسه. والحاصل هو، بالنظر إلى أننا نُمرر بيئتنا لأولادنا جنباً إلى جنب مع صفاتنا المتوارثة، فليس ثمة طريقة لنقول جازمين أياً من هذه العوامل تُنتج سلوكاً معيناً في طفل معين، أو بأي مقدار يفوق هذا العامل العوامل الأخرى.

وكان "كامين" على حق حين قال بأنه لا توجد طريقة أكيدة نقيس بها إسهامات الجينات في مقابل التعليم، بالنسبة للفروق التي نشهدها بين مجموعات الناس. وبالتأكيد ليست هناك طريقة يمكن استخدامها بالنسبة لجميع الأشخاص في كل الأزمنة وفي أي مكان. وإذا استخدمنا معيار اللغة العلمية الاصطلاحية، سنجد أن هذين العنصرين ممتزجان و مختلطان تقريباً في كل المجموعات العرقية والثقافية، وكذلك في كلا الجنسين. وهناك طرق غير مباشرة لمحاولة فرز الطبيعة والتربية فيما يتعلق بالاختلافات في الجنس، سوف نناقش بعضها في فصل لاحق في هذا الكتاب. إلا أن استخدام متل هذه الوسائل لا يزال يأتي لنا بنتائج تكاد تعطينا دائماً أكثر من تفسير واحد.

لكن في الواقع، لا توجد وسيلة أكيدة للفصل بين إسهامات الطبيعة والتربية وهذا لم يمنع البحث العلمي الاجتماعي من إيجاد تعريفات لكل منهما. فمن الشائع في الكتابة العلمية الاجتماعية استعمال كلمة "جنس" عند تخمين الإسهامات

البيولوجية الخالصة بالنسبة لسلوك الذكر أو الأنثى، على سبيل المثال الإسهامات التي يبدو أنها جاءت وليدة الجينات، أو الهرمونات، أو تركيب المخ. ومن الشائع استخدام كلمة "الجنس" (من حيث الذكورة والأنوثة) أو أدوار الجنس، عند الحديث عما يبدو أنه أكثر وضوحاً من ناحية كونه فروقات أكتُسِبت بالتعلم، أو تم تكييفها تبعاً لقواعد المجتمع. ومثل هذه الفروقات بين الرجال والنساء قد تشمل سلسلة عريضة، بدءاً من تلك التي ترتدي الجواهر إلى ذاك امذي يشيّد المنازل، وذاك الذي يتخلى عن اسم العائلة أو الذي يبدأ علاقة جنسية. وهذه بعض من كثير من السلوكيات التي تُظهر قدراً كبيراً من المتغيرات الثقافية مع الأخذ في الاعتبار عما إذا كانت هذه السلوكيات تجد مجالها في الرجال أو السيدات أو الفئتين معاً أو في بعض الحالات، أم أنها لا توجد.

وتمشياً مع المصطلحات التي ذُكرت آنفاً، فإن هذا الكتاب سوف يستعمل تعبيرات الذكورة والأنوثة أو أدوار الذكورة والأنوثة حين التكلم عن الفروقات التي تُكتسب بالتعلم في السلوك بين الذكور والإناث، وتعبير الجنس، أو الجنس البيولوجي عند الإشارة إلى ما يبدو أنه معطيات بيولوجية. إلا أنه بالنسبة للسؤال عن مقدار ما تسهم به الطبيعة أو التربية من الفروقات بين البنات والأولاد، الرجال والنساء، فهو ليس السؤال الوحيد الذي يطرحه أولئك الذين يتسمون بالتفكير العميق. والواقع أن معظم الناس مشغولون بأسئلة أقل تجريدية، وأكثر تشخيصاً.

أسئلة معقدة : الهوية والزواج.

من بين هذه الأسئلة ما يتعلق بالهوية الشخصية. وكثيراً ما يتساءل الناس : ما الذي يجعلني "طبيعياً" أو متزناً، كذكر أو كأنثى ؟ وعادة ما تكون الإجابة قائمة على فروقات تشريحية واضحة غير مقنعة. ذلك أننا نريد أن نعرف ما إذا كانت

هناك سلوكيات، أفكار، مشاعر معينة تُشكِل جزءاً من المقاييس المعيارية، وإذا كان الأمر كذلك، نود معرفة ما إذا كنا نحن أنفسنا نسلك، ونفكر، ونشعر طبقاً لهذا المعيار أم لا. أو قد نتساءل : إلى أي مدى نستطيع أن نشرد خارج هذه الحدود دون أن نعرِّض للخطر وضعنا كنساء أو رجال لهم تكوينهم الطبيعي.

وتقديم إجابة على السؤال الخاص بالهوية جعلها تزداد صعوبة لحقيقة أن حدود السلوك المقبول من الذكر والأنثى يتغير باستمرار. فحين اختُرعت الآلات الكاتبة لأول مرة، اعتُبرت أنها في غاية التعقيد بحيث لا تستطيع النساء تشغيلها. وإلى عهد قريب، كان يُعد أمراً غير ملائم أن يتواجد الرجال لحظة ولادة أطفالهم. وحين كنت طفلة، كانت أية بنت تأتي إلى المدرسة ببنطلون فضفاض أو جينز بدلاً من الجونلة، مهما كان الطقس، كانت تُعاد فوراً إلى منزلها لتغير ملابسها. وأي ولد كان يريد أن يأخذ الاقتصاد المنزلي بدلاً من النجارة، كان يُعدُّ مرشحاً رئيسياً لأي مشورة نفسية رجعية، متاحة في نظم المدرسة في تلك الأيام. والقائمة يمكن أن تستمر إلى ما شاء الله. بل أنه حتى في ثقافتنا (ناهيك عن المستوى العلمي) فإن تحديد ما هو سلوك "ملائم" للبنات والأولاد، للرجال والنساء، يشبه محاولة صيد سمكة ذهبية اللون بيديك فقط. فحين تعتقد أنك قد تمكنت منها، تراها وقد سبحت عنك بعيداً.

وهناك موضوع ثان يشغل أصحاب الفكر العميق يختص بديناميكية الزواج. في المجتمع الغربي يتلقى الناس تعليمهم معاً طبقاً لمنهج يتطلب في الأساس نفس الأداء من كل واحد. وكل شاب (على الأقل نظرياً) يُعَّدُّ للقيام بدور المواطن البالغ المتعلم، الذي يعول نفسه، على قدر من الثقافة. وإلى أي مدى يجب أن ينغير هذا حين تتزوج امرأة ورجل ؟ هنا أيضاً نجد أن المعايير يمكن أن تكون قابلة للتغيير إلى حد كبير.

وعلى سبيل المثال، فإن والدتي قد دُربت للعمل كمدرّسة في مدرسة ابتدائية في الوقت الذي كان الزواج فيه يعني تلقائياً التخلي عن وظيفتها، وليس ذلك بمجرد استجابة لعادة اجتماعية غير مكتوبة، بل أيضاً استجابة لمعايير سياسة مجلس إدارة المدرسة في المدينة التي نشأتُ فيها. وفي الوقت الذي بدأتُ فيه الدراسة كانت الأمور قد أصبحت أقل صرامة، وكان من الممكن قبول مدرّسة متزوجة، ولكن ليس ممن تكون قد بدأت في تكوين عائلة. فحتى رؤية المدرِّسة وهي حامل أثناء التدريس كانت تُعد أمراً غير ملائم، واستمر الحال على هذا النحو حتى منتصف الخمسينيات تقريباً. ومع ذلك، وفي نفس هذا التوقيت تقريباً، وبسبب زيادة عدد الأطفال بعد الحرب، فقد نجم عن ذلك عجز في عدد المدرسين، سرعان ما تم تحديث تدريب والدتي، ورحبوا بعودتها ثانية للتدريس على الرغم من أنها كانت لا تزال متزوجة وأصغر أولادها لم يكن قد تعدى سن الثامنة. أما الآن، وبعد مرور جيل على تلك الأحداث، فقد تبدلت الأمور إلى حد كبير حتى إن ابني الأصغر كان بوسعه أن يلتحق بأحد فصول مدرسة مسيحية، وكانت واجبات دروسه موزعة بين امرأتين، كل منهما لديها أطفالها الصغار، بل إن إحداهما حصلت منذ عهد قريب على إجازة لمدة ستة شهور فقط لتلد مولودها الثالث قبل العودة إلى وظيفتها كمدرّسة !

ولقد حدثت تغييرات مماثلة بالنسْبة للسلوك المقبول من الآباء والأزواج. فمنذ جيل مضى، كان من غير المألوف أن ترى رجلاً وهو يدفع أمامه عربة أطفال. أما اليوم فنرى الآباء الشباب وهم يحملون الأطفال على أيديهم أو خلف ظهورهم، كما لو كان هذا الأمر من أكثر الأنشطة التي من المألوف أن يقوم بها الذكور. ومنذ جيل مضى، كان رجال الطبقة المتوسطة يشعرون بنوع من العجز إذا التحقت زوجاتهم بالقوى العاملة نظير أجر. أما اليوم، فإنه أمر عادي بالنسبة للزوجات

اللآتي تفضلن البقاء في البيت أن تشتكين من أن أزواجهن هم الذين يُلحون عليهن للالتحاق بالعمل، أو الاستمرار فيه بُغية زيادة دخل الأسرة !

وما هذه سوى أمثلة قليلة للتغيير الذي طرأ على المعايير الاجتماعية بالنسبة للدور السلوكي لكل من الذكر والأنثى. والمسيحيون على وجه الخصوص يرون ضرورة أن يلجأوا للكتاب المقدس للحضول على إجابات على أسئلتهم المتعلقة بالأدوار التي يتعين أن يؤديها كل من الذكر والأنثى، أو إلى أي مدى عليهم الرجوع إلى اكتشافات العلوم الاجتماعية والبيولوجية. وتراهم وقد تملكتهم الحيرة بصفة خاصة حين يرون أن الرعاة واللاهوتيين والذين هم ملتزمون بنفس القدر بإطاعة سلطان الكتاب المقدس، ولكنهم مع ذلك يختلفون حول ما تعنيه بالفعل فقرات معينة، أو حين يقدم علماء الاجتماع إجابات متضاربة، مع أنه من المفترض أن كلاً منها جاء نتيجة بحث هادف. ومن بين أهداف هذا الكتاب، ولا سيما الفصول الثلاثة الأولى منه، أن يُقدم إرشادات لتفسير كلا النوعين من السلطة : سلطة العلم (والتي تُشكل جزءاً مشروعاً من إعلان الله العام للبشرية) وسلطان الكتاب المقدس (والتي هي إعلان الله الخاص).

أسئلة أكثر تعقيداً : دور الوالدين والمساواة

وهناك مجال ثالث يثير أسئلة عن الجنس ودور كل من الذكر والأنثى وهو مجال دور الأباء. إذا وجدنا صعوبة في أن نحدد بأنفسنا المعنى الواضح لأن يكون الإنسان رجلاً أو إمرأة، فكم سيصبح الأمر أكثر تعقيداً حين نقوم بمهمة تحويل الأطفال إلى نساء ورجال بالغين، ممن يشعرون بالأمان في هوياتهم من حيث الذكورة والأنوثة. هنا أيضاً يبدو أن الكنيسة، وكذلك العلوم الاجتماعية تقدم لنا رسائل متشوشة. أعرف بمجموعة مسيحية منظمة من الناحية الاجتماعية، يُشجع فيها الرجال على ألا يغيروا حفاض أطفالهم، خشية أن يراهم أبناؤهم يقومون "بعمل

النساء" فيكبرون وقد تَولّد فيهم شعور بعدم الاطمئنان من ناحية رجولتهم . بيد أن هناك مسيحيين آخرين - أُعدوا على نحو جيد ليكونوا مفسرين للكتاب المقدس - يصرون على أنه إذا ما فُهم الكتاب المقدس على نحو سليم، فإنه سوف يؤيد ليس فقط القيمة المتساوية للرجال والنساء، بل والتغيير المتبادل الفعلي في الأدوار الخاصة بالجنسين. ولسوف نقابل في هذا الكتاب أُناساً من المعارضين والمؤيدين في هذه المناقشة ونحاول أن نُفكر ملياً في ادعاءات كل طرف.

وهناك البعض من المشتغلين بعلم النفس ممن لا يزالون ينحازون إلى فرويد Freud في قوله إن ديناميكية تكوين الهوية بالنسبة للذكر والأنثى مختلفة تماماً، وإن أي تدخل في المجرى "الطبيعي" لأي منهما سيولّد أمراضاً عند وصولهما إلى سن البلوغ. ومع ذلك، هناك آخرون ممن يدَّعون أن الناس الذين يتوحدون بشدة مع أنماط جنسهم (من ناحية الذكورة أو الأنوثة) هم أقل صحة من أولئك الذين تجمع شخصياتهم الجانبية بين عناصر الذكورة وعناصر الأنوثة على نحو نموذجي. ومثل هذه المناقشات - عن تكوين الهوية بالنسبة للذكورة والأنوثة ونوعية الرعاية الأبوية التي تسهم في هذا التكوين - سوف تشكل جزءاً كبيراً من القسم الثالث من هذا الكتاب وذلك في الأبواب من السابع حتى التاسع.

وأخيراً، فإنه يتبقى بالنسبة للكثيرين موضوع أكثر حساسية وهو : موضوع المساواة (أو ربما بدقة أكثر، العدالة) بين الجنسين، وما المقصود بذلك. قال الممثل ألان ألدا، وهو من دعاة المساواة بين الجنسين : "هل هناك أي شخص يعتقد أن النساء هم أناس مثلنا". حسناً، فعلى أساس هذا المعيار يكون كل مسيحي (أو ينبغي أن يكون) من المنادين بالمساواة بين الجنسين، وعن قناعة. ومع ذلك فالمسيحيون يجدون أنفسهم مختلفين حول مضمون ما تعنيه تماماً البديهية القائلة بأن "النساء أناس مثلنا"، وذلك بالنسبة للعائلة والكنيسة والحياة المجتمعية. فهناك

مسيحيون كثيرون، ولاسيما النساء، يشعرون بأنه لو أن الكتاب المقدس منح الأزواج سلطة غير متبادلة على زوجاتهم، أو منع النساء من شغل وظائف معينة في الكنيسة، فأي حديث والحالة هذه عن المساواة الروحية، أو "المساواة في المسيح"، هذا في أفضل حالاته كلام لا معنى له، وفي أسوأها رياء ونفاق. وفي ذات الوقت، فإن الكثيرين من علماء الاجتماع - ولاسيما إذا كُن من النساء - يؤكدون بأنه حينما يُفترض وجود "فروق" بين النساء والرجال، ففي الغالب الأعم يتضح أنها "عجز" من جانب النساء. ولذلك يعتقدون أن الفروقات من أي نوع يجب عدم الاعتراف بها بأي حال، ناهيك عن دراستها بأي عمق.

وهناك آخرون (من مسيحيين وغيرهم) يشعرون على النقيض من ذلك تماماً. ففي أمريكا، نجد أن من أكثر الزيجات مدعاة للدهشة في العصر الحديث، هو الذي تم بين فيليس وسكالفلي Phyllis - Schlafly - والتي تعارض حركتهما المُسماة "بنادي النسر" التعديل الذي أُدخل على المساواة في الحقوق وبين أحد البارزين في حركة المناداة بالمساواة بين الجنسين، والذي بدأ يؤكد أن التقليل من شأن الاختلاف في الجنس، مهما كان الدافع إليه حسن النية، فإنه سيؤدي إلى عدالة "أقل" للنساء. وفي الوقت الذي يعارض فيه المنادون بالمساواة بين الجنسين النزعة المحافظة التي تغلب على طابع سكالفلي من النواحي السياسية والدينية، إلا أنهم يتفقون معها على أنه إذا كان للنساء أن يتساوين حقاً مع الرجال فإن الأمر لا يتطلب "مساواة" فحسب، بل معاملة تفضيلية في بعض مجالات حياتهن. وكلاهما وافق على أن تعديل الحقوق المتساوية في صيغته المقترحة حالياً، سيجعل النساء في الواقع أكثر ضعفاً. وهم يعتقدون أنه سوف يُزيل كل قوانين الدولة التي تهدف إلى تدبير "شبكة أمان" للزوجات اللاتي لا تعملن ومن ثم لا تتقاضين أجوراً، وللأمهات الحديثات والمطلقات، والنساء المنخرطات في القوات المسلحة. وفي ذات

الوقت، فلن يضيف شيئاً من ناحية الحماية من التمييز في الوظائف، التي لم يسبق أن غطاها أي تشريع آخر.

وتخلص عالمة الاقتصاد سلفيا هيوليت إلى القول بأنه إذا كان ثمن المساواة هو أن تصبح النساء "صوراً مشوهة من الرجال"، ففي هذه الحالة تكون المساواة في الواقع أمراً مشكوكاً فيه. والأسئلة المتعلقة بالعدالة الاجتماعية وأدوار الذكورة والأنوثة تتعلق بصفة خاصة بالأماكن التي تستأجر عاملين، ولسوف تهمنا ولاسيما في الفصل العاشر، ولكننا سنعرض لها أيضاً عند الحديث عن نقاط أخرى مختلفة في الكتاب.

ما من إجابات سهلة

هل بوسع عالِم نفسي مسيحي أن يقدِّم ـ في كتاب كهذا ـ إجابات نهائية لأسئلة تتباين في مقاصدها واهتماماتها، عن الجنس والذكورة والأنوثة، في المجالات السابق ذكرها : الهوية، الزواج، القيام بالدور الأبوي، والعدالة بين الجنسين ؟ بالكاد يستطيع إذا أخذنا في الاعتبار أن هذه الموضوعات كانت موضع مناقشة، ليس لفترات زمنية فحسب، بل لقرون، وليس بين العلماء فقط، بل بين الفلاسفة، واللاهونيين، والقانونيين أيضاً، وهكذا لن تُحل سريعاً. فضلاً عن ذلك، فهناك إدراك متزايد بين علماء النفس أن مهمتهم من الناحية التاريخية أكثر عمقاً مما اعتقدوه ذات مرة. أي أن ما يُطلق عليه قوانين السلوك الإنساني التي كافح علماء النفس كي يوضحوها، كثيراً ما تُبين أنها لا تنطبق سوى على نوعيات معينة من الناس وفي أوقات معينة.

فعلى سبيل المثال، فإن التجارب النفسية الاجتماعية، التي أظهرت أن معظم الناس ممتثلين ضعفاء في الخمسينيات، حين كُررت على نحو من التفصيل في

السبعينيات، تم التشديد عليها بقوة حتى إنه لم يوجد أي ممتثلين على الإطلاق. وعلى ذلك، فإن الدراسات المنتظمة أظهرت أن النساء أسهل من الرجال من ناحية التأثير عليهن في الخمسينيات والستينيات، نادراً ما تجدهن الآن مختلفات عن الرجال في هذه الناحية. وعلماء الاجتماع، مثل العلماء الآخرين، عليهم التعميم بصفة مؤقتة فقط، لأنها عملية صعبة أن تفصل بين ما هو دائم عن ما هو من الناحية التاريخية متغير، وتتضاعف الصعوبة من ناحية توضيح أصل هذه الاختلافات بين ذكر / أنثى، والتي بدت على وجه العموم دائمة تماماً.

وبالنظر إلى أن الحالة هي هكذا، فأحسب أن وجود وجهة نظر مسيحية عالمية، صيغت واستُخلِصت من الكتاب المقدس، يمكن أن تُشكل عوناً عظيماً من تمحيص كمية الكتابات الهائلة التي تناولت موضوع الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة، والحكم عليها. فعلى الرغم من أن الكتاب المقدس لا يُشكِل نصاً مُفصلاً لعلم النفس، إلا أنه يوضح بالفعل، بعض الادعاءات الأساسية المتعلقة بطبيعة النساء والرجال. وهذه الادعاءات متعلقة بأهداف خلقتهم، وأهميتهم لدى الله، وجذور عدم استطاعتهم في أن يكونوا في سلام في العالم ومع بعضهم البعض، ومصدر ومدى شفائهم الكامن. وإنها لحقيقة أن المسيحيين الذين يتشاركون بنفس القدر في تقديرهم العميق لسلطان الكتاب المقدس كثيراً ما يختلفون حول التفاصيل الدقيقة لهذه القصة الكتابية، ولاسيما تلك الأجزاء التي تتحدث عن الإنسان في علاقته مع الله ومع الآخرين. وهذا لا يستوجب في الواقع أن يكون مدعاة لدهشتنا. فالخطية والمحدودية التي هي من سمات الجميع، تجعل من المستحيل لنا أن نقرأ الكتاب المقدس كله كما ينبغي أن يُقرأ. وبالنسبة لبعض الموضوعات، علينا أن نقنع بأننا نرى من خلال مرآة معتمة، وأن نجاهد كي نعامل أولئك الذين يختلفون معنا معاملة طيبة.

ومع ذلك، فإني سأحاول في الفصل التالي أن أضع إطاراً نظرياً عن الجنس والذكورة والأنوثة قائماً على قصة الخلق الكتابية، والسقوط، والفداء، والتجديد. وهذا الإطار بدوره سيقدم خلفية نقدية على أساسها نقيمٌ العلم الاجتماعي في إطار النظريات والبحث، الأمر الذي سنعرض له في الفصول اللاحقة. غير أنه قبل أن نبدأ تحليلنا للقصة الكتابية، وتطبيق نتائجها على دراسات الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة، يتعين أن نذكر شيئاً عن علاقة الكتاب المقدس بعلم الاجتماع بصفة عامة، وعلم النفس بصفة خاصة.

الكتاب المقدس وعلم الاجتماع : هل لهما أن يلتقيا ؟

كان أحد أبنائي ـ وهو في السادسة من عمره ـ يلعب مع كلب عمته البودل (وهو كلب صغير مقصوص الشعر، يمتد ذيله مستقيماً ولا يخفي شيئاً). وكان يحملق مفتوناً بأعضاء الكلب التناسلية، ثم استدار نحوي وقد بدا عليه أنه مستغرق في تفكير عميق وسألني : لماذا لا ترتدي الحيوانات ثياباً مثل الناس ؟ وإذ أتكلم بمنطق علم النفس الخالص، كان بمقدوري أن أتفادى هذا السؤال بطرق عدة. كان بوسعي أن ألجأ إلى علم الأحياء وأقول له إن فرو الكلاب يوفر لهم الدفء الكافي دون حاجة إلى غطاء إضافي. وكان بمقدوري أيضاً أن ألجأ إلى الناحية الثقافية أو الحضارية وأجيبه بقولي إنه قد جرت العادة في مجتمعنا أن يرتدي الناس (إلا في تمثيليات السيرك) الملابس لا الحيوانات. بل وكان بإمكاني أن أنغمس في الضحك فحسب، متذكرة ما قالته جين بياجت Jean Piaget عالمة النفس السويسرية العظيمة إخصائية الأطفال التي انتهت إلى أن الأطفال حتى في سن السابعة يطرحون مثل هذه الأسئلة لأنهم "يفكرون على نحو زائف"، ذلك أنهم يعتقدون أن كل شيء لابد وأن يكون له هدف في إطار خطة عالمية عظيمة. وقد قالت بياجت إنهم في

وقت لاحق فحسب يتعلمون أن "يفكروا بطريقة علمية"، ويدركوا أن كل شيء إما أن له علة طبيعية أو أنه يقع بالصدفة.

إلا أنني كأم مسيحية، شعرت أن ابني كان يطرح سؤالاً لا يمكن أن يُجاب عليه إلاّ بتجاوز العلم وعلم الاجتماع، واللجوء إلى القصة الكتابية التي نشترك جميعاً في تمثيلها. ولذلك استغرقت في تفكير عميق لعدة ثوان، ثم أجبته قائلة : "أعتقد أن الحيوانات ليست في حاجة لارتداء ملابس لأنها لم تعصى الله مثلما فعل آدم وحواء". وذكرته بالقصة الواردة في تكوين ٣، حيث أكل الإنسان الأول والمرأة من التمرة المنهي عنها، ثم أدركا على حين غرة أنهما عريانان ومن ثم قاما بتغطية جسديهما بأوراق الشجر. ونتذكر أن الله عرف أيضاً خجلهما بسبب عُريهما وعلّمهما كيف يصنعان ثياباً من جلد الحيوان قبل أن يطردهما من الجنة. بعد ذلك أسرع ابني ليقضي مزيداً من الوقت في اللعب مع الكلب. إلا أن إجابتي لابد وأنها كانت في الصميم، لأنه بعد دقائق قليلة مررت به وكان جالساً على الأرض يربت على رأس الكلب بحنان حيث كان يقول له : إنك لكلب لطيف، كلب طيب، لأنك لم تأكل من بسكويت الكلب المحرَّم، أليس كذلك ؟

مجال قيّم لكنه محدود

ذكرت هذه الواقعة البسيطة لكي أصل منها إلى نقطة هامة. وقد سبق لي في بداية هذا الفصل أن قلت إننا في حاجة إلى وجهة نظر عالمية قائمة على الكتاب المقدس، لتساعدنا على تقييم الكم الهائل من الكتابات التي تتناول الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة والتي تراكمت على مدى العقدين الماضيين. ولكن، كيف لنا أن نعمل هذا التقييم ؟ وأول شيء يتوجب قوله في هذا الصدد هو : إن مجال التفسير النفسي قيّم، بيد أنه محدود.

وإذا طُرح السؤال : لماذا يتأرجح أطفال سن السادسة (مثل ابني) بين الافتتان والخجل من نظرتهم للأعضاء التناسلية ؟ قد يُجيب علماء الاجتماع على هذا السؤال بإحدى طرق عديدة. فعلماء الاجتماع والأحياء الذين يُشددون على الأساس البيولوجي للسلوك، ربما يُشيرون إلى أن تناسل الجنس البشري (ربما يصاحبه آلام ومضايقات والتزام طويل الأمد بتربية الأطفال) يعتمد على اللذة القوية الفريدة التي تتيحها الإثارة الجنسية، وهي لذة يشعر بها حتى الأطفال حين يستكشفون أجسامهم. وعلماء النفس التابعين لفرويد يوافقون على أن الرغبة الجنسية هي أحد الدوافع الرئيسية التي تقود التنمية البشرية. لكنهم قد يقولون بأن تأرجح الأطفال بين الافتتان والخجل مرده الصراع الفكري الذي يقيمه الآباء وبقية المجتمع بين رغبة الطفل الطبيعية في إشباع تلك الرغبات والضغوط التي تُبذل لإعاقة ذلك من أجل النظام الاجتماعي. وقد يتجنب الباحث الاجتماعي اللغة الفرويدية الخاصة بالصراع العقلي، ولكنه سيوافق على أن المكافآت أو العقوبات الاجتماعية، ونماذج الأدوار تُحمِّل الأطفال على تجنب الحديث عن الجنس والاستكشاف في إحدى العائلات، أو الانغماس بمزيد من الصراحة في عائلة أخرى. وعالم النفس الواعي قد يؤكد أن الأطفال في سن السادسة يصارعون ذهنياً لكي يصنفوا الأحداث والأشياء بطريقة منظمة يُعتمد عليها، ومن ثم يريدون معرفة المزيد بقدر الإمكان عما يجعل "الأولاد" متميزين عن "البنات"، والحيوانات مختلفة عن "الناس".

هل يتعين على المسيحيين الذين يقرون بسلطان الكتاب المقدس أن يرفضوا أياً من هذه التفسيرات أو يرفضوها بجملتها ؟ بعض المسيحيين سيقولون نعم. والبعض على قناعة بأنه حتى علوم الاجتماع بصفة عامة، وعلم النفس بصفة خاصة ليس لها من ضرورة، بل وربما يصفونها بأنها شر مطلق. وهم يُصرُّون على

أن ما تحاول هذه النظم أن تتجزه في فهم حالة البشر، يجب ألاّ يتم إلاّ بلجوء المسيحيين للكتاب المقدس كدليل لهم. غير أن كثيرين آخرين يشيرون إلى أنه بالنظر إلى أن جميع الأشخاص خُلِقوا على صورة الله، وأن مقاصد الله يمكن أن تتم من خلال مَن يختارهم الله، والحق الذي يتناغم مع الإعلان الإلهي الكتابي يجب احترامه بغض النظر عن أصله، وهو موضوع سوف نناقشه بتفصيل أكثر في الفصل السادس. وما يعتقد الناس أنه يتناغم مع الإعلان الكتابي يعتمد بالطبع، على الكيفية التي بها يفسرون الكتاب المقدس أو يطبقونه. إلا أن الكتاب المقدس على الأقل يوضح أنه كما أن الناس خُلِقوا على صورة الله، غير أن فهمهم للحق محدود تبعاً لبشريتهم، ولأنه قد شوهته الخطية. وهذا معناه أنه لا المسيحيين ولا غيرهم لديهم "خط أنابيب" مضمون للحق النهائي، سواء في التفسير الكتابي أو في أي نظام آخر. علينا بصفة مستمرة أن نفصل القمح عن العصافة في تفكيرنا وفي تفكير حتى أفضل المفكرين لدينا.

وهكذا فإن إجابتي على السؤال : هل يمكن للكتاب المقدس وعلم الاجتماع أن يتلاقيا ؟ هي نعم، ولكن بشرط. فحتى إذا استطعنا الموافقة على أن كل نظرية من تلك التي ذُكرت آنفاً تتضمن قدراً من الحق، وحتى إذا كان بمقدورنا أن نستبعد كل التشوهات الباقية على أساس المعايير الكتابية، فإننا مع هذا، سوف نظل في حاجة إلى معرفة أن كل تفسير علمي، يُعد تفسيراً محدوداً. فالنظريات السيكلوجية، على سبيل المثال (كمعظم النظريات العلمية) تميل إلى التخصيص. فعالم النفس المُطلع يميل إلى أن يرى كل شيء في ضوء تطور التفكير، ولا يُعير العاطفة اهتماماً إلا بقدر ضئيل. وعلى النقيض من ذلك، فإن عالِم التحليل النفسي يقول إنه حتى أكثر التفكير رزانة تتحكم فيه عواطفنا. وبعض علماء النفس السلوكيين قالوا إنه بإمكاننا أن نتجاهل ببساطة ما يدور في أذهاننا (التفكير أو

الشعور) ونركز فقط على كيفية تنظيم السلوك الخارجي عن طريق الثواب والعقاب من البيئة.

فضلاً عن ذلك، فإنه ليس من بين هذه النظريات في أنقى حالاتها ما يُفسح المجال لأي احتمال للحق المُعلن، أو لمسئولية البشر أمام الله الذي هو نفسه الخالق والفادي. وبنفس الطريقة فإن النظريات الخاصة بالجنس والذكورة والأنوثة - بغض النظر عن مقدار المعلومات التجريبية التي تدعمها - هي في أفضل حالاتها محدودة في مجالها، وفي أسوأ حالاتها (مثل كل تفكير بشري) مُعرَّضة لأن تشوهها الخطية. وهذه نقطة يجب ألاّ تغيب عن ذهن القارىء طوال الفصول التالية.

الحكم على النظريات طبقاً لمعتقدات الضوابط الكتابية :

النظريات الدقيقة عن الجنس، كما سبق القول، ليست قاصرة على المسيحيين ولا هي مضمونة بوسائل علم الاجتماع. ولقد رفضت الاقتراح القائل بأن فهماً كاملاً للسلوك البشري يمكن الوصول إليه من خلال دراسة الكتاب المقدس وحده. إلا أنني قلت أيضاً إن النظريات المتعلقة بالجنس والذكورة والأنوثة يجب انتقاؤها على ضوء الإعلان الكتابي.

يوجد الآن علماء اجتماع مسيحيون ممن يُقدِّرون الكتاب المقدس حق قدره، والذين على الرغم من ذلك أصبحوا في قلق بشأن هذا الاقتراح الأخير. ولقد تذكروا أن جاليليو وُصم بأنه هرطوقي لإصراره على أن الأرض تدور حول الشمس في الوقت الذي أكدّ المتتكون عليه أن الكتاب المقدس يُقرر عكس ذلك بكل وضوح. وهم يتذكرون أولئك المسيحيين المعاصرين للملكة فيكتوريا، الذين حددوا تاريخ خلق العالم بأنه كان على وجه الدقة سنة ٤٠٠٤ ق.م.، مُصرين على أن حساب الأجيال بالرجوع إلى الماضي وبحسب ما ورد في الكتاب المقدس لا

يشير إلاّ إلى هذه النتيجة. وتذكروا كيف أن أنجلوس Anglos استعمل في كل من أمريكا وجنوب افريقية أجزاءً معينة من الكتاب المقدس لكي يُبرروا معاملتهم الظالمة للسود، وكيف أن بعض الذكور انتقوا أجزاءً أخرى من الكتاب المقدس واستخدموها لتبرير الوضع المتدني للنساء.

من هذا المنظور، لا ينبغي استخدام الكتاب المقدس متل استخدام كتاب علمي. فهو لا يذكر لنا شيئاً عن ميكانيكا العالم أو تاريخه الطبيعي، ولكنه يتحدث فحسب عن القوى الخارقة للطبيعة أو تاريخ الفداء. والمتمسكون بهذا المبدأ يشيرون إلى أن العهد القديم كله يتطلع إلى الأمام، إلى موت المسيح وقيامته، الأمر الذي يُشكل الوسط الزمني لتاريخ البشرية من وجهة نظر الله، وكتابات الرسل تتوقع أن تكون عودة المسيح الظافر هي ذروة تاريخ الخلاص. ومن الصواب تماماً القول بأن الكتاب المقدس إنما هو عن خطط الله وأعماله الكونية ، وهي أعمال يجب رؤيتها بعين الإيمان. والواقع أن هذا هو كل الموضوع الذي يدور حوله الفصل التالي، وهو "الذكر والأنثى في القصة الكتابية". ولكن، هل لنا ما يُبرّر قولنا إن هذا هو كل ما يدور حوله الكتاب المقدس، وأن استخدامه في الحكم على النظريات العلمية ما هو ببساطة إلا سوء استعماله ؟ والذين يتمسكون بوجهة النظر هذه يبدو أنهم على النقيض تماماً من أولئك الذين يقولون إن الكتاب المقدس هو الدليل الوحيد الذي نحتاجه. وهم، عوضاً عن ذلك يُصرّون على أن الكتاب المقدس لا يمكن استعماله إطلاقاً لأنه ببساطة لا يعمل على هذا المستوى من المعرفة.

وطبقاً لهذا الأسلوب الخاص بتفريع الحق الكتابي المُعلَن، والحق العلمي التجريبي، فإنه لم يكن من المناسب إطلاقاً بالنسبة لي أن أجيب على سؤال ابني بشأن الحيوانات والملابس بالطريقة التي أجبته بها، لأن ذلك يعني استعمال الكتاب المقدس لاقتراح نظرية عن استخدام الإنسان للثياب، الأمر الذي لا يُشكل جزءاً من

نوعية الإعلان الكتابي. وفي هذا الرأي أيضاً يجب على العلماء المسيحيين، وعلماء الاجتماع أن يختلفوا حقاً عن الآخرين من ناحية الأسلوب الذي ينهجونه في نظمهم، لكن هذه الاختلافات لن تؤثر إلاّ في شخصية العالِم النفسي فقط، ولن يكون لها تأثير على نظرياته العلمية أو الأساليب التي تنتهجها. وهكذا، فعلماء النفس المسيحيون، على سبيل المثال، لمجرد أنهم مسيحيون، يتعين أن يكون تقديرهم للحق عظيماً وأن تكون لهم ثقة في أن الحق يمكن استعلانه، وأن يتعاطفوا مع عملائهم، أو المساهمين في أبحاثهم. غير أنه فيما عدا ذلك، قيل إن علماء النفس المسيحيين يجب أن يكونوا "موضوعيين" وألا يسمحوا لمعتقداتهم الدينية أن تؤثّر في أي جزء من البحث أو في عملية تقديم المشورة.

وإني لأوافق الآن، من كل قلبي، على أن الالتزام المسيحي يجب أن يؤثر في كيان العالِم النفسي (أو أي عالم آخر) وذلك في إطار السبل السابق اقتراحها. ولكن، إلى جانب العدد المتزايد من العلماء المسيحيين الآخرين، أعتقد أيضاً أن الكتاب المقدس، رغم أنه ليس كتاباً علمياً بالمعنى المعتاد للكلمة، إلا أن بمقدوره، بل يجب أن يقدم لنا افتراضات لها خلفية معينة، أو "معتقدات ضابطة" نستطيع بها أن نُشكل النظريات العلمية ونحكم عليها، بما في ذلك تلك التي تتناول الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة. ومرد ذلك أن الكتاب المقدس هو أكثر من قصة فداء البشر، فهو يتضمن أيضاً وجهة نظر عالمية. فهو يخبرنا بأصل الكون الأساسي وطبيعته كخليقة الله. ويخبرنا بقصد وجود الرجل والمرأة كجزء من هذه الخليقة، وكيف أنهما سقطا من هذه الحالة، وما العواقب التي نجمت عن ذلك، وكيف يمكن للأشخاص أن يضعوا على الأقل بداية تكون على عكس هذه النتائج وذلك حين يقبلُون عمل المسيح الفدائي نيابة عنهم.

وهكذا نجد أن الكتاب المقدس له علاقة وثيقة بتقديم النظريات الاجتماعية (وهذا ما سوضحه في الفصل الثاني) لأن الرجال والنساء قد خُلقوا على صورة الله ليكونوا حكامه على الأرض المسئولين أمامه. بيد أننا أفسدنا العمل بشكل سيىء وفي حاجة إلى أن نعرف كيف السبيل إلى تصحيح الأوضاع. وفيما أن الكتاب المقدس لا يعطينا الإجابات بجميع التفاصيل التي نحتاجها لحياتنا اليومية، إلا أنه يوضح بالفعل بعض الموضوعات الرئيسية، التي يجب أن تتناغم معها إجابات أخرى أكثر تفصيلاً. وهي بهذا المعنى تشبه هيكل البيت الذي يجب أن نبني عليه. ويتعين علينا استخدام المواد المتاحة وذكائنا لإضافة ألواح الجدران الخارجية، والأرضيات، وشبكة الأسلاك وما إلى ذلك. ولنا حرية مطلقة بالنسبة للطرق التي نستطيع بها عمل ذلك. وليس هناك خطأ من أن تكون لدينا أعمال متخصصة، فبعض الناس بوسعهم التركيز على الأرضية، وآخرون على السقف، وآخرون على الأسلاك وهكذا. ولكن إذا أردنا بيتاً يثبت ويتحمل، فعلينا أن نعمل في حدود الإطار المتوافر. وفيما يتعلق بالجنس من حيث الذكورة والأنوثة (وكذلك بالنسبة لموضوعات أخرى كثيرة من علم الاجتماع)، فإن الكتاب المقدس يقدم مثل هذا الإطار. ونظراً لمحدوديتنا كمخلوقات، وميولنا الخاطئة، قد لا نستطيع إطلاقاً إعادة تشييد هذا الإطار بدقة تامة. ولكن هذا لا يعفينا من مسئولية الاستمرار في المحاولة.

ولكل هذه الأسباب نستطيع، بل ويجب علينا أن ننظر إلى الكتاب المقدس كمصدر للحقائق الأساسية المتعلقة بالجنس وأدوار الذكورة والأنوثة. ومن المؤكد بأنه علينا أن نتخطى ذلك، ويقيناً لن نفترض أن الله قد قصر أفكاره على المفكرين المسيحيين وحدهم. إلا أنه سيكون من واجبنا على الأقل أن نبدأ بإطار أساسي من الموضوعات الكتابية. وهذه هي مهمة الفصل التالي.

بعد ذلك، وفي الفصل الثالث سنتناول بصفة عامة السؤال الدقيق السابق ذكره ـ وهو المدى الذي يمكن فيه اعتبار السلوك الخاص بالذكورة والأنوثة راجعاً إلى الطبيعة، التربية، أم إنه لا يرجع إلى هذا ولا ذاك. أما الفصلان الرابع والخامس، فيسعيان إلى استكشاف نواح معينة من الصراع الدائر بين الطبيعة والتربية ــ على سبيل المثال، أهمية كل من الجينات، الهرمونات، وعالَم المخ، بالنسبة لسلوك الذكورة والأنوثة.

وأعتقد أن هذه الفصول التي يغلب عليها الاتجاه البيولوجي، كان من المهم أن يتضمنها كتاب كهذا لأن الكثيرين يعزون إلى الناحية البيولوجية إما القليل جداً، وإما أكثر من اللازم، وذلك حين يحاولون تسجيل الاختلافات بين الذكر والأنثى. ومع ذلك، فإن هذه هي أكثر الأصحاحات تحدياً من الناحية التقنية على مستوى الكتاب كله. وفيما حاولت أن تكون تفسيراتي واضحة وواقعية، إلا أن القُراء الذين تكون خلفيتهم بالنسبة لعلم الأحياء بسيطة أو معدومة سيجدون أنفسهم في حيرة إلى حد ما. ومثل هؤلاء القراء لهم الحرية في أن ينصفحوا فحسب، أو حتى يتغاضوا عن قراءة الفصول من الثالث حتى الخامس، ثم يبدأون قراءتهم العادية ابتداء من الفصل السادس. لكن قبل اتخاذ مثل هذا القرار، يتوجب أن يعرف كل القراء كيف أن الكتاب برمته يقوم على أساس نظرتي الكتابية للعالم، وافتراضاتها بالنسبة للشخصية والذكورة والأنوثة. وهذه هي الموضوعات التي سنعود إليها الآن.

الفصل الثاني:

الرجل والمرأة في فكر الكتاب المقدس

أي واحد ممن يقرأون القصص أو يشاهدون الأفلام السينمائية يعرف المقصود بكلمة "الارتجاع الفني" Flash back. وهذا أسلوب يتبعه الروائيون وكتبة السيناريو، الذين يبدأون من مكان ما في منتصف القصة، ثم يلتقطون أجزاءً في مقدمتها عن طريق الفلاش باك أو الارتجاع الفني، لأشياء وقعت قبل الأحداث الواردة في الصفحة الأولى أو المشهد الافتتاحي. ولكن، لماذا يبدأون من المنتصف ثم يستخدمون أسلوب الارتجاع الفني لسرد الأجزاء الأولى ؟ لعل ذلك مرجعه أن ما حدث في هذه الصفحات القليلة الأولى، أو الصور الأولى للفيلم يُشكل أهمية بالغة لبقية القصة، غير أنه قد يُغفَل عنه أو يُقلّل من قيمته إذا تُرك تسلسل القصة في نظامه المعتاد. لكن يتم جذب انتباهنا بسرد أو تصوير هذه الأحداث الهامة في الحال.

ولسوف أفعل نفس الشيء في مناقشتي عن الذكر والأنثى في فصول القصة الكتابية: الخلق، السقوط، الفداء، عيد الخمسين، والتجديد. ولسوف أبدأ بالفصل الرابع. وهو فصل يتجاهله الكثيرون تماماً ـ ثم بطريقة الارتجاع الفني أعود إلى الفصل الأول حتى الفصل الثالث من هناك. أما الفصل الرابع، وهو عن عيد الخمسين، الذي يُشكل حدثاً له أهمية قصوى لفهمنا الأساسي للجنس، وأدوار الذكورة والأنوثة.

الفصل الرابع: من الرواية الكتابية: يوم الخمسين باعتباره يوم التحرير :

البنتيكوست (من كلمة يونانية معناها "الخمسين")، كان عيداً يهودياً يتم الاحتفال به بعد مرور خمسين يوماً على الفصح. وعلى الرغم من أنه كان يُعد أساساً عيداً للحصاد، إلا أن عيد الخمسين، مع نهاية حقيقة العهد القديم أصبح عيداً يحتفل فيه اليهود بإعطاء الله الناموس لموسى على جبل سيناء. وكان أثناء الاحتفال بيوم الخمسين بعد الصلب أن وقع الفصل الرابع من القصة الكتابية.

في الأصحاح الأول من سفر أعمال الرسل نقرأ أن يسوع ظهر بصفة متقطعة لتلاميذه أثناء الأربعين يوماً التي أعقبت قيامته. ثم صعد إلى السماء بعد أن طلب منهم الانتظار في أورشليم حتى يتسلموا قوة ليصبحوا شهوداً له على مستوى العالم كله. ومما له مغزاه، أن النساء والرجال انتظروا عشرة أيام مُصلّين لمجيء الروح القدس حسب هذا الوعد. وإنه لما له من أهمية بنفس القدر أن الله اختار عيد الخمسين ليسكب الروح القدس على الكنيسة الصغيرة. ويبدو أن الله كان يقول إن حقبة الطاعة في ظل الناموس قد انتهت، لكي تحل محلها حقبة من الحرية والقوة في الروح القدس. وفي عيد الخمسين، أُكمل العمل الفدائي للقيامة وبدأ حصاد الأمم.

ولقد سألني ابني الأصغر في عيد الخمسين الماضي، لماذا لا أرى الناس مبتهجين مرحين في هذا العيد على النحو الذي يكونون عليه في عيدي الميلاد والقيامة. وهو يعتقد بأنه ينبغي علينا أن نطلق الأعمال النارية في الهواء (على أي حال، فإن الله في هذا اليوم أنزل ناراً، أليس كذلك ؟). وقد وافقته على ما ذكره. فعيد الخمسين يُعد فصلاً مثيراً في القصة الكتابية. وقد شرح بطرس هذا للمشاهدين المشدوهين في أورشليم وعرفهم بأن ذلك كان تحقيقاً لنبوة يوئيل :

"يقول الله ويكون في الأيام الأخيرة أني أسكب من روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويرى شبابكم رؤى ويحلم شيوخكم أحلاماً. وعلى عبيدي أيضاً وإمائي أسكب من روحي في تلك الأيام فيتنبأون" (أع ٢ : ١٧-١٨)، قارن أيضاً (يوئيل ٢: ٢٨-٢٩).

في بعض الأحيان، كان يُطلَق على عيد الخمسين "يوم تحرير المرأة"، لأن النساء كن مع الرجال أثناء انسكاب الروح القدس. أما قبل ذلك، فكان من عادة اليهود ألا يعترفوا إلاّ بالرجال كأعضاء كاملين في المجتمع وذلك من خلال علامة الختان. أما بعد يوم الخمسين، كانت الكنيسة تُعمّد الرجال والنساء على حد سواء ـ أما قبلاً، فكان قيام النساء بدراسة الكتاب المقدس في المجمع، يُعد من أفضل الحالات أمراً غير ضروري وفي أسوأها كان الأمر يُعد فضيحة. أما الآن فهن يكسرن الخبز ويشتركن في خدمات العبادة مع الرجال ــ قبل ذلك كانت حرية النساء في الحركة مقيدة بشكل صارم بسبب تأكيد مُعلّمي اليهود أن الاتصال علانية بين النساء غير المتزوجات والرجال كان من شأنه أن يُولّد الشهوة. أما الآن فتشغل السيدات مواقع قيادية حتى في المجتمعات المختلطة، وقد اعترف بهن بولس الرسول وامتدحهن في مواضع عديدة من رسائله. ومن المهم أن نتذكر أن الأمر لم يقتصر على انهيار الحواجز التي كانت تفصل بين الرجال والنساء بعد الخمسين فحسب، بل وانهارت أيضاً تلك الحواجز التي كانت تفصل بين اليهود وغير اليهود، وبين العبيد والأحرار. وقد أوجز بولس الموضوع في رسالة غلاطية بقوله : "لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع". (غل ٣ : ٢٨).

ذكر كاري مالكولم، وهو أحد طلبة دراسة تاريخ الإرساليات، أنه حينما كانت الكنيسة في حالة انتعاش ـ وحينما تختبر "يوم الخمسين" على نحو مصغر ــ كان الجدال حول أي من الجنسين يجب أن يقوم بالعمل الذي يجعل الشخص

يتقهقر إلى الوراء. وفي مثل هذه الأوقات، لم يكن لدى النساء ببساطة وقت للصمت (ومعظم الرجال، على ما يبدو، لم يكن يهمهم فرض هذا الأمر). وهذا ليس معناه أن النساء تعملن دائماً نفس الأشياء التي يعملها الرجال، أو حتى أنهن كن دائماً يُرِدن ذلك، أو يحتجن إليه. غير أنه مع الرؤية الواضحة للروح القدس، أكدوا أن المسيح هو أول حبهم، وأدركوا مواهب بناء الملكوت التي أعطاها لهم، وواصلوا البحث عن مناطق جديدة للتحدي كي يستخدموا فيها هذه المبادىء.

وفي أوقات أخرى (علينا الاعتراف بذلك) نجد أن رجالاً ونساءً معاً، كانوا يرتدُّون إلى حالة القلق التي كانت سائدة قبل الخمسين من ناحية الأدوار الخاصة بالذكورة والأنوثة وأصبحوا منشغلين بالتفصيلات المتعلقة بالرئاسة والخضوع. والسخرية الفظيعة لهذا الارتداد (كثيراً ما كان يُبرر على أنه "عودة" إلى أكثر متطلبات الكتاب المقدس أهمية) أشار إليها تعليق مالكولم الذي جاء فيه :

"لدينا عالَم يجب أن نربحه للمسيح. السفينة تغرق، ونحن واقفون على الشاطىء نتجادل حول من يجب أن يذهب للإنقاذ، الرجال أم النساء. غير أن الحقيقة هي أن كل مسيحي هو شخص مُرسَل" (معنى الكلمة اللاتينية التي اشتُقت منها كلمة إرسالية). وعلى ضوء يوم الخمسين، فقد دُعوا لكي يعلنوا سيادة المسيح، والشفاء والرجاء اللذين يقدمهما الله. حتى إنه من خلال الشهادة الفعالة والخدمة المضحية بالذات قد ينجذب إخوانهم الخطاة إلى الله ويشاركون في بناء ملكوته. وكل الدعوات ـ سواء كزوجة أو كزوج، متزوج أو أعزب، من رجال الدين أم من العلمانيين ـ ما هي إلا مجرد وظائف ثانوية في إطار هذه الدعوة الكبرى التي يشارك فيها كافة المسيحيين.

يوم الخمسين والعدالة بين الجنسين :

وهكذا يكون المسيحي هو من نال الخلاص ويمتلأ بالروح القدس حتى يصبح مُرسَلاً. والمسيحي المشترك في حركة المساواة بين الجنسين (إذا كان لي أن أجازف باستخدام تعريفي) هو شخص من أي من الجنسين، والذي يرى النساء والرجال وقد نالوا خلاصهم بقدر متساوٍ، وممتلئين من الروح القدس بشكل متساوٍ، ومرسلين على حد سواء. والرجاء ملاحظة أن هذا لا يعني أنه لا توجد فروق بين الرجال والنساء، بل أن فكرة العدالة بين الجنسين لا تعني بالضرورة أنه على الرجال والنساء أن يعملوا دائماً الشيء نفسه وبذات الطريقة عينها. وبوسعنا أن نفهم هذا عندما نفكر في كيفية معاملة الوالدين لأولادهما. وطفلاي كل منهما ولد، وهما متقاربان من ناحية السن. ولكن أحدهما انبساطي من الناحية الاجتماعية، في حين أن الآخر خجول، وهو يتسم بالتفكير العميق. لقد أرسلناهما معاً في الصيف الماضي للاشتراك في معسكر مدة أسبوعين. الأكبر اكتسب انتعاشاً وحيوية، أما الأصغر فقد شعر بتعاسة طوال هذه الفترة. وهذا الصيف التحق الأكبر بالمعسكر، في حين أن الأصغر، ابتهج أن يكون البيت كله له، وكان يقضي الساعات وهو يشيد مسرحاً بالاشتراك مع صديقه الذي يقطن نفس الشارع.

ويمكن أن تستنتجوا ما أريد توضيحه : فلو كنا نريد أن نعاملهما بالتساوي، آخذين في الاعتبار احتياجات وشخصية كل منهما، فإنه يتوجب علينا معاملتهما بشكل مختلف. ونفس الشيء ينطبق أحياناً على الرجال والنساء. ومع ذلك، هناك حدود للتشابه. فمن ناحية، نجد أنه في معظم العائلات يتوصل الوالدان إلى اتفاق ما بالنسبة لما يحتاجه كل طفل لتحقيق ما يرمي إليه، ونعتبر هذا أمراً صحيحاً للغاية. بيد أنه حينما يتعلق الأمر بمعاملة رجال ونساء، ففي الغالب الأعم يقرر الرجال ما تحتاجه النساء (والحق يُقال، إن النساء كثيراً ما تتنازلن عن مسئوليتهن من ناحية

التعرف على احتياجاتهن وذكرها). أما تفسير ذلك، فهو ما سوف نناقشه لاحقاً. ولكن، دعوني أكرر الآن أن العدالة أو المساواة للنساء والرجال (بمعنى أن كل الأشخاص يحصلون على ما يحتاجونه ويستحقونه) لا تتطلب انعدام التمايز بشكل تام. الأمر يتطلب بالفعل أن تُسمع أصوات الرجال والنساء على حد سواء، ولا يتحدث أحدهما نيابة عن الآخر.

وهناك شيء آخر يتعين قوله هنا. في المثل الذي ذكرته عن ابنيّ، ربما لاحظتم أننا لم نقرر أنه عليهما أن يعملا نفس الشيء لمجرد أنهما ولدان. ونحن على سبيل المثال، لم نقرر أن نعلم حياة البساطة والخشونة في معسكر كان أمراً لا غنى عنه لكي يكون الإنسان رجلاً طبيعياً، وأنه بسبب ذلك يتوجب على ابننا الأصغر الذهاب إلى المعسكر سواء شعر بالتعاسة هناك أم لا. وعمل ذلك كان معناه تطبيق نمط متكرر لدور الجنس، وهو مفهوم مُفرِط في تبسيط ماهية الذكورة والأنوثة، أو ما يجب أن تكون عليه. ومع ذلك ـ ولنعترف أيضاً بهذا ـ فالمسيحيون كثيراً ما يكونون مذنبين كغيرهم من الناس، من ناحية استعمال أنماط منسوخة مُقيدة كهذه.

ودعنا نعترف بشيء آخر : مثل هذه الأنماط المتكررة تُقيِّد النساء بأكثر مما تفعله بالنسبة للرجال. وإذا عدنا إلى الأيام التي كان الناس إبانها يعيشون غالباً في المزارع، كان الناس حينئذ يتوقعون أن يمارس أولادهم وبناتهم أدوار الفلاح، وزوجة الفلاح. وما زال الرجال يتمتعون بسلطة اجتماعية أكثر في المجتمعات الريفية. وحتى إذا كان الأمر كذلك، فإن تحديد أدوار الذكورة والأنوثة يُطبق على الرجال والنساء بدرجة متساوية إلى حد ما (كما هو الحال حتى الآن بين جماعات مثل جماعة الأميش Amish).

ولكن، فيما أصبحت سمة المجتمع تميل بالأكثر نحو المدنية والتصنيع، بدأ الناس يزاولون مهناً متباينة للغاية بعيداً عن البيت، في حين أن النساء "العاديات" كان المتوقع منهن أن تصبحن زوجات وأمهات متفرغات في محيط البيت. ومع ذلك، فقد حُرمن الآن من الدور الاقتصادي المنتج الذي كن يقمن به في الحقل، ومن دعم العائلة الريفية الموسعة، ومن تواجد أزواجهن أثناء النهار. وليس هذا معناه أن المهن التي ذهب الرجال لمزاولتها كانت مُرضية أو هائلة. ولكنها كانت بالفعل تقدم فُرصاً اجتماعية للبالغين للاختلاط بالآخرين (الأمر الذي لم تكن توفره الحياة المنزلية)، وقد ثبتت بالفعل قدرة الزوج على أن يُوفي بالحاجة الاقتصادية لأسرته (وهذا الأمر تُشارِك فيه زوجات العاملين في الحقل، ولكن ليس ربات البيوت اللواتي في المدينة).

وحقيقة أن المسيحيين قبلوا هذا النمط الثقافي على هذا النحو دونما تفكير يكشف عن سخرية أخرى. ذلك أن المسيحيين يؤمنون بتفرد كل حياة على حدة، وهذا اعتقاد يكمن ويحق وراء معارضتهم الإجهاض الذي يتم تبعاً لرغبة الشخص، وذلك على سبيل المثال. غير أنه إلى عهد قريب كاد هذا الاعتقاد يصبح عادة نافذة المفعول من اللحظة التي تُولد فيها بنت.وحينما يُولد ولد، قليلون هم الذين كانوا يدَّعون قدرتهم على التنبؤ بنوعية العمل الذي سيقوم به بالفعل بعد ثلاثين سنة. وقد اعتُبرت خياراته عديدة، لا يحدها سوى مستوى ذكائه، وتحفيزه (ومن الناحية المثالية) نوعية الدعوة التي تلقاها من الله. بيد أنه حينما يتعلق الأمر بالبنات، يتناسى كثيرون من المسيحيين كل شيء عن التمايز الذي خُلِقن عليه وعن يوم الخمسين ومضامينه. فهم يفترضون بل ويُصلّون من أجل مستقبل ناجح كزوجة وأم، ولا شيء خلاف ذلك. والواقع أن البعض ما زالوا يفترضون أن الله، على نحو محدد، لا يمكنه دعوة بناتهم لشيء آخر، وأن تكون غير متزوجة وأنثى (أو أنثى متزوجة

ولكنها ليست ربة بيت منفرغة) تكون إلى حد ما قد فشلت، من الناحية الأخلاقية والروحية.

فمن أين جاء هذا التضارب ؟ هل هو مجرد خطأ في ممارسات تنشئة الطفل، ويمكن تلافيه بالجهد الكافي والإرادة الحسنة كما يقول كثيرون من دعاة المساواة بين الجنسين ؟ هل هو موضوع ظلم من جانب الذكور ضد النساء، يمكن القضاء عليه بالتشريعات المبدِعة الكافية ؟ هل للهرمونات علاقة بهذا، كما يُصر علماء الاجتماع والأحياء على قوله لنا ؟ أم أن وراء ذلك شيء أعمق من هذا، شيء يؤثّر في الرجال والنساء بنفس القدر وكلا الفريقين مسئول عنه ؟ ولكي نُجيب على هذا السؤال يتعين علينا الرجوع إلى الأصحاحين الأول والثاني من سفر أعمال الرسل في القصة الكتابية. نحن في حاجة للحديث عن الخليقة والسقوط.

الفصل الأول : مخلوقون على صورة الله

ذكر في مواضع كثيرة من الكتاب المقدس إن كل الناس مخلوقون "على صورة الله" (انظر تك١ : ٢٦-٢٧، ٥ :١، ٩ : ٦، يع٣ : ٩). وإذا تأملنا هذه العبارة جيداً سنجدها عبارة محيرة، لأن الكتاب المقدس لم يذكر لنا في أي موضع قائمة دقيقة عن السمات التي تجعلنا نشبه الله. والواقع أن هناك بعض علماء النفس المسيحيين الذين قالوا إنه لا يوجد شيء في الواقع في البنية التركيبية للناس يجعلهم متفردين. فلغتهم وقدرتهم على التفكير، وتجمعاتهم الاجتماعية وما إلى ذلك، لا تختلف عن بقية المخلوقات إلا من درجة التعقيد. وكبقاً لهذا التفسير فمعنى عبارة خُلق "على صورة الله" هو ببساطة أننا اختُرنا لعلاقة حميمة مع الله وبمبادرة منه، وهي علاقة جعلت الله يضعنا في مرتبة وحال يتمايز وينفصل عن الحيوانات.

وبوسعك تخمين السبب الذي من أجله يُعد هذا تفسيراً رائعاً. فلو كان هذا التفسير صحيحاً، معناه أننا لسنا في حاجة للرجوع إلى الكتاب المقدس باعتباره

مصدراً للمعتقدات المُسيطرة لتقييم النظريات التي جاءت وليدة علم الاجتماع (انظر الفصل الأول). وإذا كان الكتاب المقدس لا يتكلم في الواقع إلا عن اهتمام الله بنا، وذلك حين يُشير إلى أننا خُلقنا على صورته، هنا تكون درجة اختلافنا عن الحيوانات في قدرتنا، مجرد سؤال تجريبي - لا يُحسم بالبحث العلمي. وإذا كانت القضية على هذا النحو، فإن علماء الاجتماع المسيحيين لن يكونوا مختلفين بدرجة كبيرة عن غير المسيحيين - فيما عدا (وهذا ما ذكرناه في الفصل الأول) ما يتعلق بسلوكهم الشخصي. فإن أبحاثهم ونظرياتهم عن جميع جوانب السلوك البشري، بما في ذلك الجنس، لا تحتاج سوى أن تقلد أفضل النماذج المتاحة في النظام المعين الخاص بهم.

ولكني سبق أن أكدت بأنه يجب علينا الرجوع إلى الكتاب المقدس لاستخلاص إطار من المعتقدات المسيطرة عن الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة. وهكذا لن تأخذك الدهشة حين أقول إن صورة الله في الإنسان إنما هي أكثر من مجرد علاقة خاصة مع الله، بُدئت من جانبه هو وحده. والواقع أن تقليد الفكر اللاهوتي الأطول أجلاً كان دائماً يُدرك هذا. لقد اختلف الناس حول ما هو الذي يجعلنا على صورة الله. قال البعض إن ذلك يرجع إلى اللغة والقدرة على التفكير والتي يشترك فيها كل البشر. وآخرون ركزوا على التكريس الكامل المرئي : ثمار الروح القدس، مثل المحبة والفرح والسلام والصبر، والتي وُعد بها الذين يتبعون المسيح بإخلاص. وكل من هذه النواحي لها أهميتها من صورة الله. لكن سوف أركز على جانبين أعتقد أن لهما أهمية خاصة لفهمنا للجنس وأدوار الذكورة والأنوثة، وهما الجانب الاجتماعي والسيادة المسئولة.

الرجال والنساء اجتماعيو النزعة ولا مفر من ذلك :

قصة خلق البشر تبدأ في تكوين (١) بالعبارة الآتية :

"وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم" (تك١ : ٢٦-٢٧).

وأول ما يلفت نظرنا في هذه الفقرة هو أن الله يُشير إلى نفسه بصيغة الجمع. ولعل هذا مجرد استعمال للُغة الشعر لضمير المتكلم بصيغة الجمع. ولكنها قد تكون أيضاً واحدة من أولى الإرشادات الكتابية إلى وجود الثالوث القدوس ــ الله / الكلمة "اللوجوس" / الروح ـ التي بهم خُلِقت كل الأشياء وتثبتت. والله ليس (كما يعتقد بعض فلاسفة يونانيين معينين) "علة أولى" مجردة، أو "حاكم" وحيد للعالم، مُجرَّد من العاطفة، ولا يسعده سوى أن يتأمل نفسه في عزلته الباهرة. بل الله بصفة أساسية اجتماعي : فهو الخالق، الفادي، والروح القدس يعملون في تعاون واتكال متبادل طوال القصة الكتابية كلها.

وقد يبدو هذا للوهلة الأولى أنه ليس له علاقة على الإطلاق بالمناقشة التي تتعلق بالجنس وبأدوار الذكورة والأنوثة. ولكن الأمر ليس كذلك لأن اللاهوتيين وعلماء النفس من المطالبين بالمساواة بين الجنسين أشاروا إلى أنه من السمات الرئيسية لوجهة النظر الأنثوية للحياة هو الاهتمام بالعلاقات. وفي حين أن المفكرين اللاهوتيين من الذكور، كانوا يميلون إلى النظر إلى الله في إطار سلطة ذات تسلسل هرمي، وقيادة من القمة إلى الأسفل، نجد أن المفكرين اللاهوتيين من أنصار المساواة بين الجنسين أشاروا إلى أن صور السيطرة هذه، يجب أن تُوازن بفهم عن الله في إطار يتسم بمزيد من العاطفة والعلاقات. فالله كأب مهتم يبكي بسبب أولاده المتمردين، ويبتهج حين عودتهم، والذي يحتضنهم ويحميهم تحت جناحيه مثلما تفعل الدجاجة بفراخها (انظر عد١١ : ١٢، مت٢٣ : ٣٧). والله ليس مذكراً

ولا مؤنثاً، ولكنه يجمع بين سمات المذكر والمؤنث في طبيعة اجتماعية بشكل يتعذر إنقاصه.

والأمر ليس كما لو أن سمة الله الاجتماعية قد أُعطيت للنساء فقط ليفكروا فيها. وإذا كان الله كائناً اجتماعياً ثلاثي الوحدة، صورته في جميع الناس، فلا مدعاة للدهشة إذ نقرأ في تكوين (٢)، أنه ليس جيداً أن يكون آدم وحده. ومن ثم خلق المرأة. وما أن أصبحا معاً، إلاّ وكان قصد الله الواضح بالنسبة للرجل والمرأة هو المساواة والاتكال المتبادل في إطار طاقة جنسية متميزة. ولقد جادل بعض المفسرين حول رئاسة آدم على حواء على أساس أنه هو الذي أطلق عليها اسمها. غير أن صيغة التسمية العبرية التقليدية (التي استخدمها آدم حين أطلق على الحيوانات أسماءها) تتضمن دعوة شخص أو حيوان أو مكان باسمه. ولدى رؤيته حواء لأول مرة لم يدعها آدم باسم ـ بل إنه دعاها أو عرفها بأنها "امرأة". وكتبت عالِمة العهد القديم فيلس ترايبل Phyllis Trible ما يأتي :

وبتسميته المرأة، لم يكن الرجل يقيم سلطانه عليها، بل كان يبتهج بحالة تبادل العواطف بينهما ... والقصيدة التي قالها الرجل "عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تُدعى إمرأة". لا تحدد من تكون المرأة، بل بالأحرى تبتهج فيما سبق أن عمله الله بالفعل إذ خلق الجنسانية (أي الذكر والأنثى).

وهكذا، وعلى غرار الله، كان الرجال والنساء اجتماعيين بالفعل. والمسيحيون ـ على العكس من الفيلسوف توماس هوبز Thomas Hobbes ـ لا يستطيعون القول إطلاقاً إن الناس في أساسهم انعزاليون، دخلوا دون رغبتهم في "عقد اجتماعي" مع الآخرين لا لشيء سوى لتعزيز مصالحهم الخاصة. وعلى النقيض من ذلك، لقد خُلِقنا فعلاً للعيش في جماعة حتى إننا لا نستطيع أن ننمو إلى

أشخاص كاملين إلا إذا نمونا في إطار تنشئتنا مع الآخرين. وفضلاً عن ذلك فإن تحقيق سمتنا الاجتماعية يعتمد على الشركة مع الجنس المغاير. وهذا ليس معناه أن كل واحد لابد وأن يتزوج كي يكون إنساناً كاملاً، ولكنه يعني بالفعل أن الحضارات الفرعية التي تتكون من رجال أو نساء فقط (سواء كان ذلك في إطار سجن إجباري، أو جماعة اختيرت بكل حرية) هي شيء أقل من أن تكون إنسانية كاملة. وربما تكون هناك أسباب مأساوية ولكنها مفهومة، من شأنها أن يتجنب بعض الناس الجنس الآخر. ولكن هذا لا يجعل مثل هذه ممارسة معيارية.

النساء والرجال لهم سلطان مسئولون عنه أمام الله

وثمة أمر آخر تراه واضحاً جداً فلم يُخلق كل من الذكر والأنثى على صورة الله ككائنات اجتماعية فقط. بل أُعطيا كلاهما السيادة على بقية الخليقة. وبعض المسيحيين الذين يجادلون بالقول عن أدوار متكررة للذكورة والأنوثة (والذين يدَّعون أنهم يكنون تبجيلاً عظيماً لسلطان الكتاب المقدس) تراهم في الواقع يقولون برئاسة الرجل على أساس ما جاء في ١ : ٢٦، حيث يقولون إن هذه الآية تعطي السيطرة لآدم. وهذا مرده إما أنهم لم يقرأوا بقية الأصحاح وإما أنهم تجاهلوا ذلك وعن عمد (فقد قيل لكل من الرجل والمرأة) "املأوا الأرض وأخضعوها"، وقيل لهما معاً "أثمروا واكثروا"، وقيل لهما معاً "تسلطوا" على كل الكائنات الحية الأخرى.

وكثيراً ما كان اللاهوتيون يُشيرون إلى هذه المجموعة من الوصايا على أنها "التفويض الحضاري". فالرجال والنساء أمرهم الله بأن يكشفوا عن الإمكانات الكامنة في الخليقة. وعلى الرغم من الدعم الذي لقياه من الله، ومسئوليتهما أمامه، إلا أنه كان عليهما أن يستعملا الذكاء الذي أعطاه الله لهما في عمل الصلاح، واتخاذ القرارات في إطار هذه الوكالة في جميع نواحي النشاط البشري. وهذا هو

السبب في أنه من المحُزن أن نرى المسيحيين ينعزلون عن العلم والسياسة والفنون وما شابه، على أساس أن هذه مجالات دنيوية. إن عالمنا هو ملك الله، بكل ضروبه. وقد تأتي أحوال في التاريخ يكون فيها الانسحاب إلى مجال مسيحي محض، أمر لا يمكن تجنبه (على سبيل المثال، في أوقات الاضطهاد). ولكن هذا ليس المعيار الذي يقصده الله.

بل ولا توجد أيه إشارة في قصص الخليقة تفيد أنه على الرجل أن يتولى القيادة في هذه العملية. والمفسرون الذين فضلوا أن يُبقوا الرجال والنساء في أدوار متوارثة اعتادوا أن يجادلوا بأن قيام الله بخلق حواء "معيناً" نظيراً لآدم يجعلها في مرتبة ثانية بعد آدم. فآدم عليه أن يقرر كيف تُطور الخليقة (بكونه العالِم الباحِث، ورجل الأعمال الذي يدير العمل، والطبيب، وما إلى ذلك)، وأن حواء تكون مساعدة له (بأن تكون العاملة في المعمل، السكرتيرة، الممرضة وما إلى ذلك). بيد أنه مما يدعو إلى السخرية أن دارسي الكتاب المقدس أثبتوا ما هو على النقيض من ذلك. فالكلمة العبرية التي تُرجمت "معيناً" (بالشكل الذي وردت به في تكوين ٢)، استُعملت كثيراً في العهد القديم عند الحديث عن شخص الله. إنها الكلمة التي نستخدمها عند الحديث عن الله باعتباره "معيني ومنقذي" (مز ٧٠ : ٥)، أو حين نؤكد بأن معونتا "من عند الرب" (مز ١٢١ : ٢). ومع ذلك فلن نفكر إطلاقاً ولو في الأحلام بأننا بإشارتنا إلى الله على أنه "معيننا" أننا بذلك نضعه في المرتبة التانية بعد أنفسنا. بل ولا يصلح هذا التفسير (كما يرجو بعض أنصار المساواة بين الجنسين) لأن يُتخذ حجة على سمو المرأة. فهي بحسب ترجمة فيليس ترايبل : "المعين الذي هو نظير الرجل، المعين الذي يستطيع السير إلى جانبه والعمل معه، لأنها نظيره بالنسبة لأسمى صفاته، وهي على صورة الله".

وهكذا، خُلِق الرجال والنساء على قدم المساواة من ناحية أنهم خُلِقوا على صورة الله، والجزء الأكبر من كوننا على صورة الله يكمن في طابعنا الاجتماعي (أو حسب الاختلاط بالآخرين)، وسيادتنا على الأرض. غير أن هاتين المقدرتين، يجب أن تُمارسا في إطار حدود يضعها الله وحده. فقد كان الله والبشر في شركة، في عهد مختوم بشرط. وهو أنهم سينعمون بشركة أبدية مشبعة مع خالقهم، مقابل علامة سلوكية متواضعة تُثبت اتكالهم على الله. والتفصيلات التاريخية الدقيقة قد تكون مدعاة للمناقشة، لكن الأمر واضح من ناحية : أنه ليس عليهم أن يستغلوا الحرية والسلطان اللذين أُعطيا لهم في تقرير طبيعة ما هو خير وما هو شر. فالتفويض الحضاري توقف عند هذه النقطة، لأن حرية تحديد ما هو خير وما هو شر إنما هي من اختصاص الله وحده.

بل وليس عليهم إساءة استخدام اجتماعهما في "جسد واحد" في أن يغري كل منهما الآخر في تجاوز هذه الحدود. غير أن هذا هو ما حدث بالفعل. فإذا ضُللت المرأة بواسطة ملاك متمرد ومتنكر، استغلت سلطانها بالأكل من "شجرة معرفة الخير والشر" (تك٢ : ١٧). والرجل، بدوره، أساء استخدام طابعه الاجتماعي بأن قبل أن يأخذ منها بعضاً من الثمرة على الرغم من معرفته أن اتحادهما كرجل وامرأة ليس له أن يأخذ الأولوية على طاعتهما الله. ومنذ ذلك الحين، فإن قصة الحب التي صاحبت الخليقة، مع ما قُصد لها من تبادلية ومساواة، انحرفت بشكل مؤسف. والأصحاح الثالث من سفر التكوين يخبرنا عن كيفية حدوث ذلك.

أولاً : اختبأ كل من المرأة والرجل عن بعضهما. فاختلاف طبيعتهما الجنسية أصبح الآن مصدراً لخجلهما بدلاً من فرحهما، ولذلك قاما بتغطية جسديهما. ثم

بعد ذلك احتبئاً من الله. وحين وجدهما الله وسأل الرجل عن عصيانه، قام أولاً بإلقاء اللوم على الله (بسبب إعطائه المرأة في المقام الأول). وبعد ذلك فقط اعترف على مضض "فأكلتُ" (تك٣: ١٢). وعلى صعيد آخر، حاولت المرأة إلقاء التبعة على الحية، وتجاهلت تماماً، في اعترافها، تأثيرها على زوجها. وقد كتبت فيليس ترايبل تقول : "وبخيانة الرجل للمرأة أمام الله، فقد وضع نفسه في موقف معارض لها، أما هي فإذ تجاهلته في إجابتها على الله، فقد فصلت نفسها منه ... انفصلا ... جسد واحد ينتظر النتيجة".

نقرأ في تكوين٣، أن مقومات تلك النتيجة، كانت تتعلق بهما معاً. فقد طُردا من الجنة، وواجها احتمال ألم المخاض عند ولادة نسلهما، وإطعامه لا لشيء سوى ليرى الموت في عاقبة هذا كله ـ على الأقل إلى أن يأتي الفادي، الذي لُمح إليه بغموض في تك٣: ١٥، ليسحق "رأس الحية"، ويبدأ في تغيير النتائج التي ترتبت على السقوط. غير أنه من أجل صالحنا، يجب أن نتفهم على نحو جيد إحدى النتائج المعينة. وهي تلك التي أعلنها الله لحواء في تك٣: ١٦ بقوله : "تكثيراً أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك".

وأول شيء تكتشفه إذا حاولت تفسير الجزء الأخير من هذه الآية الغامضة هو أن الكلمة العبرية المترجمة "اشتياق" لا ترد إلا ثلاث مرات فحسب في العهد القديم. وهذا بالطبع، يجعل موضوع فهم معناها صعباً إلى حد ما. وثمة واحد من المفسرين الكتابيين وهو جيلبرت بيلزيكيان Gilbert Bilezikian، بذل جهداً كبيرا جداً وهو يقارن النصوص التي استخدمت فيها هذه الكلمة، وانتهى إلى أن المرأة في تك٣: ١٦ نالت تحذيراً بأنها ستختبر اشتهاءً غير متبادل لعلاقتها مع الرجل.

واشتهاء المرأة سيكون لزوجها، وذلك ليدوم الود والوصال الذي كان يميز علاقتهما في الفردوس. ولكن اشتهاءها لاستعادة علاقة المحبة والتبادلية التي كانت

قائمة بينهما قبل السقوط، حيث كان كل منهما يرغب في الآخر، لن يجد صدى لـه مـن قبل روجها. وبدلاً من تحقيق رغبتها، سـوف يسـود عليهـا ... وخلاصـة القـول، أرادت المرأة أليفاً فحصلـت علـى حـاكم، أرادت مُحباً، فحصلـت علـى سـيد، أرادت زوجـاً، فحصلت على رئيس.

سوء استخدام الرجل لسلطته يتحول إلى سيطرة

علينا في البداية أن نعرف ما لم يُذكر هنا. فـالموضوع لا يقتصـر علـى أن الاتكـال الإيجابي المتبادل الذي كان قائماً بين الرجل والمرأة عند بداية الخليقة قد اختفى تمامـاً بعـد السقوط. فنحن ما زلنـا مخلوقـين علـى صـورة الله، حتـى وإن كـانت هـذه الصـورة قـد تشوهت. وفضلاً عن ذلك، هناك مواضـع كثـيرة في الكتـاب المقـدس تُذكرنـا بـأن أسـوأ نتائج السقوط قد كُبحت من أجل النظام الاجتماعي، وبغية تحقيق مقاصد الله من خـلال المؤمنين وغير المؤمنين على حد سواء. بل وليس الموضوع هو أن كونه حاكماً أو سيداً أو رئيساً يُعد أمراً مناقضاً تماماً لنظـام الخليقـة. لأن سـوء اسـتغلال السـلطان لم يكـن ممكنـاً سوى لأن الله أعطانا أساساً تلك القدرة ـ القدرة والحريـة علـى أن نُمـارس سـيادة علـى الخليقة نعطي عنها حساباً. غـير أن مـا اعتـبر أن الله قالـه في تـك٣: ١٦ هـو أنـه نتيجـة السقوط ستتولد نزعة في الرجال بأن يمارسوا سلطانهم بغير وازع أو ضابط، وأن يفرضوه في إطار من العجرفة وبعيداً عن الشرعية، ليس فحسب على الأرض وعلى رجال آخرين، بل أيضاً على الشخص الذي هو عظم من عظامه ولحم من لحمه، علـى المعين الـذي هـو نظيره. فالسلطان المشروع، الـذي سيُقدَّم عنـه حسـابٌ تحـول بكـل سـهولة إلى سـلطان الرجل.

ونتائج هذا لازمتنا طوال التاريخ. وقد كتبت المؤرخة البريطانية آن أتكنـنز Ann Atkinz ما يلي :-

خلاصة القول إن الإنسان يستطيع في العادة أن يفرض رغباته على زوجته. حتى ولو لم يمسها بأصبعه، فبمقدوره في غالبية الأحيان أن يكون قادراً على أن يستأسد عليها ليحصل على ما يريده ... وعلينا بكل بساطة أن نواجه حقيقة أن ـ على أساس ما جاء في تك٣: ١٦، والدليل المستمد من التجربة ـ السقوط، أعطى الرجل قوة معينة على المرأة التي بها يستطيع بسهولة أن يستغلها وتدفع هي الثمن. فقوته، يمكن أن تصبح عبودية لزوجته.

سوء استخدام المرأة لسلطتها

الناحية الاجتماعية تتحول إلى إغراء اجتماعي :

سبق أن قلت للتو إن ميل الرجال، فيما بعد السقوط، لأن يحولوا السلطان إلى سيادة وسيطرة، وهو سلطان في صيغته الصحيحة أعطاه الله عند الخليقة للرجل كما للمرأة. ولذلك دعوني الآن أن أشير إلى أنه كما يوجد شيء مشروع بالفطرة بالنسبة لرغبة الرجل في السيطرة (حتى ولو أُسيء استعمالها ضد النساء)، هكذا يوجد أيضاً شيء صحيح بالفطرة، بالنسبة لرغبة النساء في الزواج وإقامة علاقة زوجية بالرجل، وإنه جزء من التفويض الاجتماعي الذي أعطاه الله لكل من آدم وحواء. غير أنه بسبب السقوط، يحذرنا ما جاء في تك٣: ١٦ بأن هذه الرغبة من جانب النساء إلى الحياة الاجتماعية شوهتها أيضاً الخطية. والواقع، أن هناك أسلوبين متعارضين يمكن من خلالهما إساءة استخدام السلطان المُعطى من الله والذي سيُقدم عنه حساب. الأول (خطية الرجل) هو محاولة ممارسة السلطان دون اعتبار لخطة الله الأصلية الخاصة بالعلاقات بين الذكر والأنثى. أما الثاني ـ وهو خطية الأنثى بصفة خاصة ـ فهو استخدام تلك العلاقات كعذر لعدم ممارسة السلطان المسئول في المقام الأول. وبعبارة أخرى، خطأ المرأة المماثل للعيب الفطري في الرجل، على ضوء تك٣: ١٦ هو إغراء الوقوع في أي مخاطرة قد يكون من شأنها تعكير صفو

العلاقات. إنه إغـراء السـماح لسـمة الاختـلاط الاجتمـاعي الفطـري في أن تصبـح شركاً اجتماعياً ساقطاً.

وهذه في الواقع تجربة مغرية للغاية، لأنه من السهل جداً أن تتنكـر في صـورة فضيلة. وعلى أي حال، ألاّ يرى المسيحيون أن الخدمة مع إنكار الذات، والرغبة في المحافظة على السلام والوحدة الاجتماعيـة أنهـا مـن ثمـار الـروح القـدس ؟ حسـناً، الإجابة على هذا السؤال هي : نعم، ولا، حيث إن ذلك يتوقف علـى السـياق. إذا ما أصرت النساء على السـلام بـأي ثمـن، إذا اخـترن الهـدوء غـير العـادي كوسـيلة لتجنب المخاطرة والعزلة المحتملة التي قد تنجم نتيجة معارضة الشر ــ هنـا لا يكـون هذا إظهاراً لثمار الروح. وهن يخطئـن بكـل تـأكيد مثـل الرجـل الـذي يُسـيء إلى العلاقات كي يثبت حريته الشخصية. ذلك أن "السـلام" بـالمفهوم الكتـابي لا يعـني السلام "بـأي ثمـن". بـل هـو بـالأحرى "السـلام" الـذي فيـه كـل شـيء في مكانـه الصحيح الذي قُدر له منذ الخليقة. وعلى ضوء السقوط، فإن تشويه السلام ـ بما في ذلك ما بين الرجال والنساء ـ يتطلب رفضاً نبوياً للقول : "سلام سـلام ولا سـلام" (إر٦: ١٤) والرغبة في عمل التغييرات اللازمة لاستعادة السلام الحقيقي.

وهذه نقطة هامة يجب فهمها تطلعاً للفصول اللاحقـة في هـذا الكتـاب. لأن من بين المشاكل الرئيسية في مجال تقديـم المشـورة في أيامنـا هـذه مـا يعـزوه علمـاء النفس إلى ميل النساء الدائم إلى تجنب أن يكون لهن كبرياؤهن الشـخصي في سـبيل الحفاظ على العلاقات مع الجنس المغاير رغم أنها علاقات مريضة. وعلى الرغم مـن التقدم المستمر في إزاحة الحواجز الخارجية القانونية من طريـق إنجـازات النسـاء، إلا أن كثيرين من علمـاء النفـس لاحظـوا بحـزن شـديد أن النسـاء مـا زلـن تواجههـن حواجز داخلية هائلة يتعين عليهن التغلب عليها. وعناوين الكتب التي كُتبت في هذا الموضوع مُعبِّرة للغاية: المعاناة اللذيذة، المرأة كضحية، النساء اللواتـي أحببـن كثـيراً

جداً، لماذا أعتقد أني لا شيء بدون رجل ؟ ولعل أبرزها كلهـا على ضـوء تـك٣: ١٦، الرجال الذين يكرهون النساء، والنساء اللواتي يحببنهم.

ومؤلفو هذه الكتب يؤكدون كلهم أن النسـاء يستجبن لنمـاذج خاطئـة في تربية الأطفال حين تصبحن منشغلات بكسـب العلاقـات مـع الرجـال، أو المحافظـة عليها. وهذا كلام يصدق في غالبية الأحيان، مثل حقيقة أن القوى التعليميـة العامـة لا تزال يسيطر عليها الرجال بشـكل غـالب، علـى الرغـم مـن التغيـيرات القانونيـة السابق ذكرها. ولكن هذه لا تُشكل القصة كلها. فالأمر يتضمن بُعداً دينياً لا مفـر منه، وهو بُعد يعود مباشرة إلى السقوط. وقد أخرج هؤلاء المؤلفون عملاً رائعاً من ناحية تسجيل بعض النتائج التجريبية لما جاء في تك٣: ١٦ علـى المستوى النفسـي على الأقل. غير أنهم يشتركون مع علماء نفس كثيرين في خطأ محاولة التقليـل مـن هذه المشاكل بالنسبة للطريقة التي عُوملت بهـا النسـاء مـن خـلال إقامـة العلاقـات معهن. فهم لا يدركون (أو يرفضون الاعتراف) بـأن الأمـر وراءه شـيء أعمـق : شيء لا يمكن في النهاية إزالته بالعلاج النفسي، أو بالتغيـير التعليمـي، مهمـا كـانت أهمية هاتين الناحيتين.

وخلاصة القول، يبدو أن نتائج تك٣: ١٦ تعكس الطريقة المعينة الـتي أخطـأ بها كل طرف في الجنة. فالرجل والمرأة خُلقا وعلى قدر مـن المسـاواة لأجـل الحيـاة الاجتماعية والسيطرة. لكن عندما مـدت المـرأة يدهـا لتـأخذ التمـرة، فإنهـا بذلـك تجـاوزت حـدود السـلطة المسئولة. وكـان مـن شـأن ذلـك أن امـتزجت الناحيـة الاجتماعية بمشكلة الإغراء الاجتماعي، والـتي استمرت تُعيـق الممارسـة الصحيحـة لسيادتها على مستوى العالم كله. وعلى النقيـض مـن ذلـك، نجـد أن الرجـل يقبـل التمرة من زوجته، ويتجاوز حدود الوحدة الاجتماعية بين البشر. وكان من نتيجـة ذلك أن سلطانه المسئول أصبح مُقيـداً بمشـكلة السيطرة، والـتي كـانت تتدخـل في

علاقاته ـ مع الله، والخليقة، والناس الآخرين بما فيهم النساء ـ منذ ذلك الحين. وفي كل حالة، بدت العقوبة مناسبة للجرم الأساسي. وفي الفصول من السادس حتى الحادي عشر سنذكر المزيد عن السقوط النفسي لكل هذا.

وفي غضون ذلك، قد يشعر القارئ بتجربة السقوط في اليأس من ناحية حالة العلاقات بين الذكر والأنثى في أعقاب السقوط. وما لم نستطع تغيير هذه النماذج المَرَضية بصفة دائمة من خلال إعادة نمط العلاقات الاجتماعية، والتغيير التعليمي، تزويج الجينات، وما شاكل، فأي أمل يتبقى للجنس البشري ؟ حسناً، إنها لحقيقة أنه على إثر السقوط، "فسدت" كل وظائفنا ـ ليست بشكل تام، ولكنها من المؤكد إلى درجة مزعجة. ومع ذلك، وكما قال مارتن لوثر ذات مرة : التعليم الخاص بالفساد التام هو من أكثر التعاليم المريحة في الكنيسة المسيحية. لماذا ؟ لأن هذا معناه أننا لسنا في حاجة بعد إلى التظاهر بأن كل شيء حسن. ولسنا مضطرين إلى التظاهر "بأننا" لم نتأثر، حتى وإن تأثر "جيراننا". نحن لسنا ملزمين بالتظاهر بأنه لا يستطيع أن يُغيرنا شيء سوى حل جذري. وهذا بالطبع يأتي بنا إلى ذروة القصة الكتابية.

الفصول من الثالث إلى الخامس : الفداء والتجديد :

ثمة باحث ديني اسمه ليونارد سويدلر Leonard Suidler ألَّف منذ عهد قريب مُجلداً ضخماً بعنوان : تأييد الكتاب المقدس للنساء. وما يقرب من مائة صفحة من هذا الكتاب خُصصت لكل الفقرات الكتابية المتعلقة بتعاليم يسوع عن الرجال والنساء. وإذا ما تأملنا هذه الفقرات معاً، فإنها توضح بكل جلاء، أن المسيح، كجزء من عمله لمعجزات الشفاء وعمله الخلاصي ـ كان يقصد أن يعكس النتائج الواردة في تك٣: ١٦. وبالنظر إلى أننا نأخذ ـ كقضية مسلم بها ـ كثيراً من الحقوق ووسائل الحماية التي حققتها النساء على مدى التاريخ الحديث (على الرغم

من كونها ناقصة)، فإنه من الصعب علينا أن نـدرك كيف بـدا تعليم يسوع عـن الرجال والنساء لسامعيه أنه تعليم ثوري. لكـن الكتابـات الخاصـة بمعلمي اليهـود، وغيرها من الكتابات الأخرى (غير الكتابية) الـتي ظهـرت في تلـك الفـترة، تُبـين أن اليهود على زمن المسيح كان لهم موقف سلبي للغاية بالنسبة للنساء ـ وهـو موقـف، بدت النساء بكل بساطة أنهن تقبلنه، لأن قيـامهن بـأي عمـل خـلاف ذلـك كـان يحمل مخاطرة ألاّ يكون لهن موضع في المجتمع بأي شكل كان. وخـلال فـترة العهـد القديم كلها، كان ما جاء في تك٣: ١٦ يعمل بنجاح بطريقة يمكن التنبؤ بها.

قلب نتائج السقوط إلى عكسها :

وفي ظل هذا الوضع جاء هذا المعلم الذي لم يذكـر مثـالاً قـط يستخدم فيـه صورة الرجل وأنشطته إلا ويستحضر معه مثالاً مشابهاً يتضمن المرأة كذلك بالنسبة لثقافـة كـانت تسـمح بـالطلاق بكـل سـهولة، بـل كـانت تسـمح للرجـال بتعـدد الزوجات ـ ولا تسمح بذلك للنساء ـ أصرّ هذا المعلم على أن يكـون الـزواج مـن واحدة فقط، ومنع الطلاق استناداً إلى قصد الله الأساسي بالنسبة لكل مـن الرجـل والمرأة (لقد صُدم تلاميذه من هذا التعليم حتى إنهم قالوا إنه من الأيسـر ألاّ يتزوج الإنسان إطلاقاً). وبالنسبة لثقافة كانت تستبد بها روابط الدم، وكانت المرأة العـاقر فيها تُعتبر عاراً، علم يسوع بأن عائلة الله أهم بكثير جداً حتى إنها قد تفرق الأبـاء عن الأبناء. وفي ثقافة رفضت الاعتراف بالنساء كمُعلمات أو كشهود في المحـاكم، سمح بأن تكون المـرأة أول شـاهد علـى قيامتـه، بـل إن إمـرأة أعلنـت هـذا الحـدث لتلاميذه الذكور. والأمثلة كثيرة وكثيرة. وعلى نطاق الأناجيل الأربعة، نجـد ٦٣٣ آية يشير فيها يسوع إلى النساء، وليس منها تقريباً ما جاء بصيغة سلبية.

ومما يلفت الانتباه، أن تلك الآيات التي كانت سلبية بدت في معظمها توبـخ النسـاء، اللواتـي علـى إثـر مـا جـاء في تـك٣: ١٦، أمسِكن في مشـكلة الإغـراء

الاجتماعي. لقد قال يسوع لمرثا في بيت عنيا إن انهماكها في إعداد الطعام في المصح ليس خياراً طيباً مثل الجلوس عند قدمي السيد للتعلم. لقد عاتب أمه لمحاولتها أن تدعه ليقدم الروابط الأسرية على روابط الملكوت. وبالنسبة للمرأة التي كانت تصرخ إليه من وسط الجماهير قائلة : "طوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين رضعتهما". رد عليها بسرعة قائلاً : "بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه". (لو ١١: ٢٧-٢٨). ويسوع لم يحِطّ من قدر العلاقات، بل أكّد روح حب الاختلاط بالآخرين، كما استخدم صوراً للحياة المنزلية من العائلة وحياة القرية في أمثلته. كما أكّد على الأبوة كدعوة هامة لكل من الرجال والنساء، وأنها دور يستحق الاحترام من قِبل الأولاد. ولكن لم يسمح لهذه الأدوار أن تأخذ الأولوية على ملكوت الله. لم يسمح بأن تُعبد كأوثان.

وهكذا كان يسوع أثناء إرساليته على الأرض، يُهيىء الرجال والنساء "لإعلان التحرير" الذي حدث يوم الخمسين. والرجال الذين يتبعون المسيح لم يعودوا بعد يعتقدون أن السلطان بأن يتصرفوا بحماسة وعلى هواهم يمكن أن يأتي بالملكوت، كما كان يعتقد بعض تلاميذ المسيح من طائفة الغيورين، الذين كانوا يأملون الإطاحة بالرومان المحتلين عن طريق قوة السلاح. أما بالنسبة لزوجاتهم، كان على الرجال أن يسيروا على نهج يسوع من ناحية الخدمة وإنكار الذات. وفي ذات الوقت، فالنساء اللواتي تبعن المسيح لم تعدن تستخدمن من "الحفاظ على العلاقة" عذراً لتجنب المخاطر التي لابد وأن تصاحب نمو ملكوت الله. إنهن ورثة مع الرجال في خلاص المسيح وعليهن التصرف على هذا الأساس.

وهذا قد يعني في بعض الأحيان عمل أشياء ربما تدينها الثقافة المحيطة بأنها "غير أنثوية". حين انخرط المسيحيون لأول مرة في الحركة التي تستهدف إلغاء الرق في أمريكا، لاحظ واحد من بينهم - خطيب اسمه تيودور ويلد Theodor Weld —

كيف أدركت النساء أنهن انسحبن من المعركة ضد الرق بالتذرع بالهدوء الذي يجب أن تتحلى به النساء. وقد كتب ويلد لاثنين من زملائه من المطالبين بالغاء الرق فقال :

في نفس الأسبوع الذي تجددت فيه، وفي أول مرة في حياتي أتكلم فيها في اجتماع ديني، حفزت الإناث على الصلاة وعلى الكلام إذا ما شعرن في أعماقهن بأنهن يردن ذلك، ولا يمنعن أنفسهن من ذلك بحجة أنهن إناث ... وكانت النتيجة أن سبع إناث مسيحيات اعترفن بخطيتهن بأنهن منعن أنفسهن من ذلك بسبب جنسهن، وقمن بالصلاة علانية كل واحدة تلو الأخرى في ذلك المساء عينه.

وأن تكون امرأة تابعة للمسيح شيء، وأن تكون زهرة منكمشة فهذا شيء آخر.

بين يوم الهجوم ويوم النصر :

ولكن، إذا كان المسيح قد ركز بتحويل نتائج تك٣: ١٦ بكل وضوح إلى عكسها، وإذا كان يوم الخمسين قد أعطى القوة للكنيسة الأرضية للتغلب عليها، فلماذا لا تزال توجد كثير من المشاكل والمربكات التي تحيط الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة في حياة المسيحيين كما في حياة كل شخص آخر ؟ نحن نشبه البطاريات التي تنفد طاقتها دائماً - يبدو كأنه - يعاد شحننا إبان الأوقات التي يشهد فيها التاريخ انتعاشاً روحياً، وفي هذه الأوقات، وكما أشرت في بداية هذا الفصل، يبدو أن العلاقات بين الرجال والنساء كانت تتناغم بالأكثر مع مقاصد الله الخالق، المسيح المخلِّص، والروح القدس كالمنشط ومعطي القوة. ولكن لماذا كانت فترات الضعف التي في الوسط ؟ ولماذا نرتد في كثير من الأحوال عن يوم الخمسين ونعود لمشاكل تك٣: ١٦ ؟

وقد أحسن اللاهوتي أوسكار كلمان Oscar Collman توضيح تلك النقطة. فقد ذكرنا أن الفترة بين يوم الخمسين وعودة المسيح النهائية تشبه الفترة بين يوم شن الحرب ويوم النصر إبان الحرب العالمية التانية. ويوم شن الحرب، كان كل واحد يعرف أن نقطة التحول في الحرب قد أتت، وأن الحلفاء سينتصرون. غير أنه بين ذلك اليوم، وتسليم الجيش الألماني، وقعت بعض المعارك الأشد ضراوة، والتي نجم عنها إصابات كثيرة. لقد بدا الأمر كما لو أن هتلر، استشاط غضباً لأن هزيمته أصبحت واقعة لا محالة، أراد أن يدمر معه كل الحضارة الأوروبية. والفترة الحالية من تاريخ الخلاص تشبه هذا. فعدونا القديم، الشيطان، يعرف أنه هُزم بموت المسيح وقيامته، يريد أن يبتلينا بكرب كما جاء في ترنيمة مارتن لوثر. وكلما زاد امتناع المسيحيين عن التصرف كرجال ونساء ما بعد يوم الخمسين، تضاعفت قلة فعالية شهادتهم للعالم الذي حولهم، وقل احتمال استجابة الآخرين لدعوة الخلاص المقدمة من الله.

وليس بمقدورنا، في موقف كهذا، أن نكون دائماً في أفضل حالاتنا الناجمة عن يوم الخمسين من ناحية العلاقات بين أدوار الذكورة والأنوثة أو في أي مجال آخر. وشفاؤنا التام ينتظر الفصل الخامس من القصة الكتابية، وافتتاح السموات الجديدة والأرض الجديدة. لكن بحسب قول فرانسيس سكيفر، نحن مدعوون لأن نُقيِّم خططنا القيادية، أو محاولاتنا الواعية لتنفيذ مضامين خلاصنا في جميع جوانب حياتنا، سواء كان ذلك في مجال العلم، الفنون، السياسة، التكنولوجيا، أو العلاقات بين النساء والرجال. وفي ذات الوقت علينا ألاّ نكون انتصاريين. فعلى المسيحيين ألاّ يفترضوا أنه نتيجة قبولهم خلاص الله، وأن أهدافهم طيبة فإنه بوسعهم أن يحسموا كل شيء الآن وبصفة قاطعة. لأن هذا أيضاً قد يكون خدعة من الشيطان، وهذا ما يعمي أنظارنا عن الخطية الرابضة، ويجعلنا مقاومين للإصلاحات التي ربما

كان الأمر في مسيس الحاجة إليها. ومع ذلك، فتنفاء كبير يمكن أن يتحقق بين يوم شن الهجوم ويوم النصر، إبان هذا الزمن الذي هو بين الأزمنة. وكما سبق أن ذكرت في الفصل الأول، بوسعنا استخدام معتقداتنا الكتابية المسيطرة على الرجال والنساء لكي نتذوق ونفسر الأفكار التي سمح الله بظهورها من أولئك الذين يدرسون الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة. وهذه هي مهمة بقية هذا الكتاب.

الفصل الثالث:

كيف تنظر إلى الجنس وأدوار الذكورة.والأنوثة

في القسم التالي من هذا الكتاب سأستعرض تأثير "الطبيعة والتربية" ـ أو علم الأحياء والتعليم ـ على سلوك النساء والرجال. وقد تعتقد أن هذا سيأخذنا حقيقة إلى لُب الموضوع. لأنه إذا كان "الجنس" يشير إلى ما أُعطي من الناحية البيولوجية، وأدوار الذكورة والأنوثة إلى ما تم تعلمه، ومن ثم يمكن تغييره، وإذا كان بوسعنا أن ننسب أوزاناً لكل منهما، فمن المؤكد عندئذ أنه سيكون بمقدورنا التحدث عما تم "خلقه" (وهو غير قابل للتفاوض من الناحية البيولوجية) هل هو ذكر أم أنثى، ثم نضع السياسة الاجتماعية والممارسة الكنسية على ضوء هذا. وإذا كانت النساء، نتيجة جيناتهم وهرموناتهم، هن في الواقع أكثر قدرة على التربية من الرجال، هنا قد يكون من الصواب ومن الطبيعي إعطاؤهن المسئولية الرئيسية في العناية بالأطفال. وإذا كانت جينات الرجال أو هرموناتهم تمدهم بالإحساس بالاتجاه والمكان أفضل من النساء، فمن المؤكد أنه استخدام أمثل للامكانات الاجتماعية عندما يتم تفضيل الرجال بقبولهم في دراسة الهندسة ـ وإذا كان الأمر، كما اعتاد أن يقول أحد رعاة كنيستي ـ الذي هو من الراحلين الآن ـ أن النساء ببساطة لم يولدن بالقوة العاطفية التي تمكنهن من مواجهة ضغوط اجتماعات بمجلس الكنيسة،

فمن المؤكد إذاً أننا نسدي لهن معروفاً بإبعادهن عن المجلس، فضلاً عن أن ذلك يتمشى مع أغراض الله من خلقهن على هذا النحو.

وهذا النمط من التفكير شائع جداً. لكنني سأجادل بالقول إنه حتى إذا كنا قادرين على عمل هذا الفصل البارع بين نتائج الطبيعة والتربية، فإنه من الخطأ أن نطبق هذا النمط من التفكير على الجنس أو أدوار الذكورة والأنوثة. ولعمل هذا أود أن أذكر ثلاث نقاط متصلة.

أولاً : من الناحيتين السيكلوجية والبيولوجية، يتشابه الرجال والنساء بأكثر مما يختلفون. **ثانياً** : الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة كل منهما يؤثر في الآخر ـ وإنها لحقيقة أن الطبيعة تحد مما تستطيع التربية أن تنجزه. لكن التربية أيضاً تُغيِّر الطبيعة. فالتجارب البيئية والاجتماعية تؤثِّر في سمتنا البيولوجية بطرق عميقة لا يمكن إلغاؤها. ثالثاً : حرية الاختيار، والشعور بالهوية الجنسية (من ناحية الذكورة والأنوثة) هما من النواحي الهامة لصورة الله في جميع الأشخاص. بيد أنهما أقل أهمية من الوظيفة الرئيسية التي دُعي إليها المؤمنون كافة ـ وهي العمل من أجل نمو ملكوت الله على الأرض.

وبالنظر إلى أنه يُوجد الكثير من التفكير الشائع جداً والخاطىء عن الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة (وفي علم الاجتماع الحالي كثير من الغموض بالنسبة لحرية الإنسان)، أود أن استعرض هذه النقاط الثلاث مع بعض الأمثلة التي تُهيىء القراء لمناقشات أكثر تفصيلاً في الفصول اللاحقة.

نقاط التشابه أكثر من نواحي الاختلاف :

لي ابنة أخ في السابعة من العمر، وهي الآن في السنة الثالثة في مدرسة كندية يغلب على برنامجها الطابع الفرنسي. وهي منذ الحضانة لم نسمع في حجرة الدراسة

سوى اللغة الفرنسية فحسب، مع أنهم في البيت يتكلمـون الإنجليزيـة. وهـي تتعلـم الآن القراءة والكتابة باللغة الفرنسية، ولسوف تضيف الإنجليزية كلغة "ثانيـة" حـين تصل إلى الصف الرابع. والآن، لغتها الفرنسية طليقة ويكاد نطقها يكون بلا خطـأ. وفي الوقت ذاته، فإن لغتها الإنجليزية عادية كلُغة أقرانها في فصول اللغـة الإنجليزيـة. وهي الآن في طريقها لأن تتحدث اللغتين.

وحين كان علـى والديهـا أن يُقـررا في البدايـة مـا إذا كـان عليهمـا إلحاقهـا بحضانة تغلب عليها اللغة الفرنسية، سألاني ما إذا كنـت أعتقـد أن الضغـط النـاجم عن تعلم لغتين سيكون أكبر مما تستطيع تحمله. فأجبت بأنه يبـدو أن الأبحـاث تُبـين أن الأمر قد يكون على هذا النحو بالنسبة لبعض الأطفال. ومع ذلـك فإنـه بالنسـبة لسارة، بغض النظر عما تتمتع به من ذكاء شديد، فهي بنت، وميـل البنـات إلى أن تتكلمن في وقت مبكر وبأكثر طلاقة من الأولاد يجعـل مـن المحتمـل بالنسـبة لهـا أن تواجه التحـدي وتنجـح في تعلـم لغتـين في الحـال. واقـترحت عليهمـا أن يلحقاهـا بالبرنامج ثم يُقدرا حكمة قرارهما بعد كل سنة على حدة. وطـوال سـنتها الأولى، كان أداؤها يتسـم بالكفـاءة والحمـاس، وفي نهايـة السـنة شـاهدت نتيجـة فصلهـا الدراسي. و لم أدهش، بناء على ملاحظاتي الأولى، في أن أكتشف أن البنات تفوقـن على الأولاد عدداً بنسبة تكاد تصل إلى ٢:١.

وهذه القصة تُثير عدداً من الأسئلة : هل كان فصل سارة نموذجياً من ناحيـة زيادة عدد البنات فيه ؟ على كل حال، فأنا لم أقم بمراجعة تصنيف قوائم الالتحـاق بالنسبة لحجرات الدراسة الأخرى التي تغلب الفرنسية على طابعها في هذه المدرسة، ناهيك عن نظام المدرسة برمته. فهل كان تأقلمها بسهولة ناتج عن انهـا بنـت ؟ أم أن ذلك نتيجة أنها تحصل على درجات فوق المتوسط في العادة، وليس مجـرد ذكـاء شفهي؟ أم أن ذلك يرجع إلى بيئة بيتها التي كانت تدعم تقدمها ؟ أم أن ذلك مـرده

هذه النواحي الثلاث معاً ؟ وإلى أي حد يصدق التأكيد على أن البنات يتفوقن عن الأولاد في القدرات اللفظية، وأن الأولاد يفوقهن في القدرات الإدراكية للأشياء، Spatial أم إلى الأقوال الشائعة في الصحف المتعلقة بأي من هذه الاختلافات ؟ وإلى أي مدى تصدُق هذه الاختلافات ؟ ما حجمها ؟ وإلى ماذا تُشير (إذا كانت تشير إلى أي شيء) ـ وهذا أكثر الأمور حساسية ـ بالنسبة للسياسة الاجتماعية وتوزيع التدريب، الوظائف، والمكافآت ؟.

لنكمل الآن حديثنا مع مثال القدرات اللفظية، لكي نستخلص بعض النقاط بالنسبة للأسلوب والتفسير في الأبحاث النفسية. لأنه بدون فهم هذه النواحي، فإن الأمر سيكون يسيراً أن نبحث ببساطة عن تأكيد لأمور يتحيز لها البعض قبل أن تظهر إلى ساحة الوجود. وإضافة إلى ذلك، فإن الأبحاث حول الاختلافات بين الذكر والأنثى في القدرات اللفظية تكشف عن أنماط معينة من المعلومات الشائعة في دراسات الاختلافات الجنسية من ناحية الإنجاز، الشخصية. بل وحتى من الناحية البيولوجية. ولذلك فإن ما سننتهي إليه بالنسبة لهذه الناحية من العمل السيكولوجي سينطبق في جزء كبير منه على الجوانب الأخرى أيضاً.

الاختلافات في حالة الطفولة : هل هي أكثر وضوحاً ؟

وثمة نقطة أولى رئيسية تتعلق بالاختلافات التي تظهر في الأطفال الصغار بالمقابلة مع تلك التي نجدها في حالة بلوغ سن الشباب، حين تكتمل التغييرات الخاصة بحالة البلوغ والنمو. ودراسات الاختلافات في الجنس عند الأطفال كثيرة جداً، لأن باحثين كثيرين يفترضون أن الاختلافات التي توجد في الأطفال الصغار جداً (قبل أن يُتاح للبيئة الاجتماعية مجال كبير للتأثير فيهم) لابد وأن يكون مرجعها عوامل فطرية وبيولوجية. إلا أن هذا الافتراض تواجهه بعض المشاكل. فمن ناحية، نجده يتجاهل ما حدث في بيئة الصفات الوراثية، داخل بطن الأم. ونحن لا نعرف

(إذا كان لنا أن نعرف على الإطلاق) كيف أن هـذه البيئـة مختلفـة بشـكل تصنيفـي بالنسبة للأولاد عنه بالنسبة للبنـات. غـير أننـا نعـرف بـالفعل أنه يتـم إنجـاب مائـة وأربعين ولداً تقريباً، مقابل كـل مائـة بنـت. ومعـدل الإجهـاض أكـبر بكثـير جـداً بالنسبة للأولاد، حتى إن معدل الأحياء بعـد الـولادة هـو ١٠٥ أولاد فقـط مقـابل مائة بنت، ومعدل الوفيات المبكرة الكبيرة بالنسبة للأولاد وصل إلى درجـة جعلـت النسبة متعادلة ١:١ بالنسبة لعمر سنة. والأولاد والبنات يواجهون درجـات مختلفـة من المخاطر سواء قبل أو بعـد الـولادة، وليـس مـن الواضـح إطلاقـاً، إلى أي مـدى يتعلق هذا بالعلاقة البيولوجية المرتبطة بالجنس بصفة خاصـة، وإلى أي مـدى يرجـع الأمر إلى تفاعل هذا مع البيئة الجنينية "بيئة الصفات الوراثية". هذا على الأقل معنـاه أننا يجب ألا نتسرع في التعميم بالنسبة لأي اختلافات توجـد في المهـد، وذلـك لأن هناك بيئة عمرها تسعة شـهور سـبقت الـولادة، ولأن الأولاد عـادة يكونـون أكـثر ضُعفاً من البنات سواء قبل الولادة أو بعدها.

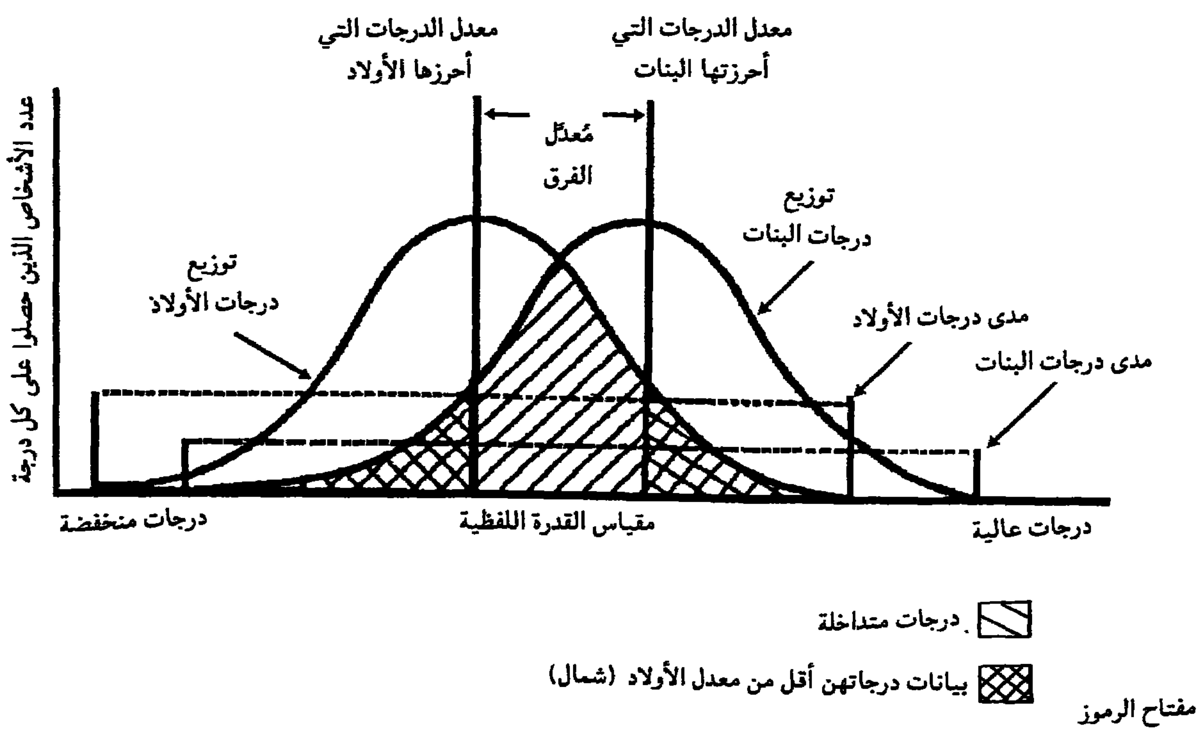
ثم إنه من غير الحكمة أيضاً أن نقلّل من أهمية الخـبرات الاجتماعيـة الأولى. والواقع أنه بالنظر إلى أن كثيراً مـن الفـترات الحرجـة تحـدث في المرحلـة الأولى مـن ولادة الطفل وكذلك في طفولته المبكرة، فـإن تأثـير هـذه الاختبـارات يكـون أكـبر بكثير مما لو كانت قد وقعت بعد ذلك. والفترة الحرجة في النمو البشـري هـي الـتي يكون فيها المخ في أفضل حالات المرونة (بطرق بالكاد نعرف أسرارها) لكـي يخلـق اتصالات بالجهاز العصبي يُقصد منها أن تستمر طوال الحياة. واكتسـاب اللغـة يُعـد مثالاً جيداً، لأن سـارة الصغـيرة استغرقت في الفرنسية بـدءاً مـن الحضانـة، وهـي تتحدث بها بطلاقة، وتكـاد تكـون بـدون أخطـاء سـواء بالنسـبة لقواعـد اللغـة أو اللهجة. أما أختها وأخوها اللذان هما أكبر منها، واللذان بدآ دراسة اللغة الفرنسية

كلُغة ثانية في الفصل الثالث، لم يستطيعا مجاراتها، وليس من المحتمل أن يفعلا ذلك حتى لو بدآ الآن في الانغماس في الفرنسية وواصلا ذلك طوال دراستهما الثانوية.

فضلاً عن ذلك، هناك بعض القصص التاريخية التي تُحدثنا عن بعض الأطفال الصغار، الذين تُركوا في الصحراء، ولكنهم رغم ذلك لم يهلكوا وظلوا على قيد الحياة إلى أن تم اكتشافهم بعد ذلك بسنوات. وهذا ما يوحي أنه دون التعرض للغة جماعة حية في وقت مبكر تضيع إمكانية تحصيل لغة معقدة. فالفترة الحاسمة لظهورها قد جاءت وولّت، ومثل هؤلاء الأطفال لا يكون بإمكانهم إلا تعلم مهارات الاتصال البدائية فحسب.

وأما من ناحية المعاملة الاجتماعية للأطفال من البنات أو الأولاد فلدينا أدلة كثيرة على أنهم يُعاملون دائماً بطرق مختلفة. والواقع أن الناس لا يكون أمامهم فرصة كبيرة لتخمين تكوين الطفل الجنسي عندما يرتدي ثياباً محايدة، فقد اخترع علماء النفس ما أُطلق عليه خطة (س) للطفل للنظر في هذه الفروقات. وفي هذه الدراسات طُلب من الكبار أن يتفاعلوا مع الطفل بحسب ما يخبرونهم عما إذا كان ولداً أو بنتاً. في نصف الحالات كان الطفل هو الجنس الذي صنفوه، وفي النصف الآخر كان في الواقع الجنس المغاير. ونتائج هذه الدراسات تكون دائماً ثابتة. فالطفل يُوصف ويُعامل بواسطة معظم الكبار على أساس أنماط متكررة عن الجنس المفترض مسبقاً. فالبنات اللواتي صُنّفن أولاداً (وكذلك البنات اللواتي صُنّفن بناتاً) وُصفن بأنهن أكثر وداً وألفة وأنوثة. وتُقدم لهن العرائس بأكثر مما تقدم لهن كرات القدم. ويكون الحديث معهن أكثر. ويوصفن بأنهن من الناحية البدنية "أضعف" ويمكن أن يتكدرن بسهولة (وهذا ما يدعو إلى السخرية بالنظر إلى حقيقة أن الأطفال الذكور أكثر ضعفاً). أما العكس، القوالب الذكور فتطبق وبنفس القدر من الثبات للأولاد الذين صُنفوا أولاداً والأولاد الذين صُنفوا بناتاً.

ولذلك حين تُقرِّر مقالة علميــة شـعبية أن البنـات يتكلمـن في وقـت مبكـر، وبأكثر طلاقة من الأولاد، فما الذي نفهمه من هذا ؟ **أولاً**: نحـن في حاجـة إلى أن نعـرف أن كثـيراً مـن الدراسـات لم تكتشـف أيـة فروقــات، بــل وحــين تُوجــد الاختلافات المعتادة (ودائماً في صالح البنات) تكون دائمــاً صغـيرة لا قيمـة لها مـن الناحية الإحصائية، الأمر الذي يعني أنه كان يمكن حدوثهــا بالصدفـة. **ثانيـاً**: حتـى الاختلافـات ذات المعـدل الأكـبر بـين الأولاد والبنـات أصغـر كثــيراً مــن معــدل الدرجات في إطار أي من الجنسين. فالمنحنيــات المتشـابكة في الشـكل (وبالمصادفـة يمكن أن يُعاد تصنيفها لتنطبق على الاختلافات التي خصت الجنس الآخر) تسـاعدنا على توضيح هذا بشكل أكثر.


معدل الدرجات التي
أحرزها الأولاد
معدل الدرجات التي
أحرزتها البنات
مُعدّل
الفرق
توزيع
درجات البنات
توزيع
درجات الأولاد
مدى درجات الأولاد
مدى درجات البنات
عدد الأشخاص الذين حصلوا على كل درجة
درجات منخفضة
مقياس القدرة اللفظية
درجات عالية
مفتاح الرموز
درجات متداخلة
بيانات درجاتهن أقل من معدل الأولاد (شمال)
أولاد بدرجات أعلى من معدل البنات (يمين)

(شكل ١)

ويلاحظ أن مدى درجات مفردات اللغة الذي تقع فيه كل مجموعة أكبر بكثير من معدل الفرق البسيط الذي يفصل بين المجموعتين. وهذه الحقيقة وحدها تُبيِّن زيف أي حديث عن التناقض الكامل الصارم بين الجنسين. ولاحظ أيضاً العدد الكبير من الأولاد والبنات من ذوي الدرجات المتداخلة. والذين يصل عددهم إلى ما يقرب من ثلث عدد كل مجموعة في هذا المثال. (في معظم الدراسات يكون أكثر، ولا تجده أقل من ذلك في أي منها). ونلاحظ أيضاً أنه توجد أقلية من الأولاد ممن سجلوا درجات أعلى من درجات البنت العادية، وأقلية من البنات سجلن أقل من الولد العادي. وتذكر، أن كل ما نعرفه حتى عن معدل الفرق الصغير بين المجموعات هو :

١- أنه يحدث في بعض الدراسات وليس (فيها كلها).

٢- لا يمكننا تحديد كم منها يرجع إلى عامل الطبيعة، وما مقدار ما يرجع إلى عامل التربية، لأن ليس من بين هذه الدراسات ما أخذ في حسبانه الفروقات المبكرة في المعاملة الاجتماعية للأولاد والبنات، بما في ذلك حقيقة أن البنات الأطفال يُخاطَبن بأكثر مما يحدث بالنسبة للأطفال البنين.

وعلى ضوء عدم وضوح الرؤيا إلى هذا الحد الكبير، فبالكاد يكون هناك معنىً لاستنتاج أنه يجب قبول بنات في الخامسة من عمرهن بأكثر من الأولاد ممن هم في نفس السن وذلك في الفصول الدراسية التي يغلب عليها الدراسة بالفرنسية، بغض النظر عن محدودية عدد الأمكنة. ومن الجلي (إذا تعلّق الأمر باللغة القومية) أن كل دارس يُقيَّم على أساس قدرته (أو قدرتها) اللُغوية الفعلية وليس طبقاً للحصص النسبية المختلفة بين الذكر والأنثى. ونفس المنطق ينطبق على الرياضيات

والعلوم والمواد الأخرى التي يرتبط الأداء فيها، مهما كان كثيراً أو قليلاً، بالقدرات المتعلقة بالجنس.

ماذا عن الفروقات بين الكبار ؟

لكني قلت إننا احتجنا إلى التمييز بين الدراسات التي تتناول الفروق الخاصة بالطفولة، وتلك التي تتناول الفوارق بين الكبار من رجال ونساء. وهذا التمييز له أهميته لأن الكبار اختبروا نمواً بدنياً عاماً منذ الطفولة. غير أنه مهم أيضاً لأن بعض الباحثين يعتقدون أن التغييرات التي يشهدها المراهق تختلف في النشاط الهرموني، الذي يُنشِّط خصوبة الأنثى والذكر، وخصائص الجنس الثانوية تؤثر في مخ الذكر والأنثى (ومن ثَم على القدرة على التفكير) بشكل مختلف. وتوجد "نظريات هرمونية" تحاول أن تشرح التفوق اللفظي لدى الإناث، وتميز الرؤية الإدراكية للأشياء Spatial عند الذكور بنفس هذه الطريقة. ولسوف نتعلم المزيد عن هذا في الفصل الخامس. لأن كل ما نحتاج معرفته الآن هو أنه من بين أربعين دراسة تُستخدم الأجزاء اللفظية من اختبارات الذكاء المعيارية على الأشخاص الذين تعدَّوا سن السادسة عشر (بما في ذلك الألفاظ الخاصة بقياس الأعمال، وحل المشاكل اللفظية، والطلاقة اللفظية، والقدرة على الاقناع)، أكثر من النصف لم يحققوا فروقات بين الرجال والنساء. والنساء أنجزن أفضل من الرجال في خمس عشرة دراسة من إجمالي السبع عشرة دراسة في إطار الدراسات المستمرة، غير أن الفروقات، على الرغم من عدم أهميتها من الناحية الإحصائية، إلا أنها كانت صغيرة تماماً وبشكل نموذجي.

ومع ذلك، فإنه من السهل أن "تكذِّب" ــ أو على الأقل تُضَلِّل ــ بهذه الإحصاءات. وأن تعلن أن "هناك فرقاً إحصائياً هاماً" قد وُجد لا يعني سوى أن الفرق، أياً كان كبيراً أم صغيراً، سوف يحدث بالصدفة وبأقل من خمس مرات في

ألف من العينات التي أُخذت عشوائياً. وهكذا فإنه في عينة تتضمن مائة ألف رجل، ومائة ألف امرأة، فإن معدل درجة حصيلة الذكاء اللفظية البالغة. ونقطة سيكون لها مغزى إحصائي عال من ناحية أن هذا لن يحدث سوى مرة بالصدفة في كل ١٠٠٠ مرة. وهذا مرجعه أنه كلما كانت العينات كبيرة كلما صغر الفرق المطلوب ليعطي أهمية، لأن الأشياء الأخرى متساوية. غير أن الأهمية الإحصائية ليست كالأهمية العلمية. والادعاء بأية أهمية عملية لهذا الفرق في درجات محصلة الذكاء سيكون مثل الجدل بأن فرقاً إحصائياً هاماً قدره٢٪ لإشارة مرور لكل ميل مربع بين مدينتين له معانيه الهامة لتحقيق الأمان في المدينة.

وثمة إجراء إحصائي أكثر حداثة يحاول أن يتجاوز بجرد المغزى الإحصائي لتقييم مدى أهمية حجم الفروقات في الواقع على ضوء عدد من الدراسات. وبالنظر إلى جميع عينات الرجال والنساء معاً، يمكن أن تجيب على السؤال الخاص بالقياسات اللفظية أو غيرها : "إذا كان الشيء الوحيد الذي نعرفه عمن يشارك في إحدى هذه الدراسات هو درجته (أو درجتها) بالنسبة للاختبار الذي أجراه، كيف يمكنك وعلى نحو من الدقة، أن تخمن إذا كان رجلاً أم امرأة ؟ ومثل هذه التحاليل تُبيِّن أنه ـ على الرغم من كل المقاصد والأهداف ـ لن يكون بمقدورك سوى أن تُخمِّن بالصدفة جنس الشخص (هل هو ذكر أو أنثى) من درجته (أو درجتها) اللفظية. وستجد أن الفرق تافه للغاية.

وهذا ليس معناه أن ذلك قد لا يكون فرقاً حقيقياً، أو أنه فرق يعتمد على عناصر بيولوجية، ومثل هذه التحليلات ليس بوسعها الإجابة على هذا السؤال. وهكذا استمر بعض واضعي النظريات في إبراز تفوق الإناث في القدرات اللغوية، مهما كان صغيراً، في الدراسات التي وقع فيها. وثمة آخرون أكدوا أن كمية الدراسات لم تُظهر أي فروقات. واضطر كل جانب إلى التسليم بأن الآخر ربما

يكون على صواب. وكتبت آن فوستو ستزلنج Anne Sterling من جامعة براون تقول : "على اساس هذه المعطيات، فإن اختيار الاعتقاد في الفروقات المتعلقة بالجنس بالنسبة للقدرة اللغوية هو دعوة للحكم، على أساسها يمكن للعلماء ذوي المعرفة أن يختلفوا ومن المشروع جداً أن يفعلوا ذلك.

ماذا عن علم الأحياء ؟

لسوف نكتشف في الفصول الآتية أن ما ينطبق على الفروقات المرتبطة بالجنس (من حيث الذكورة والأنوثة) في القدرة اللفظية ينطبق على الميول السلوكية الأخرى أيضاً. ومن الناحية السيكلوجية، فإن الرجال والنساء بينهم من التشابهات بأكثر مما بينهم من فروقات. ولكن عندما ننظر إلى السمات التي من الواضح أنها بيولوجية أكثر، ألا نكون في موقع مختلف تماماً ؟ ربما بالغ فرويد في الموضوع حين كتب يقول إن "علم التشريح هو قَدَرُنا"، بيد أنه من المؤكد أن علم التشريح هو المميز الأكثر وضوحاً وثباتاً بين الذكر والأنثى، وهو العامل الذي بواسطته نحدّد جنسية الطفل (من حيث الذكورة والأنوثة) ونحن في غرفة الولادة. أليست هذه الفروق التشريحية (والجينات والفسيولوجيا من ورائها) هي التي تُمكّن الرجال والنساء من القيام بأدوارهم المختلفة (ولكنها متعاونة) في عملية الإنجاب ؟

من حيث الظاهر، نعم. بيد أنه حتى هنا لا يخلو الأمر من مفاجآت. وعلى سبيل المثال، إذا كان لك أن تفحص عدة حالات لإجهاض جنيني في الشهر الثالث من الحمل، لن تعرف الذكور من الإناث ما لم تُجرِ اختباراً معملياً لتبحث عن جسيم كرومُزومي الذي يميز الخلايا الأنثوية ولكنه لا يوجد في خلايا الذكور. ومن الظاهر، الكل له فتحة إخراج، فضلاً عن فتحة أخرى واضحة، أمامها يكون نتوء لحمي صغير جداً. وداخل منطقة الحوض لكل منها تجد زوجاً من الغدد التناسلية التي لا يمكن التمييز بينها، لا تشبه المبايض أو الخصيات، والتي يمكن أن تصبح أياً

منهما، إذا ما أُتيحت لها البيئة الهرمونية المناسبة. كمـا أنـك ستجد مجموعتـين مـن قنوات أولية، إحداهما يمكن أن تنثني فيما بعد لتصبـح رحماً، في حين أن الأخرى يمكن أن تصبح مجموعة عادية من الأنابيب الذكرية لإنتـاج السـائل المنوي وقذفه. وهنا أيضاً، النسب الصحيحة فقط من الهرمونات في نقطة حساسة من النمو الجنيني سوف تسبب في ذبول التكوينات الأنثوية الأولية في جنين ذكر (في حين أن التكوينات الذكرية تنمو) أو الأنابيب الأوليـة الذكريـة تذبل في الجنين الأنثى (في الوقت الذي تنضج فيه التكوينات الأنثوية). وحتى مع هذا، فإن تكوينـات الجنس المُغاير لا تختفي تماماً، بل تبقى موجودة على شكل بقايا فوق مبيض المـرأة وخصيـة الرجل.

وهكذا، فكون الجنين ذكراً أو أنثى من الناحية الجنينية، لا يـؤدي تلقائيـاً إلى الإعداد الجنسي الصحيح داخلياً أو خارجياً، في أي جنين. وأول ما يجب أن تعملـه الكروموزومات في الذكر أو الأنثى هو أن تعمل على إطلاق النسب الصحيحة مـن الهرمونات في فترات حاسمة معينة مـن تطـور الجنـين. وهـي تفعـل هـذا عـن طريـق مجموعة أخرى من الهرمونات في الغدة النخامية الـتي تتحكـم في تنسيق الهرمونـات التي لها علاقة بالجنس. هل هنا يكمن الخلاف الرئيسي ؟ الجينـات الجنسـية المناسـبة تنتـج الهرمونـات الجنسـية المناسـبة، وهـذه بدورهـا تقيـم اختلافـات بدنيـة وربمـا سيكولوجية بين الجنسين أثناء فترات حاسمة معينة، ولاسيما أثناء النمو الجنيني وعند البلوغ. ولأن هذا الرأي يتعلق بتعقيدات النمو البيولوجي، فهـو أقـرب إلى الحقيقـة من النظرية الساذجة التي تقول : "إن الأمر كله في الجينات نهائي وبشكل حاسم". فالهرمونات الجنسية ليست بشكل متفرد ذكراً أو أنثى. فالرجال والنساء علـى حـد سواء، يُفرزون منشِّط الذكورة (مجموعة من الهرمونات التي تعطي سمات الذكـورة) والاستروجين المثير (وهـو هرمونـات تعطـي سمـات أنثويـة). وكلتـا النوعيتـين مـن

الهرمونات (وغيرها أيضـاً) تحتاجهـا الذكـور والإنـاث لتحقيـق النضـوج الجنسـي، والنوعيتان يفرزهما المبيضان والخصيتان، وبكميات أصغر بواسطة القشرة الأدرينالية الكظرية الموجودة فوق الكُلى.

أما الأمر الحاسم بالنسبة للتفرقة بين الذكر والأنثى، داخلياً وخارجياً، ليست الكميات المطلقة بل النسبية من هذه الهرمونات عند مراحل معينة في النمو. ونسـب الأندروجينات (المُنشـطة للذكـورة) والاسـتروجينات تختلـف وبكميـة مدهشـة، في الرجال والنساء بوجه عام، وفي أفراد في أوقـات مختلفـة. وإذا تعـدَّت هـذه النسـب حداً معيناً أثناء فترات حاسمة قبل الولادة وعند البلـوغ، فـإن النتـائج ــ علـى الأقـل فسيولوجياً ـ قد تكون متيرة، كما سنرى في الفصلين التاليين. والمهم فهمه الآن هو الدرجـة المذهلـة مـن التشـابه بـين الأنثى السـوية والذكـر السـوي مـن الناحيـة الفسيولوجية. علاوة على ذلك، كما أنه لا يمكن تقديم توضيحـات جينيـة بسـيطة عن السبب من أن الجنسين مختلفان (أو يجب أن يكونا كذلك) في سـلوكهما، فإنـه لا يمكن أيضاً تقديم تفسيرات هرمونية بسيطة. وكثيرون من البيولوجيـين المختـزلين يقولون إن الذكورة والأنوثة لابد منهما، فهما مرغوبتان لأنهمـا تعكسـان بصـورة مباشرة مستويات من مُنشطات الذكورة (الأندروجينات) والأسـتروجينات (المثـيرة للصفـات الأنثويـة). والهرمونـات وُجـدت لتُـبرر (أو علـى الأقـل لتكـن عـذراً) للسلوكيات المتباينة مثل تسلُّط الذكور (بمـا في ذلـك الحـرب، الاغتصـاب، العنـف المنزلي)، وسلبية الإناث وغزلهن، وإلحاحية وتوجيـه الرغبـات الجنسـية. بيـد أنـه في الإنسان لم تُوجد علاقات يُعتمد عليها بين أمور مثل الجنسية المثلية، القيادة الجازمة، العدوان أو التغذية، والكميات المطلقة أو النسبية لهرمون معين. وكما قال فريق مـن العلماء :

. نحن نشك في أنه بمقدورنا أن نشرح ظهور رئيس جمهورية أو رئيس وزراء في المستقبل وذلك بقياس الأندروجين (منشط الذكورة) الدائر للمتنافسين على هذه الوظيفة – أو حتى باستعادة الأحداث الماضية والتأمل على مستوى هذه الهرمونات في الأيام أو الشهور التي أعقبت ميلادهم .... فعلماء الأحياء عاجزون عن التنبؤ برونالد ريجان أو مرجريت ثاتشر استلهاماً من أي قياسات، مهما كانت معقدة.

فالرجال والنساء ليسوا مختلفين بما فيه الكفاية من الناحية البيولوجية (تكوينهم بسيط بدرجة كافية) لتبرير تفسير الاختلافات السلوكية على أساس علم الأحياء وحده. وقد تكون هناك أسباب أخرى، متأصلة في قيمة معتقدات، أو ظروف تاريخية، لوجود درجة من التقارب بين الذكورة والأنوثة، بيد أن هذا موضوع آخر. وحتى لو كانت الاختلافات الجسدية ونتائجها السلوكية واضحة محددة كما يقول البيولوجيون المختزلون Biological reductionist، كيف يمكن لمسيحي أن يقبل الحجة القائلة : "التكوين الفسيولوجي هو قدَرَنا" ؟ لأن هذا معناه في الواقع أنه أياً كان الأمر، فإنه صحيح أخلاقياً. بكلمات أخرى لأن الرجال كانوا يشنون حروباً. وكان ذلك أمراً شائعاً، لذلك أُعتبر أن ما يفعلونه يُعد أمراً صحيحاً. ولأن الاتصال الجنسي للرجال غير الشرعي كان أمراً شائعاً في التاريخ، لذلك أُعتبر هذا أمراً صحيحاً أو على الأقل له عذره، لأن سلبية المرأة أمام استغلال الرجال السيىء كان أمراً شائعاً تاريخياً، فهو أمر لم يمكن تجنبه لذلك لم يمكن كشفه أو اعتراضه.

وإذا كان علينا أن نُفسر أو نُبرر وظائف محددة للرجال أو النساء، مهما كانت محددة بشكل كبير أو صغير، يجب أن ننظر بالأكثر إلى التفسيرات القائمة على النواحي الاقتصادية، الاجتماعية، ووجهة النظر العالمية. وإذا عملنا أقل من ذلك فهذا معناه أننا نقول إن البشر ما هم سوى آلات تُدار بالغريزة.

الطبيعة والتربية يؤثّر كل منهما في الآخر :

منذ عهد قريب استقبل طفلاي بفرح قطتين صغيرتين ماتت أمهما نتيجة حادث في المزرعة. وفيما كانا يطعمانهما لبناً باليد ويشاهدان القطتين وهما تكبران، تعلم الولدان كثيراً من الدروس التمهيدية لعلم النفس. وقد انجذب انتباه ابني الأكبر بصفة خاصة إلى القطتين وهما يتأرجحان خلف رجلي أي شخص وتتحركان إذا وقع نظرهما عليهما. وحتى فيما كانت القطتان تجلسان في صمت لترتاحا، كانت عيون القطتين ترقبان ما يدور بالقرب منهما من أنشطة بكل ترقب واهتمام المشجعين الرياضيين أثناء مشاهدتهم مباراة في التنس. علق ابني على ذلك بقوله : إنهما مثل الأطفال. فالأطفال الصغار يُحملقون فيك بنفس هذه الطريقة أيضاً.

والواقع أن الأطفال يفعلون هذا ـ والقطط والأطفال يفعلون هذا لأسباب قوية كذلك. لأنهم لو لم يُعرّضوا لمجموعة كبيرة من الخبرات المرئية في الشهور الأولى بعد ولادتهم (وهذه واحدة أخرى من "الفترات الحاسمة" لنوعيات معينة من النمو) فإن بعض اتصالات الجهاز العصبي المعينة، والضرورية للفهم البصري المعتاد، قد لا تنمو ببساطة على الوجه السليم. وفي سلسلة من تجارب الفوز بجائزة نوبل أُجريت في الستينيات، عُزلت القطط الصغيرة بعد الولادة في براميل كبيرة مُسيج حولها، كل منها مرسوم فيه نموذج واحد من داخله ـ من شرائط سوداء وبيضاء، أفقية أو رأسية ـ وبعد ذلك، استطاع الباحثون أن يزرعوا قطباً كهربائياً دقيقاً في خلايا فردية في جزء من الجهاز البصري بين العينين والمخ ليسجل النشاط الكهربي الناجم عن ذلك حين عُرضت القطتان لنماذج عديدة. والقطط التي تُربى بشكل طبيعي وتعرضت للنماذج المرئية المعقدة للحياة اليومية في العالم ، تكون لها خلايا

تستقبل الشرائط الأفقية والرأسية. غير أن القطط التي عُرِّضت للشرائط الأفقية فقط لم يكن لها خلايا تنفعل تجاوباً مع الشرائط الرأسية، وهو الاختبار الذي افتقدته في بداية حياتها. والعكس صحيح بالنسبة للقطط التي عُرِّضت لشرائط رأسية فحسب.

وأُجريت دراسات مماثلة على فئران صغيرة رُبيت في بيئات على النقيض من ذلك حيث تقل المحفزات البصرية. ومع ذلك، فالذي فُحص في هذه المرة هو الأثر الذي وقع على نوع من خلية مخية لحائية (تُسمى الخلية "الهرمية" بسبب شكلها) وهي مشابهة في تركيبها سواء في الفئران أو في الإنسان، والتي على فروعها التي تشبه الخيط يمكن أن تتكاثر نتوءات عظمية دقيقة. ونحن نعرف أهمية هذه الألياف العصبية بالنسبة للبشر، بسبب مرض مهلك يقوم على أساس جينات ويُسمى Tay - sachs syndrome، هو مرض وراثي متعلق بعملية عدم انتظام التمثيل العضوي حيث يؤدي نقص الإنزيم إلى تجميع الأحماض الأمينية بصورة كبيرة في المخ، ثم يؤدي إلى موت الطفل. وفي أثناء هذا المرض، فإن الخلايا الهرمية التي أنتجت مجموعة كاملة من الألياف العصبية إبان السنة الأولى من الحياة أزيلت بشكل تدريجي من هذه الألياف بواسطة نقص أنزيمي. وكانت النتيجة شكلاً عويصاً من التخلف العقلي، لأن فقدان الخلايا العصبية المتصلة بالعمود الفقري، معناه في الواقع، فقد الرسائل الواردة إلى المخ. كما أنه يتبعه أيضاً موت محقق، وعادة ما يكون قبل سن الثانية.

وبتشريح ضحايا Tay - Sachs الصغار، أكّد الباحثون أهمية هذه النتوءات الهرمية لظهور الذكاء البشري العادي. وبتشريح الفئران الصغيرة في ظروف متباينة تتسم بالحرمان من الرؤية، أظهر باحثون آخرون أهمية التجربة بالنسبة لمضاعفة هذه الخلايا العصبية. ويتذكر ميلفن كونر المرة الأولى التي نظر فيها إلى صور من المخ يشوبها بعض من العيوب، فرأى بنفسه العلاقة الواضحة لعدد الخلايا العصبية بدرجة الثراء البيئي إبان حياة الفئران القصيرة. انظر، أنا أتذكر التفكير حين رأيت

الصور لأول مرة. انظر بنفسك. فإن التجربة العلمية تغيِّر المخ، و لم يكن "كونر" رجلاً ساذجاً من دعاة المحافظين على البيئة، والواقع أن الهدف الأساسي من كتابه هو أن يشرح نفس القيود الحقيقية التي يفرضها علينا علم الأحياء (البيولوجي). وقوة هذه القيود يؤكدها مثال Tay-Sachs فبدون التنسيق الجيني الصحيح، لن توقف كل خبرات العالم تدهور الألياف العصبية الناجمة عن هذا المرض. مع ذلك، فنراه يذعن إذ أُعطي نموذجاً جينياً عادياً : كل شيء بدءاً من القدرة على التعليم إلى التركيب الكيميائي للمخ تبين أنه تغير بالتجربة.

كيف تؤثر التربية في طبيعة المرأة ؟

وجزء من "كل شيء" تتضمنه خبرتنا، هو بالطبع، أسلوب التعبير الذي يتخذه سلوك الذكر والأنثى. وبعض الأعراض المهمة والمثيرة لهذا تأتي متعددة. فإذا أُعطيت التغذية وكانت في الحالة النفسية العادية، فمعظم نساء العالم تبدأن الطمث في سن الثانية عشرة تقريباً ويتوقفن في سن الأربعين على وجه التقريب. غير أن تصرفهن إزاء الطمث وسن اليأس يختلف طبقاً لخلفيتهن الحضارية ـ بل وحتى الدينية ـ فالنساء اليهوديات الأرثوذوكس، واللواتي تُعتبرن نجسات من الناحية الطقنسية لمدة أسبوعين كاملين بعد بداية الحيض، تمِلن إلى أن تنسبن آلاماً ومضايقات إلى هذا الحدث الشهري بأكثر مما تفعله النساء الكاثوليكيات أو البروتستانتيات. فالنساء الكاثوليكيات التي تشدد نشأتهن الدينية على الأدوار التقليدية المحضة للذكورة والأنوثة، وعلى اهتمام ضئيل بكهنوت كل المؤمنين، يتحدثن عن توعك بدني وعاطفي أكثر مما تفعله النساء البروتستانتيات. والتصرفات الأقل تغيراً لبعض النساء البروتستانتيات ربما ترجع جزئياً لتراثهن الثقافي الذي تطغي عليه سمة أوروبا الشمالية، الذي يُشدِّد على تحفظ عاطفي كبير بالنسبة

للرجال والنساء بأكثر مما هو الحال بالنسبة للمجموعات التي يطغي على أصلها بالأكثر طابع أوروبا الجنوبية.

وليس هذا معناه أن القول المأثور "تصلب الشفة العليا" يكون دائماً هو الإجابة المُفضلة التي يجب التأكيد عليها ـ فالكبت العاطفي المزمن، يمكنه على أي حال أن يؤدي إلى القروح. ولا يعني كذلك أن أعراض الطمث هي بالضرورة ينتج عنها أمراض نفسية وعضوية بل وليس معناه أن النساء إلى حد كبير تتعلمن أن تغنين أغنية "الطمث الكئيبة". والتنشئة أيضاً تؤثر في الطبيعة عندما تتوقف المرأة عن الإنجاب وتبلغ سن اليأس. وفي معظم حضارات العالم الثالث ـ على النقيض مما هو حاصل عندنا ـ يزداد وضع النساء الاجتماعي مع مستهل خريف العمر، وفي مثل هذه الثقافات لا تنظر النساء إلى سن اليأس على أنه يوهن العزم ويولّد الكآبة ـ فالواقع أن الأمر على النقيض من ذلك. ومن المؤكّد أنه تحدث تغييرات هرمونية تصاحب سن اليأس، وهذه قد تؤدي إلى أعراض مضايقات بدنية عند بعض النساء. غير أنه حين تصاحب الكآبة سن اليأس في حضارتنا، وكما تقول جوانا روروبوف **Joanna Rohrbaugh**، من علماء النفس بجامعة هارفارد : "من الصعب القول ما إذا كان رحيل الأولاد عن البيت، عودة المرأة إلى سوق العمالة، أو نظرتها إلى نفسها على أنها كبرت في السن ومن ثَم أصبحت أقل جاذبية من الناحية الجنسية، وقد يكون هذا أكثر أهمية من التأثيرات البدنية الناجمة عن دورة الهرمونات في الجسم. فالتغييرات الهرمونية تحدث، غير أن العوامل الاجتماعية والثقافية تؤدي إلى تغييرات كبيرة من ناحية اختبارهن هذه التغييرات وتعاملهن معها.

كيف تؤثر التنشئة في الطبيعة عند الرجال :

تأثير الخبرة على الناحية البيولوجية يمكن أن يظهر في الرجال كما النساء. وعلى الرغم من أنه ما من أحد استطاع أن يُظهِر علاقة يُعتد بها، بين مستويات

الأندروجينات (منشطات الذكورة، مثل التستوستيرون، وهو الهرمون الذي تفرزه الخصية) والسلوك العدواني في البشر، فإن العلاقة العكسية ترسخت تماماً. وتحت ظروف الضغط النفسي ـ كالذي يختبره الرجال أثناء بعض التمرينات الأساسية في الجيش، أو تحت التهديد بالهجوم، فإن مستويات التستوستيرون (والعديد من الهرمونات الأخرى) تهبط عمودياً. وفي نفس الوقت نجد أن مستويات الأدرنالين والكورتيزون، وعلى الأقل ثلاث نوعيات من الهرمونات الأخرى تتصاعد. والإثارة الجنسية المرتبطة بالتستوستيرون (وهذا لا يجب الخلط بينه وبين إثارة العدوان) هي ترف لا يمكن تحمله طالما حياة الإنسان مهددة.والأمر بخلاف ذلك يحتاج إلى كيماويات مثل الأدرنالين، والذي يعطي القوة الدافعة لطاقة إضافية مطلوبة من أجل "القتال أو الفرار".

وحتى في هذه الحالة نجد أن تأثير هذه الهرمونات أبعد من أن يكون واضحاً. وفي سلسلة معروفة من التجارب التي أُجريت في الستينات، حُقن الشباب بالأدرينالين، ثم عُرضوا لنماذج لها أدوار معينة وتناولوا أيضاً نفس العقار. نماذج الأدوار هؤلاء (كانوا في الواقع شركاء الباحثين) كان سلوكهم إما عدوانياً نشطاً، أو سلبياً. وكانت النتيجة من أنه على الرغم من أن الشباب جميعاً حُقنوا بنفس المادة، إلا أنه من المرجح أنهم يقلدون استجابات ومشاعر "نموذج الدور" الخاص بكل منهم، وإثارة أي هرمون من المؤكد أن ينجم عنها تأثيرات بدنية : وحتى الشبان الذين عُرّضوا لمجرد نموذج دور سلبي، قالوا إنهم شعروا بقلق متواصل وأحياناً مقزز. غير أن الظروف الاجتماعية تؤثر بدرجة كبيرة في كيفية اختبارنا وتصرفنا بالنسبة لهذه الإشارات البدنية. وهكذا يجب أن يكون الحال إذا كانت نفس الجرعة من نفس الهرمون يمكن أن تؤدي إلى مثل هذه التصرفات العكسية وفي

مواقف اجتماعية تم توجيهها الاتجاه المناقض. فالناحية البيولوجية والخبرة لهما تأثير متبادل. ولكن أين موضع الحرية ؟

لسوف يشعر القارىء المدقق أن شيئاً ما لا يزال ناقصاً في هذا التقرير. لقد جادلت بأنه في حين أن الناحية البيولوجية تضع حدوداً معينة ينمو في إطارها الرجال والنساء، إلا أن تجارب اجتماعية وبيئية أخرى تشكل وبدرجة كبيرة ما يحدث في إطار هذه الحدود. أما القول بأن التنشئة يمكن أن تتغلب على الطبيعة أو العكس، فهذا معناه أنك ما زلت تجادل في إطار ميكانيكي. إن هذا يشبه قليلاً الجدال حول ما إذا كان تصميم المحرك أو تصميم الهيكل هو الذي يسهم بشكل أكبر في سرعة السيارة. وفي كلتا الحالتين، فإن السيارة تحت رحمة قوى عنيدة لا حول لها ولا قوة أمامها. وزيادة على ذلك، فإن لم تسِر السيارة كما يجب فبوسعنا أن نُغير محركها أو هيكلها، أو حتى نتخلص منها كخردة، ولكننا لن نعتبرها مسئولة أخلاقياً عن سلوكها. ولكي نعتبر شخصاً ما مسئولاً من الناحية الأخلاقية عن أعمال اقترفها، يجب أن يكون بمقدورنا القول : "كان بوسعك أن تفعل العكس، حتى على ضوء حالتك البيولوجية الماضية والحاضرة، وظروفك الاجتماعية الماضية والحاضرة أيضاً".

ولكي نقول إن أشخاصاً ما لديهم حرية، ومن ثم هم مسئولون أخلاقياً، ليس معناه أنهم تحرروا من كل القيود البيولوجية والحضارية. وهكذا، فإن من بين إسهامات العلم القيّمة، ولا سيما علم الاجتماع، هو المساعدة على استبيان الظروف التي في ظلها قلل الناس من المسئولية. فقد كان هناك وقت، كان المصابون بانفصام الشخصية يُحرقون بالشد إلى خازوق مثل السحرة الأشرار، أما الآن فنحن نبحث عن علاج طبي وبيئي لمساعدتهم. وقد كان ثمة وقت كانت النساء اللاتي يواجهن التعسف، أو الأطفال الذين يحاولون الفرار من أوضاع متعسفة يُوصمون

بأنهم "منحرفون وعصاة". أما الآن، فنحن ندرك أن بعض الظروف الاجتماعية يمكن أن تُشكل ضغطاً رهيباً حتى إنها تولّد تصرفات يائسة لضمان مجرد البقاء على قيد الحياة.

ومع ذلك، إنها لحقيقة أن علم الاجتماع ما زال يفتقد إلى الإجماع من ناحية طبيعة الحرية الإنسانية. والبحث النفسي على وجه العموم عمل من نموذج ميكانيكي لعمل الإنسان، فمجموعة من القوى الاجتماعية والبيولوجية من المفترض أن تكون قادرة على تفسير كل شيء، وقد افتُرض أن المناقشة الوحيدة المتبقية تتعلق بالقدر المطلوب تواجده من كل منها. وعلم نفس المشورة كثيراً ما اتُهم بالخطأ العكسي - وهو أن يجعل الناس هم الذين يخلقون حريتهم ويشجعهم، على أن يعملوا ما يرونه، دون اعتبار للقيود الاجتماعية أو البيولوجية.

وجهة نظر الكتاب المقدس في الأشخاص تُنحي جانباً الخطأين المتناقضين، فهي تقول إننا "تراب"، وخلقنا "على صورة الله". وكوننا مخلوقين، بكل ما يتعلق بذلك من نواح بيولوجية وما يتضمنه من سمات اجتماعية، يعد أمراً رائعاً، وأن يأخذ ابن الله هذين البعدين يفسر ذلك بأنه وحده الذي يستطيع أن يفدي البشر. وفي ذات الوقت، لم يكن البشر "مجرد منتجات" أجادت بها الطبيعة والتربية، فهم يستطيعون بشكل جزئي أن يسموا على كلا البُعدين، وبهذا يكون لهم دور في تشكيل أنفسهم. ومع ذلك، فإنه من وجهة النظر الكتابية، فإن هذا الاستقلال الجزئي إنما يتعلق بالطبيعة والتربية فقط، وليس في العلاقة مع الله، الذي هو خالق بشريتنا واستقلاليتنا. وكما يقول الفيلسوف ستيفن إيفانز Stephan Evans :

إذا كان للأشخاص سمو أو استقلالية، فإن سموهم في حد ذاته هبة من الله، فالناس ليس لهم فضل في أية طبيعة فيهم. والحرية تحدها سيادة الله، ولا يمكن أن تتحقق إلا من خلال السر الذي فيه يسمح لخليقته بأن تنال استقلالاً محدوداً. على

الرغم من أن البشر قد يكون لديهم ما يقولونه من ناحية تشكيل مجرى حياتهم، فإنهم من وجهة نظر مسيحية، قاموا بهذا الدور بالحوار المتبادل، ليس مع أقرانهم من البشر فقط، بل ومع خالقهم.

الحرية وأدوار الذكورة والأنوثة :

وما سبق وقلته للتو عن بشريتنا وحريتنا لن يُدهش أي مسيحي على دراية بالكتاب المقدس (على الرغم من أن هذا قد يبدو غريباً، ما لم يكن هجوماً صريحاً على الاتجاه السائد بين علماء الاجتماع). أما المشكلة التي يواجهها المسيحيون فهي في تطبيق هذه الحقائق في حياتهم كنساء ورجال. لأنه حتى إذا كانت التربية يمكن أن تسمو على الطبيعة، وحتى لو كان بمقدورنا أحياناً أن نسمو عليهما كليهما، بممارسة حريتنا المعطاة من الله، فهل هذا ما يريده الله لنا ؟ هل هو يريد مملكة تشترك فيها خصال الذكورة والأنوثة معاً Androgynous، نعمل فيها لإزالة كل الفروق بين الرجال والنساء فيما عدا الفروق الأساسية الخاصة بالإنجاب ؟

قلت في الفصل السابق، وعلى أُسس كتابية، إن هناك ميولاً سلوكية متعلقة بالجنس، والتي إذ كانت من نتائج السقوط، فإن الله يريدنا التغلب عليها. وليس من قصد الله أن يحوّل الرجال السلطان إلى سيطرة، ولا أن تحوّل النساء الناحية الاجتماعية إلى شرك اجتماعي، بل أن يكون كلاهما صورة لله بأن يكونوا وكلاءً مسئولين عن الخليقة وأن يكونوا خداماً كل منهم للآخر. وأشرت أيضاً أنه في وقت الانتعاش الروحي يبدو المسيحيون أقل اهتماماً بالأسئلة التي تدور حول الأدوار "الصحيحة" للذكورة والأنوثة، سواء في الأنشطة الخاصة بالكنيسة أو في غيرها من الأنشطة. ولكن هذه لا تزال أبعد من أن تكون دعوة لقبول الخنوثة. وما يُعد مناسباً لأن يعمله الرجال والنساء أمر يختلف اختلافاً بيناً. بيد أنه لا يزال علينا

أن نجد ثقافة ليس فيها أدوار فاصلة للذكورة والأنوثة باستثناء الحد الأدنى اللازم لإنجاب الأطفال. فما الذي علينا أن نفهمه من ذلك ؟

أعتقد، وفي أفضل الحالات، وقبل أن تشوهها الخطية (وهذه بالطبع مؤهلات ضخمة) أن الاختراع المستمر للأدوار الخاصة بالذكورة والأنوثة، وإعادة اختراعها يُعد تعبيراً عن شعورنا القائم على أساس الخليقة وهو أن النساء والرجال يحتاجون كل منهم إلى الآخر. وهكذا نبحث عن سبل نعبر بها عن هذا الاحتياج. وفي إطار هذا المعنى، فإن ممارسة الأدوار التكميلية بين الذكورة والأنوثة، تشبه إلى حد كبير سراً مقدساً. وبنفس الطريقة التي تذكرنا بشركة ذبيحة المسيح، وبعضويتنا المشتركة كأعضاء حية خادمة في جسد الله، فإن حفظ أدوار الذكورة والأنوثة، والطقوس، تذكرنا بأن الرجال والنساء غير كاملين وهم بمعزل عن الآخر. غير أن الأسرار المقدسة، مثل أي شيء آخر في الحياة، يمكن أن يُساء استخدامها، ولنتذكر توبيخ بولس لبعض المسيحيين للطريقة التي حولوا بها وليمة الشركة في العيد إلى مباراة في الأكل والشرب، لم يُترك معها طعام بالمرة لأعضاء الكنيسة الفقراء، وهو ما كان لابد أن يكون تعبيراً عن الشكر لله، والتضامن فيما بين بعضنا البعض أصبح تمثيلية لاستعراض القوة (انظر ١كو١١: ١٧-٣٣).

فضلاً عن ذلك فإن استخدام الأسرار قد يصبح مجرد تمسك بالحرفية. وعوض أن تُرى كرموز مرنة لعلاقة أعمق سبق الله أن أقامها، من الممكن أن تصبح وسائل لأعمال البر ـ أنشطة نعتقد (أو أن أحداً أخبرنا) أنه "يتوجب" عملها لنُثبت استحقاقنا أو نكسب ميزة لدى الله والآخرين. وعندما تقوم أدوار الذكورة والأنوثة بهذه الوظيفة المشوهة، كما تفعل كلها في كثير من الأحوال، هنا سنتوقف عن تعزيز الشخصية المعطاة من الله لكل من النساء والرجال بل ونبدأ في خنقها. فكيف لنا إذاً أن نتبع سبيلاً كتابياً وسطاً ؟ فمن ناحية أشرت إلى أنه لو لم تكن

هناك أدوار للذكورة والأنوثة، لشعر الناس أنهم مضطرون نظراً للتبادلية التي رسمها الله بينهم إلى أن يخترعوا بعض هذه الأدوار. وعلى صعيد آخر، حين يستغرقون أكثر من اللازم في حياة من رسمهم، تتحول أدوار الذكورة والأنوثة إلى أقفاص لم يكن في نية الله إطلاقاً أن نُسجن فيها. فما الذي نعمله حيال هذا التناقض ؟

في محاولة للإجابة على هذا السؤال، وجدت أنه من المفيد أن أنظر إلى الحياة المسيحية كسلسلة من "الوظائف" أو المهن التي تعشش داخل بعضها البعض مثل الصناديق المتدرجة الصِغَر في لعبة طفل والمطلوب منه أن يُكدسها بعضها فوق بعض. والوظيفة الغالبة لكافة المسيحيين، سواء كانوا رجالاً أم نساء، هي وظيفة الخاطيء المفدي، الذي التزم ببناء ملكوت الله القائم على العدل والسلام كعضو في جسد المسيح. ومثل أكبر صندوق في لعبة التكديس، فإن هذه الوظيفة تتفوق على ما عداها. ففي داخلها تتكدس "صناديق وظائف" أخرى أصغر حجماً، والتي لها أيضاً أهميتها، ولكنها تتناقص أيضاً بالتدريج. أما وأننا نساء ورجال خُلقنا لنعبر عن تكميل بعضنا البعض، فهذا أمر هام، ولكنه ليس له الأهمية الكبرى، فأهداف الملكوت تفوقه. وأن الله قد دعا بعض الناس إلى الزواج فهذا أيضاً جزء من نظام الخليقة، فهذه وظيفة مسيحية هامة في إطار الوظيفة الأكبر الخاصة بتكامل وظائف الذكورة والأنوثة. غير أننا نعود ونقول، إنه ليست لها الأهمية الكبرى، فأهداف الملكوت تسمو عليها. وهذا هو السبب في أن بولس الرسول استطاع أن يؤكد صلاح الزواج، ولكنه مع ذلك امتدح دور العزوبة للحرية الأكبر التي تتيحها لعمل الملكوت (١كو٧: ٢٥-٣٩).

بل وحتى وظيفة الأب ما هي إلا "صندوق داخل صندوق"، ولا يغير من طبيعة الزواج أنه لم ينجب أطفالاً. بل ولا يعتمد وضعنا من ملكوت المسيح على "لياقتنا للإنجاب"، كما يحاول مشوهو العلوم الاجتماعية والبيولوجية إغراءنا على

اعتقاده. وحين أعلن بولس للغلاطيين أنه في المسيح "ليس يهودي ولا يوناني. ليس عبد ولا حر. ليس ذكر ولا أنثى" (غل٣: ٢٨)، كان بهذا يقدم أمثلة لإعلانه الأوسع على مستوى العالم (في ٢كو٥: ١٧-٢٠) بأنه إن كان "أحد" في المسيح، فهو "خليقة جديدة" تصالحت مع الله وأُعطيت "خدمة المصالحة كسفراء عن المسيح". وهنا نعود ونقول إن وظيفة البنّاء في الملكوت تفوق كل ما عداها من وظائف.

وهذه بالطبع حجة يمكن استخدامها بطريقتين. فإدراك أولوية بناء الملكوت يمكن أن ينجم عنه زعزعة في الأدوار المتكررة الخاصة بالذكورة والأنوثة في المجتمع المسيحي. ولكنها استُخدمت أيضاً كعُذر للحفاظ على الحالة الراهنة، وهذا ما حدث حين قِيل لبعض المسيحيين من المطالبين بالمساواة بين الجنسين : "حملتكم من أجل حقوق متساوية من المؤكد أنها أقل أهمية من أهداف ملكوت الله، ولذلك، عليكم بالهدوء من أجل خاطر الجميع". بيد أن مثل هذه الحجة، مهما كانت حسنة النية، تنسى أن ملكوت الله يتضمن استعادة السلام الذي كان عند بدء الخليقة بين الرجال والنساء، وكذلك إعلان خلاص الله في المسيح. وفيما أن معارضي المساواة بين الجنسين من المسيحيين يسرعون إلى افتراض أن اللغة المنمقة التي يستخدمها الداعون إلى المساواة بين الجنسين سوف "تُفسِّد" حديثي الإيمان، إلا أنهم أقل حساسية بالنسبة لحقيقة أن حركة الوضع الراهن الموجهة التي تقول بأن النساء أقل قدرة من الرجال في نواح كثيرة، سيكون من شأنها أيضاً أن تطفيء عدداً كبيراً آخر من حديثي الإيمان. وتقول عالِمة الاجتماع إيلين ستوركي إن الطالبات اللواتي صديقاتهن من الدينيويات المطالبات بالمساواة بين الجنسين، واللاتي بدأن تتصارعن مع إنجيل المسيح، كثيراً ما يسألنني : كيف لنا أن نصل بهؤلاء إلى إجابة شافية أمام المدافعين عن الرجال وتميزهم ؟ وهذا سؤال يستحق في الواقع أن يُطرح.

إنه دلالة على الخطية الخاصة بجيلنا، بأن جعلنا أولوياتنا مشوّهة إلى هـذا الحـد. وإذا كان جوهر الوثنية كما يقول بولس في رومية١، هو عبادة الخليقة بدلاً من الخـالق، هنا يجـب علـى الكثيرين منـا أن يعـترفوا بذنبهـم. لقـد جعلنـا مـن أدوار الذكـورة والأنوثة، أو الزواج أو الأبوة (وهي من الأدوار الطيبـة في وضعهـا الصحيـح الـذي خُلقت من أجله) أموراً على جانب من الأهمية حتى إن الدعـوة العظمـى للكـرازة بالإنجيل ونشر ملكوت العدل تاهت بسهولة في عملية الخلط هـذه. وفيمـا نواصـل فحصنا موضوع أدوار الذكورة والأنوثة والجنس، فإننا نحسن صنعـاً إذا مـا تذكرنـا أي صندوق يضم كل الأمور الأخرى.

الباب الثاني

الطبيعة والتنشئة ويشمل :

٤ – الجينات والجنس (من حيث الذكورة والأنوثة)

٥– الهرمونات والعالم

٦ – الطبيعة والثقافة والنعمة المشتركة

الفصل الرابع:

الجينات والجنس
(من حيث الذكورة والأنوثة)

الفصول الثلاثة الأولى من هذا الكتاب قرَّبت القراء للموضوعات الرئيسية التي تؤثّر في المفهوم المسيحي للجنس من حيث الذكورة والأنوثة. وقد عرفنا أن إعلان الله الخاص في الكتاب المقدس يتضمن القصة الأساسية للخلق، والسقوط، والفداء، والتجديد، والتي اشترك فيها الرجال والنساء. كما عرفنا أيضاً أن احترامنا لهذا الإعلان الخاص لا يعني بأي حال بأنه لا يجب علينا أن نتعلم أي تفاصيل أخرى عن الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة من إعلان الله العام، والذي تبين جزئياً من خلال الدراسة العلمية الدقيقة.

غير أنه بالنظر إلى أن العلماء ليسوا متحررين من الإيدلوجية (على سبيل المثال، المذهب المادي، ومذهب الجبرية، وهما من المذاهب الشائعة في الاتجاه السائد في العلم، وكذلك علم الاجتماع) فنحن في حاجة أيضاً لاستخدام فهمنا للكتاب المقدس، للحكم على النظريات العلمية المتعلقة بالجنس وأدوار الذكورة والأنوثة. وعلى سبيل المثال، فإن النظريات التي تنكر المسئولية الأخلاقية سواء بالنسبة للرجال أوالنساء، مهما كانت على حق بالنسبة لتفاصيل أخرى، من المؤكد أنها غير كافية من وجهة نظر مسيحية عالمية.

في الفصل السابق عرضت ثلاث نقاط كي نتذكرها أثناء قراءة بقية الكتاب.

أولاً : التشابهات بين الرجال والنساء أكثر من الاختلافات، سواء من الناحية البيولوجية أو السيكلوجية. **ثانياً** : على الرغم من أن علم الأحياء له حدود فيما يمكن أن نتعلمه منه. ولكن التعليم يؤثر أيضاً في نواحينا البيولوجية بما في ذلك جوانبها المتعلقة بالجنس. **ثالثاً** : ليس بوسعنا أن نجمع آلياً بين الطبيعة والتنشئة كوسيلة للهروب من المسئولية الملقاة على عاتقنا بالنسبة لسلوكنا، سواء كنساء أو كرجال. وقد جادلت أيضاً بأنه يمكن أن يكون هناك دور صحي، ودور غير صحي للدور التكميلي بين الذكورة والأنوثة، والمعايير بالنسبة للدور الصحي للمسيحيين جاءت من فهمنا لما يعنيه القيام بنشر ملكوت الله على الأرض.

إعطاء علم الأحياء حقه :

في هذا الباب الثاني من الكتاب سنفحص بتفاصيل أكثر بعض المجادلات الشائعة حول موضوع الطبيعة / التنشئة بحسب تطبيقه على النساء والرجال. ولسوف نفحص حُججاً تتناول تأثير الجينات، الهرمونات، تركيب المخ، والثقافة، وذلك في الفصول من الرابع حتى السادس على التوالي. وعلى الرغم من أن استنتاجنا المتكرر سينتهي إلى أن الطبيعة تساهم في سلوك الذكور والإناث بأقل مما هو شائع، فإنني أريد أن أقدم وأصف هذه الفصول الثلاثة بأن أقر ـ حقيقة هامة ـ على الرغم من أن المسيحيين كثيراً ما ينسون ـ وهو أن حدودنا الجسدية ـ بما في ذلك ذكورتنا وأنوثتنا ـ أُعطيت لنا كوسيلة نُنَمي بها عطية صورة الله. فهي الصيغ التي في إطارها نمارس حريات الإبداع، السيادة، النواحي الاجتماعية، الخيار الأخلاقي، وثمار الروح القدس. ومع بقية الخليقة، وصف الله هذه الأشكال الجسدية بعبارة "حسن جداً". وعلى الرغم من السقوط، ظلت حسنة جداً. ويخبرنا الكتاب المقدس أنه في حياة القيامة الآتية، لن نُحرر من الأجساد، بل بالأحرى

سيكون لنا أجساد "ممجدة". و لم نُخبر بالتفصيل ما الذي يعنيه هذا (على الرغم من أني تأملت في هذا بشيء من التفصيل في الفصل الحادي عشر)، غير أن هـذا معنـاه على الأقل أن أجسادنا، ذكوراً وإناثاً، ستختبر ثانية كل ما كانت تعنيه عند الخلـق، حيث تُبعَد التشويهات التي نجمت عن السقوط بشكل تام ونهائي.

وسبق أن عرفنـا أن مـن بـين هـذه التشـويهات ميـل الرجـل والنسـاء إلى أن يكونوا خصوماً كل بالنسبة للآخر. وإذ خُلقنا اجتمـاعيين نملـك تكويننـا الجنسـي، نشعر أنه ليس بمقدورنا الحياة كل واحد دون الآخر. وإذ سقطنا، وحملنا عبئاً كمـا في تكوين٣: ١٦، ومن ثَم كثـيراً مـا نجـد أننـا أيضـاً لا تسـتطيع أن نعيـش معـاً في سلام. ونتيجـة لذلـك، كثـيراً مـا نحـوِّل "الاختلافـات" إلى "نقـائص"، وتبـع ذلـك منافسة مقيتة نعتقد أن طرفاً واحداً فقط يستطيع أن يربحهـا. وعلـى نحـو نموذجـي، فإن السمات والعادات المرتبطة بالذكورة، حُكم بأنها "أفضل" أو "أكـثر إنسـانية"، في حين أن ما هو مؤنث أُعلِن أنه "في مرتبة ثانية"، بل وحتى "ليس إنسـانياً تمامـاً". ولكن لئلا نحسب أن الذكور يحتكـرون تمامـاً التعبيرات الـتي "تغـالي في الرجولـة"، يتعين عليّ أن أُشـير إلى أنـه في التـاريخ القريـب أكـد النسـاء حقهـن في التصويـت والحقوق الأخرى بافتراض أنهن في الواقع الجنس الأسمى. وجادلوا قائلين، إن النساء أقل عنفاً من الرجال، وأنهم أقل ميلاً إلى إدمان المسكرات والعلاقات الجنسـية غـير المشروعة، أو أنهن أكثر اهتماماً بخير الأطفال والمسـنين. وهكـذا، فقـد وصلـوا إلى النتيجة أن انضمامهن إلى الحكومة سوف يروض الميول الوحشـية للحكـام الذكـور الذين حتى الآن، أداروا المجتمع بنجاح مشكوك فيه.

وبالنظر إلى أننا كثيراً جداً ما نحوِّل الاختلافات إلى نقـائص، ثـم نضـمّ هـذه النقائص في نظرياتنا البيولوجية عن الرجال والنساء، اخترت في الفصـل الثـالث، أن أوضح كيف أن الرجال والنساء متشابهون من الناحية البيولوجية، وكيف أن تعبـير

الميول البيولوجية يتشكل بما نتعلمه وبالقرارات المسئولة التي نتخذها. وإذ فعلنا هذا، فإني أود أيضاً أن أُعطي علم الأحياء حقه. لأنه فيما أن علم الأحياء لا يُحدد على وجه قاطع كل تفاصيل سلوكنا، إلا أنه من العدل أن نقول وبصفة عامة أنه في حالة وجود اختلافات فردية فإنه يمكن أن يبين الفروق في هذه السلوكيات. غير أنه قبل أن نعرف كيف سيتم ذلك، نريد مزيداً من الوضوح عن علاقة علم الأحياء والتعلم بمسئولية الإنسان.

الجينات : تراث معقد.

في مناقشاتنا حول مساهمة الطُبيعة أو التنشئة في السلوك الإنساني، نذكر أن المصلحين الاجتماعيين عادة ما يميلون بقوة إلى جانب التنشئة. ذلك لأنهم يرون بعض النماذج الاجتماعية المعينة على أنها خاطئة (على سبيل المثال: التحيز العنصري، والذين يرون أن النساء أقل درجة من الرجال في معظم الميادين)، وهم يريدون أن يكونوا قادرين على القول إن هذه النماذج السلوكية تكتسب في معظمها بالتعلم، ولا تورَّث عن طريق الجينات، وعلى هذا يمكن تغييرها بإعادة التعليم. والافتراض الكامن وراء ذلك يبدو أنه يقوم على أساس أن السلوكيات القائمة على أساس مكوِّن جيني قوي "يجب التسليم بها" إلى حد ما، في حين أن السلوكيات التي تأتي وليدة التعلم من السهل تغييرها. ولكني كمسيحية تهتم أيضاً بالإصلاح الاجتماعي، فإني أقول إن هذا نهج مُفرط في التبسيط.

وفي المقام الأول، فإنه حتى إذا كان هناك ضعف (أو قوة) لها أساس جيني، فإن هذا لا يعفي صاحبه من مسئولية تصرفه. على سبيل المثال فإن الهيموفيليا (النزف الدموي، نتيجة نقص في آلية تجلط الدم في الجسم) يتم وراثته بيولوجياً عن طريق جين مرتبط بالجنس. ولكن إذا شُخصت على أنه عندك نزعة وراثية إلى النزف الدموي، فأنت مسئول عن أخذ العلاج الطبي المناسب، وألاّ تلعب

بسكاكين حادة، وربما يجب الحصول على مشورة اخصائي الجينات قبل التفكير في حمل الأطفال، وبصفة عامة تعرف أكبر قدر ممكن من المعلومات عن هذه الحالة. ثانياً: الموضوع ليس موضوع أن ما "يُتعلم" يمكن تغييره دائماً وبسهولة. فهناك سلوكيات مُعينة، تُكتسب أثناء فترات حاسمة من النمو (مثل المهارات في اللغة، الارتباطات العاطفية القوية، أو حتى هوية الجنس) ستكون مقاومة جداً للتغيير بعد ذلك، حتى لو رغب الشخص بإخلاص في مثل هذا التغيير، ورآه أنه أمر صحيح من الناحية الأخلاقية. وعلى سبيل المثال، فإنه من المحتمل، حتى كشخص بالغ أن أتعلم كيف أتكلم وأكتب باللغة الصينية. إلا أنه من غير المحتمل وبدرجة كبيرة هو أن يكون بمقدوري أن أتكلم مثل الناطقين بها، مهما كان قدر تحفيزي على ذلك. (بعد ذلك، في الفصل الحادي عشر، نجد نفس الشيء قد ينطبق على اكتساب هوية ذكورة أو أنوثة).

وعلى هذا، فإنه من المهم أن نعرف أن مسئولية الإنسان تتفاعل مع الطبيعة والتنشئة في طرق معقدة. بيد أننا في حاجة أيضاً إلى الإقرار بالتحميل العاطفي الكامن في نفس فكرة التوارث الجيني. وتذكر عالمة الأحياء آن فوستو ـ سترلنج Ann Fausto أن الجينات لها كيان خاص بها، لأنه على الرغم من أن جسدي سينتهي يوماً من هذا العالم الفاني، إلا أن جزءاً مني سيبقى ويمرر نفسه لأجيال لم تولد بعد . وإذا اتضح أن أطفالي أذكياء أو ناجحون، فخير وبركة، أستطيع أن أدّعي بأن نصف الفضل يرجع لي، لأن نصف جيناتهم جاءت مني . ومن الطبيعي أن هذه الحجة لها حسناتها وسيآتها : فإذا كنا سننظر إلى جيناتنا على أنها تحمل فضائل معينة، فيتوجب أن نعترف أيضاً أنها يمكن أن تحملنا على الميل إلى خطايا معينة. وإذا كنا سندّعي مميزات للذكورة والأنوثة على أساس جيناتنا المرتبطة بالجنس، هنا أيضاً سنضطر إلى أخذ الرديئ مع الطيب .غير أن الأهم من ذلك

كله، أن نعترف بأن تأثير الجينات على سلوك الرجال والنساء مُعقد للغاية بحيث لا يسمح بالاستنتاجات المُبسطة سواء عن "الطيب ضد الرديء"، أو "المؤنث ضد المذكر".

ومن الدراسات الجينية المتعلقة بالجنس، هناك موضوعان يتكرر الاهتمام بهما. الأول يتعلق بالأعداد غير العادية لكروموزومات الجنس، والثاني باحتمال أن هناك سمات سلوكية معينة قد تكون مرتبطة بالجنس حتى في الأفراد ذوي الكروموزومات العادية. لنتأمل هذين الموضوعين كل على حدة.

شذوذ كروموزومات الجنس :

سيتذكر معظم القراء من دراستهم لعلم الأحياء وهم في المدرسة الثانوية أن الإنسان له في العادة ثلاثة وعشرون زوجاً من الكروموزومات في كل خلية في الجسم. اثنان وعشرون زوجاً منها تُسمى "أوتوسومات Autosomes"، لأن في هذه كل كروموزوم له نفس وشكل رفيقه. أما الزوج الثالث والعشرين من هذه الكروموزومات، فلكونه مرتبط بنمو الجنس البيولوجي، فكثيراً ما يُطلق عليه "كروموزومات الجنس". وفي الإناث، تظهر هذه تحت المجهر كأشكال متشابهة، كل منها يبدو تقريباً مثل حرف X (ومن هنا سميت إكس إكس كروموزومات). أما في الذكور، فالزوج ليس متشابهاً، فأحد الكروموزومات يشبه الحرف X، والآخر أحياناً يشبه الحرف Y (ومن هنا سميت إكس واي كروموزومات).

والقول بأن كل الكروموزومات الستة والأربعين موجودة في كل خلية جسدية ليس له سوى إستثناء واحد ـ حين تُنتج الخلية الجنسية الناضجة (بويضة في مبيض الأنثى، وسائل منوي في خصية الذكر) ينشق الزوج الكروموزولي. ويمكنك أن تدرك لماذا يكون هذا أمراً ضرورياً. وبالنظر إلى أن هناك بويضة وحيواناً منوياً

يتحدان ليصنعا شخصاً جديداً، كان لابد من وجود وسيلة لحفظ عدد الكروموزومات من التضاعف كل جيل. إذ جُعل الحيوان المنوي للأب يساهم بثلاثة وعشرين كروموزوماً فردياً، وبويضة الأم بنفس العدد، فإن الطفل الناجم عن ذلك، إذا كان طبيعياً، يكون له العدد الكلي المعتاد وهو ٤٦، بما في ذلك زوجاً من كروموزوم الجنس. وفضلاً عن ذلك، فإن خلط كروموزومات من أشخاص ليست بينهم صلة قرابة عادة ما ينجم عنه نسلاً قوياً من الناحية الصحية.

وجنس الطفل يُحدَّد بيولوجياً بالجمع بين الكروموزومات الجنسية التي تكون موجودة في الحيوان المنوي والبويضة التي تحتوي على عضو واحد من زوج xx المنشق، من الواضح أنها لا يمكن أن تحتوي إلاّ على واحد أو الآخر من هذه الكروموزومات. غير أن الحيوان المنوي، الذي يحتوي على واحد أو الآخر من الزوج xx المنشق، له فرصة مساوية في أن يحمل كروموزوم الجنس X، أو كروموزوم الجنس Y. وهكذا فإذا أخصب حيوان منوي يحمل X البويضة سينجم عن ذلك طفل أنثى يحمل مجموعة كروموزومات الجنس XX . وإذا أخصب حيوان منوي يحمل Y ببويضة تحمل X، فالنتيجة ستكون طفلاً ذكراً يحمل مجموعة كروموزومات الجنس XY .

كثير جداً من شيء طيب ؟

هذا هو النموذج المعتاد لوراثة صفات الجنس. غير أن الحالات الشاذة قد تحدث أحياناً : فقد ينقص كروموزوم من أحد الأزواج الثلاثة والعشرين، وقد يوجد كروموزوم إضافي، فيحوّل أحد الأزواج إلى ثلاثي. في(متلازمة داون المغولانية Down Syndrome) وبالنسبة للأطفال على سبيل المثال، هناك كروموزوم إضافي مع الواحد والعشرين زوجاً. وحيث أن هؤلاء الأشخاص قد وُهِنوا بدنياً وذهنياً يجب أن تبعد أية فكرة بأن إضافة أحد الكروموزومات سيعني تلقائياً

كروموزومات جنس بطريقة شاذة يُسمى اختصاراً "SCAs" توجد إناث تحملن كروموزوماً زائداً، أو كروموزوماً ناقصاً من كروموزومات X (XXX أو XO)، وذكور لديها كروموزوم X أو Y إضافياً (XXY أو XYY) وكل الأشخاص الذين يحملون كروموزوماً جنسياً بطريقة شاذة (SCA) من المحتمل أن تواجههم مشاكل في مهارات الكلام ومن حيث المكان. وعلى الرغم من أن هذه تُعد هينة بالمقارنة مع الإعاقة الناجمة عن متلازمة داون المغولانية Down Syndrome، ويمكن في كثير من الأحيان التغلب عليها بمزيد من التدريب. وفضلاً عن ذلك فإن النساء XO والرجال XXY لايستطيعون أن ينجبوا أطفالاً، بالنظر إلى أنه لا المبيضين ولا الخصيتين يتطوران أثناء الفترة الحاسمة قبل الولادة.

وحين اكتُشفت مثل هذه الحالات الشاذة سنة ١٩٥٦، كان هناك كلام كثير حول "الذكورة المفرطة" والعدوانية المفرطة للذكور الحاملين للكروموزومات XYY، وجرت محاولات غير ناجحة لتُبين أن لديهم مستويات من منشطات الذكورة "الاندروجينات" أكثر مما هو الحال بالنسبة للذكور العاديين. وعلى النقيض من ذلك، كانت هناك محاولات (غير ناجحة أيضاً) للربط بين وجود كرموزوم أنثوي زائد بالقدرة الإدراكية الواهنة.

ومع ذلك، فالحقيقة أكثر تعقيداً. وبحسب أقوال إحدى مجموعات العلماء وجود كروموزوم إضافي ينجم عنه تأثيرات تُعد بمثابة عوامل إضافة أو طرح بالنسبة لبرنامج تنمية عادي. ومثل هذا الوجود يُربك عمل البرنامج كله. ومثل Down's Syndrome (متلازمة داون المغولانية) يبين هذا، بالنظر إلى أنه يتضمن مجموعة من العيوب الذهنية والحركية والبدنية، بل وفي بعض الأحيان بعض الملامح الإيجابية مثل النزعة المرحة المحبة. على غرار ذلك، فالأولاد الذين لديهم كروموزوم "Y" زائد ،

أو كروموزوم "X"، يميلون إلى أن يكونوا أكثر من الذكور العاديين طولاً واندفاعاً وبطئاً في اكتساب عادة السيطرة على النفس، وهذا اكتشاف من المؤكد أنه يناقض الافتراض الساذج بأن "الجرعة الزائدة من الذكورة" لا تتأتى إلا مع كروموزوم ذكري إضافي. وفي حالة Turner's Syndrome (النساء اللواتي ليس لديهن سوى كروموزوم X واحد فقط) فالنتائج على نفس القدر من التعقيد. فمن الممكن أن تتضمن إلى جانب عدم وجود المبيضين، رقبة عريضة، قصر غير عادي في طول الكبار، نمو غير كامل للسمات الجنسية الثانوية (على الرغم من أنه ليس لديهن سوى نصف العدد المعتاد من الكروموزومات الجنسية المؤنثة) أن يكون لهم اهتمامات أنثوية نمطية، الأمر الذي ينجم عنه أن الكثيرات يصبحن ربات بيوت، وأمهات متبنيات ناجحات.

وهكذا فإن الشذوذ المتعلق بالكروموزومات، سواء كان مرتبطاً بالجنس أم لا، يؤثّر بلا شك في الجسم، وقد يجعل بعض السلوكيات أكثر أو أقل احتمالاً. إلا أن هذه التأثيرات مُعقدة بحيث لا يمكن وصفها في إطار الأنماط البسيطة لأدوار الذكورة والأنوثة. وحقيقة أن بعض العلماء والصحفيين (ويؤسفني أن أقول بعض المسيحيين) يحاولون أن يفرضوا مثل هذه الارتباطات البسيطة ما هي إلا لتذكيرنا بقوة أن ما يريد الناس أن يؤمنوا به يُلوِّن ما يعتبر رأياً موضوعياً.

الجينات المرتبطة بالجنس وسلوكيات أدوار الذكورة والأنوثة :

إلى هنا كنا نناقش كروموزومات الجنس ونتائج القليل جداً، أوالكثير جداً منها. غير أن كل واحد من الكروموزومات الستة والأربعين يحتوي على ثروة من المعلومات الجينية شفّرت في كلمة DNA. وفصول علم الأحياء في المدرسة الثانوية تُعلمنا في العادة أبسط أنواع المورثات الجينية ـ النوع المرتبط بلون العين، على سبيل المثال. ونتعلم أنه توجد حالات سائدة وحالات متنحية، تعبر عن صفة وراثية ناشئة

من جين واحد، وبالنسبة للون العين فإن العيون البنية (B) هي السائدة على الزرقاء (b). وعلى هذا، فإذا ساهم الأب والأم بـ (B) متنحية، فإن الزوج BB سينجم عنه أن تكون عين الطفل بنية اللون. فإذا كان إسهام أحد الوالدين (B) والآخر (ab)، فتظل النتيجة عيون بنية اللون، لأن البني (B) يسيطر أو يغطي الأزرق (b). وفي حالة وراثة الطفل (b) أزرق من كل من الوالدين فإن المجموعة (bb) الناجمة ستعطي الطفل عينين زرقاوين.

ونعرف أيضاً من هذا النموذج إنه إذا وجد أبوان ذا عينين بنيّتين يمكن أن ينجبا طفلاً ذا عينين زرقاوين (وهذا ما حدث بالنسبة لزوجي وأنا) فإذا كان كل والد يحمل (b) متنح الخاص بالعيون الزرقاء مع (B) مسيطر الخاص باللون البني، فإن البيضة والمنى المنشق كروموزومياً قد يحملان إما (b) أو (B)، وفي حالة من كل أربع حالات ترتبط بيضة (b) مع منى (b). الأمر الذي يعطي الطفل عينين زرقاوين. لكن الجينات الخاصة بلون العين (ومعظم السمات الأخرى) تُحمل في واحد من الكروموزومات المكونة من الاثنين والعشرين "زوجاً" والتي لا علاقة لها بالجنس. أما الزوج الثالث والعشرون (XX أو XY)، فضلاً عن تحديد الجنس من الناحية البيولوجية، فإنه يحمل كثيراً من المعلومات الجينية الأخرى، غالبيتها عن كروموزومات X. وبالنظر إلى طبيعة الزوج الذكري (XY) والتي لا مثيل لها، فإن نقل السمات المرتبطة بهذه الجينات (التي تدعى "النقل المرتبط بالجنس" لأن الجينات تتضمن التوافق مع كروموزوم الجنس) تختلف عن الحالة الأبسط المتعلقة بتلوين العيون.

كيف يعمل النقل المرتبط بالجنس :

النزعة الوراثية إلى النزف الدموي (هيموفيليا)، وهي تشكل مرضاً لا يتجلط فيه الدم بطريقة عادية، له خاصية النقل المرتبط بالجنس. والجين الحاسم المتغير لا

يتواجد إلا في كروموزوم X (وكما ذكرنا فالكروموزوم موجود في أزواج الكروموزومات الذكرية والأنثوية). وبالنظر إلى أن جين الهيموفيليا متنح (لنشر إلى ذلك بالحرف h للاختصار، والجين المخلط للدم بشكل عادي H)، فإذا ما ظهر فقط في كروموزوم واحد من الزوج الأنثوي XX - في نموذج Hh (متنح ومخلط للدم)، فمعنى هذا، أنه سيعمل مثل نموذج Bb (بني، أزرق) بالنسبة للون العين. وبعبارة أخرى، لن يكون له تأثير على الإطلاق، وآلية تخليط الدم في المرأة ستكون عادية. وفي الحالات النادرة فقط حين تحصل إمرأة على h (متنح) من كروموزوم X الخاص بأمها، وكذلك (h متنح) من كروموزوم أبيها X، سوف تصاب هي بنزعة وراثية لنزف الدم (هيموفيليا).

بيد أن الرجل ليس محظوظاً إلى هذه الدرجة. ذلك أن الجين h (المتنحي) لا يمكن أن يظهر في كروموزوم X الخاص به، ولا يمكن تغطيته أو السيطرة عليه بكروموزوم H (المخلط للدم) المناظر لكروموزوم Y الخاص به، فهو لا يحتاج سوى أن يرث جين h على كروموزوم X الذي أخذه عن أمه (والتي ربما كانت قد ورثت كروموزوم X الحامل للجنين h عن أمها أوأبيها) لكي يظهر عليه المرض. وفضلاً عن ذلك، فالأم عادة ما تحمل جين h (المتنحي) دون أن تدري حيث يكون مُغطى عادة بجين H (بمخلط الدم) مع كروموزوم X الآخر الخاص بها، وبذلك لا تكون هي مصابة للنزعة الوراثية لنزف الدم. وهذا هو السبب في أن هذا المرض يظهر في الرجال بأكثر كثيراً من ظهوره في النساء. وهذا هو أيضاً السبب في أن الأزواج الذين يُوجد مرض نزف الدم في أي من عائلتيهما يكون من الحكمة عمل فحص جيني لتحديد مخاطر نقل الإصابة إلى أطفالهما.

وبالنظر إلى أن نتائجه واضحة جداً، ونموذج نقله معروف تماماً، فإن طبيعة مرض الهيموفيليا (نزف الدم) من السهل الاتفاق بشأنه. والحالات الأخرى

المرتبطه بالجنس، مثل عمى الألوان، هي أيضا ليست موضع جدال. ولكن حين نكون أمام نظريات حول طبيعة السمات السيكلوجية المرتبطة بالجنس، مثل الذكاء والقدرة المكانية Spatial ability تزداد الصورة غموضاً. وهذا مرده، أولاً: هناك جدل كبير بين علماء النفس فيما يختص بالطبيعة الحقيقية لهذه السمات، وأفضل الطرق لقياسها. ثانياً: من وجهة نظر علماء الجينات، فإن السمات التي تمثل الذكاء والقدرة المنطقية والإدراكية (وهي التي يوضحها علماء النفس على أنها القدرة على التعرف على الاتجاهات، والقدرة على التنظيم وترتيب المعلومات والقدرة على التعامل مع الأرقام ذهنياً). هي سمات معقدة للغاية حتى إنه من غير المحتمل أن يتم التحكم فيها بواسطة زوج منفرد من الجينات، ناهيك عن جينات لا ترتبط إلا بكروموزوم X جين يُربط بـ X، لغرض علمي :

هذه المشاكل لم تمنع بعض الناس من تقديم نظرية تقول بأن هناك مهارات تفكير معينة، أو نواحي منها، مرتبطة بالجنس بنفس الطريقة التي ترتبط به الهيموفيليا (نزف الدم) أو عمى الألوان، وعلى هذا فمن المحتمل جداً أن تظهر في الرجال بأكثر مما تظهر في النساء (هذه المرة بالطبع لصالح الرجال). وفي مطلع القرن، لاحظ اثنان من علماء النفس الأمريكيين الرواد هما : إدوارد ثورندايك Edward Thorndike، وجيمس كاتل James Cattell، ما يبدو أنه نموذج محير : عدد من الرجال أكبر من عدد النساء شُخصوا بأنهم يعانون اعتلالاً ذهنياً، غير أنه في ذات الوقت وُجد عدد منهم أصبحوا علماء بارزين. وهذا العدد يفوق بكثير عدد من أصبحوا هكذا من النساء. ويوجد الآن تفسير اجتماعي مقبول لكل من هذين النموذجين. فمعدلات الإعاقة العقلية كانت في الغالب تقيّم فقط على أساس أشخاص في المؤسسات، ومن المحتمل أن يكون الآباء قد احتفظوا في البيت بالبنات المتخلفات ذهنياً و لم يتصرفوا هكذا بالنسبة للأبناء الذين يعانون من نفس المرض،

وهكذا أثرّوا في التحليل الجنسي للأشخاص المعوقين ذهنياً. أما بالنسبة لقـدرة عـدد العلماء البارزين من النساء، فهناك العديد من العوامل الاجتماعية، بدءاً مـن التمييز البسيط بين الجنسين إلى نتيجة عدم تنظيم الحمل، الأمر الـذي منـع الكثيرات حتى من ألمع النساء من الدخول (ناهيك عن الامتياز) في "كل" المهن حتى عهد قريب.

غـير أن مـاك كـين Mckeen، وكـاتيل Cattell، ومنـذ عهـد أقـرب العـالمين النفسيين روبرت ليرك، روبرت ستافورد، اختاروا أن يقدموا تفسيراً بيولوجياً بديـلاً لحقيقة أن الرجال يبذون النساء في قوائم "الضعفاء" و"الموهوبـين" في مجـال الإنجـاز البشري. وأشاروا إلى أنه لابد وأن يكون هنـاك رابـط نقـل X "للسـمات الرئيسـية للذكاء (بما في ذلك القدرة المنطقية والإدراكية) والتي اعتقدوا أنها من سمـات أكـثر العلماء موهبة وإنتاجية. ونبين هنا كيف جاء هذا التفسير. تذكر أن جين الهيموفيليا المرتبط بـ X، والتي رُبط بينها وبين مرض الهيموفيليـا (نـزف الـدم) لا توجـد إلا في حـالتين فقـط H بالنسبة لآليـة التجلـط العـادي، h (المتنحـى) لحالـة عـدم التجلـط (النزيف الدموي). ومع ذلك ففي نظرية ليرك، فالجين المرتبط X "للذكاء" (وهو في نظرية استافورد جين خاص "بالقدرة المنطقية" بتحديد أكثر) قد يوجـد فيمـا يصـل إلى ست حالات متدرجة، تتراوح من حالات منخفضة إلى حالات عاليـة. ويوافـق علماء الجينات على أنه إذا كـانت هـذه النوعيـة مـن السـمة المتدرجـة تحـدث في الجينات العادية، فإن الجين المحمول على كروموزوم واحد سوف يتهادن أو يتعـادل مع ذاك المحمول على الكروموزوم الآخر في هذا الزوج من الكروموزومات. وهـذا بالطبع يختلف عن النقل البسيط، الكل أو لا شيء للون العين، وهو يشبه بالأكثر ما يحدث حينما يتزوج أشخاص ذوو ألوان جلد مختلفة وينجبـون أولاداً لـون جلدهـم يكون وسطاً بين لون جلد الأب ولون جلد الأم.

وطبقاً لهذه النظرية، فإن المرأة التي لديها جين لقدرة منطقية عالية على أحد كروموزومات X، وآخر لقدرة منخفضة على الجين الآخر، سينتهي الأمر ـ حين تتعادل الجينتان ـ بمهارات مكانية متوسطة المدى. ولكن لنتأمل الآن حالة رجل ليس لديه سوى كروموزوم X واحد، جينه المرتبط بالجنس لا يمكن تغطيته أو تعادله مع جين مماثل مع كروموزوم Y الخاص به (تماماً مثل حالة الهيموفيليا). وهكذا فإنه إذا كان لديه جين خاص بقدرة مكانية عالية على كروموزوم X الخاص به، فلسوف يظهر دون ضعف، لكن سيكون الحال هكذا بالنسبة للجين الخاص بقدرة منطقية منخفضة، إذا كان لديه ذلك الجين بدلاً منه. وبعبارة أخرى، بالنظر إلى أن القدرة بحالتيها (العالية والضعيفة) تتطلب الاتحاد العفوي لجينين مرتبطين ب X في النساء (عال ـ عال، أو منخفض ـ منخفض). فيما أن نفس الحالتين ستنجمان من جين واحد مرتبط بـX في الرجال، فإن النظرية تفسر نتائج الأبحاث: رجال أكثر من النساء بدرجات عالية أو منخفضة، ونساء متميزين أكثر من الرجال تجمعوا في المدى المتوسط للدرجات.

ليس بهذه البساطة :

وهذه النظرية، بحسب الظاهر، تبدو رائعة مقبولة. إلا أنها تتضمن عدداً من العيوب الخطيرة. وأولها ـ وهو ما أشرت إليه سابقاً ـ إنها لا تعني شيئاً إذ تتحدث عن جينات معينة لسمات مثل الذكاء والقدرة المنطقية، وهي سمات كان تعريفها دائماً غير واضح وموضع جدل كبير. وهي في الواقع تعطي نفس المعنى الذي تعطيه فرضية وجود جين للعقيدة. وأي تعريف للديانة ذاك الذي نستعمله، ولماذا ؟ وكيف لنا أن نقيس التقوى والورع ؟ وما الذي يشترك فيه الشخص الذي يمارس أكل لحوم البشر كطقس ديني مع الشخص الذي يستمع لعظة ثلاثية النقط كل أحد ؟ وألا نستطيع أن "نثبت" أن التقوى كانت أيضاً مرتبطة بالجنس ؟ وعلى أي حال

فإن عدد النســاء أكـثر مـن عـدد الرجـال في الصفـوف المتوسـطة لمـن يذهبـون إلى الكنائس، ورجال أكثر من النساء يسخرون من الدين (هذه حالة)، ولكنهم يرتقون أعلى الوظائف الدينية (الحالة الأخرى المقابلة). ومن المؤكد إذاً، أن التقوى يجب أن تكون مرتبطة بالجنس بنفس الطريقة الـتي ادعاهـا البـاحثون السـابق الإشـارة إليهـم بالنسبة "للقدرة الذهنية" و"القدرة المنطقية". ولكن ضعف افتراض الجينات المرتبطـة ب (X) للقدرات الذهنية يصبح أكثر وضوحاً حين نقوم بهذه المقارنة.

وتوجد مشكلة ثانية خاصة بنظريات القدرة المرتبطة بـ X، وهي أنه حتى مع سمة سلوكية يتفق العلماء علـى تحديدهـا، لا توجـد طريقـة لقيـاس مُكونهـا الجيـي الخالص بمعزل عن تأثيرات البيئة. ولنتذكر النقطة الـتي ذكرناهـا في الفصـل الأول : لأننا ننمو في ظل تأثير جينـات والدينـا، وفي ذات الوقـت في ظـل تأثـير تدريبهمـا، والنتائج الخالصة لهاتين الناحيتين يكاد يكون من المستحيل الفصل بينهما.

ويكون من الأفضل أن نرى صعوبة الفصل بين نتائج الوراثـة وتلـك المتعلقـة بالبيئة إذا أخذنا مثال السمنة وهو الأقل جدلاً. فالأطباء بوجـه عـام يتفقـون حـول نسبة الدهن إلى العظم والعضلات الـتي تُعـد صحيـة بالنسبة للرجـال والنسـاء مـن أطوال مختلفة. ولكن عندمـا نقـول عـن مجموعـة مـن النـاس إن "السـمنة شـائعة في عائلتهم" فما الذي نعنيه بهذا ؟ معنـاه أننـا نعتقـد أنهـم يتشـاركون في جـين سـائد يحملهم على الإفراط في الأكل، أو جين ضعيف بالنسبة لـــ (التمثيـل الغذائـي) ؟ أم نعني أن الوالدين تعلّما عادات غذائية سيئة ثم نقلاها لأولادهم، الذيـن انتهـى بهـم الأمر إلى أن يصابوا بالسمنة مثل والديهم ؟ أم نشك في أن الأمر يجمع بين الحـالتين ـ بأنه قد تكون هناك نزعة جينية، غير أن نتائجهـا تضخمـت بالعـادات المكتسـبة ؟ وإذا كانت الحالة الثانية هي الصحيحة، كيف يمكننا فصل النسبة المئويـة للمسـاهمة

الجينية مقابل العوامل الاجتماعية، لأن كل ما سيكون أمامنا هو النتيجة النهائية لعملهما معاً ؟

وحتى الإجابات الأكثر تعقيداً ممكنة ـ وفي دراسة متابعة موسّعة للأطفال الذين وُلدوا لنساء كن حاملات إبان السنة الصعبة التي شهدت المجاعة الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية، تبين أن جوع الأم إبان الشهور الستة الأولى من الحمل ربما نجم عنه تلف في جزء من مخ الطفل (هيبوثالاماس hypothalamus) وهو الجزء المختص بتنظيم الشهية. والأطفال الذين ولدوا لمثل هؤلاء الأمهات (على النقيض من الذين لم يتعرضوا للجوع إلا خلال الجزء الأخير من الحمل، بعد أن كمل نمو (الهيبوثالاماس hypothalamus) كان لهم معدل سمنة أعلى من المتوسط نتيجة الأكل المفرط. غير أنه في هذه الحالة، كان السبب حالة تتعلق بالبيئة ـ عدم كفاية التغذية بالنسبة للأم إبان فترة حرجة من الحمل ـ كانت لها نتائج بيولوجية عكسية (ولكنها لم تُحدد على أنها جينية) على مركز المخ المنظم للشهية.

ويجب أن تكون وجهة نظري واضحة الآن. فإذا كانت نتائج الجينات والبيئة من الصعب الفصل بينها بالنظر إلى حالات تتحدد بسهولة أكثر، مثل السمنة، كيف لنا أن نستشهد بزوج منفصل من الجينات المرتبطة بالجنس لشرح توزيع شيء يصعب تفسيره مثل الذكاء أو القدرة المنطقيية ؟

عن الذكور وجينات علم الرياضيات :

هذه الانتقادات أوجدت بوجه عام سمعة سيئة في الأوساط العلمية للنظريات المرتبطة بـ X والمتعلقة بالقدرة. ومن سوء الحظ أن هناك صحفيين علميين، إذ كانوا يسعون وراء قصة مثيرة لم يكونوا مدققين في نقدهم. ومنذ عهد قريب، صادفتني قصة صحفية تُعيد إحياء نظرية الربط بجين X، لتشرح لماذا اختبر عدد أكبر

من الصبيان عن البنات في الاختبارات التي تجرى للبحث عن المواهب في مادة الرياضة. ولكن معظم هذه الدراسات لم تأخذ في الاعتبار أنواع التدريبات التي أخذها البنات والأولاد، ولا التشجيع الأقل للبنات ذات القدرات الرياضية العالية بالمقارنة بالأولاد (وهذا اكتشاف مسجل). وعلاوة على ذلك فإن الطلبة الذين اشتركوا لم يكونوا من عينة عشوائية، لأنهم عادة ما كانوا يُنتقون بواسطة المدرسين، أو يشتركون في مسابقات الرياضيات مدفوعين من آبائهم. ولكي نبدأ في تقييم الوراثة الجينية، يتطلب الأمر عينة من السكان مختارة بصفة عشوائية حرة ـــ فهذه نوعية من الدراسة أكثر تكلفة وأكثر تعقيداً. والدراسة الوحيدة الموجودة من هذه النوعية، والتي استخدمت عدداً كبيراً من أطفال المدارس الاسكتلنديين، اكتشفت الآتي : (١) درجات الأولاد في الرياضيات كانت حقاً أكثر تغيراً عن درجات البنات بمقدار صغير لكنه ذو أهمية من الناحية الإحصائية، ولكن (٢) معظم هذا الاختلاف كان مرده زيادة في عدد الذكور الذين سجلوا درجات منخفضة جداً، وليست عالية جداً.

وبالنظر إلى درجات القدرة المنطقية، تَبين (من نموذج القدرة اللغوية الذي نوقش في الفصل الثالث) أن قدراً صغيراً ـ يبلغ ٥٪ تقريباً ـــ من الاختلافات بينهم يمكن إرجاع سببها إلى الجنس. وهذا الفارق الصغير يبدو أنه في صالح الأولاد. لذا، دعنا نفترض، من أجل الحجة وعلى الرغم من كل العوامل السابقة، أنه على الرغم من أن هذا الفارق صغير، إلا أنه مرتبط بالجنس، كما أن له مبرر اجتماعي. وعلى أي حال، كان أمراً جديراً بالملاحظة أن يكون نفس الأشخاص الذين سجلوا في فئة الخمسة في المائة العالية هم الذين يصبحون مهندسين وعلماء في الرياضيات، وما إلى ذلك، ويتسمون بأنهم أكثر إبداعاً ويتقاضون أعلى الأجور. وإذا كان أحد الباحثين يجادل على أساس نظرية الارتباط بـ X، فقد حسب بأن الذكور يجب أن

يتفوقوا على الإناث عدداً بنسبة تتراوح ما بين ٢ إلى واحد في المجالات الهندسية. غير أننا نجد حالياً وفي الولايات المتحدة نفسها ٣٪ من المهندسين كانوا من النساء ـ وهذه النسبة تشكل بوناً شاسعاً عن نسبة واحد من كل ثلاثة. وأحد الذين استعرضوا التقارير أوجز الموضوع فيما يلي :

إذا اعتقدنا بالفعل أن الشيء الوحيد الذي يعترض سبيل عمل النساء بالهندسة هوعدم القدرة على التغير، وقدرتهن المنطقية المتدنية، فإننا لا نزال نتوقع أن نرى النساء تشغلن ثلث مجموع الوظائف الهندسية. وخلاصة القول، إن الفروقات بين الرجال والنساء من هذه الناحية تظل أصغر جداً من أن تكون مبرراً لقلة عدد النساء ممن أصبحن من العاملات المحترفات في مجال الرياضيات والهندسة المعمارية، والهندسة العامة.

ولابد أن هناك عاملاً آخر، يتبادر إلى جميع الأذهان وهو "النواحي الاجتماعية". وكما تعلمت النساء الشكوى من الدورة الشهرية (انظر الفصل الثالث)، فقد تعلمن أيضاً تجنب دراسة الرياضيات. ولعل ذلك مرده أنهن يعتبرنها لا تليق بهن، لأن قليلات من صديقاتهن انخرطن في هذا المجال، ولأنهن لا يلقين إلا تشجيعاً قليلاً من آبائهن ومعلميهن، أو لأنهن تعرفن أن مواهبهن سوف لا تلقى المكافأة المستحقة، التي يتطلعن إليها في المجالات التي يتسيدها الرجال. غير أن نظريات بيولوجية بديلة تُصر على الوجود. فبعض أصحاب النظريات يجادلون بأن الميول السلوكية التي ليست تحت السيطرة الجينية المباشرة لا تزال تتحكم فيها الجينات بصفة غير مباشرة، عن طريق تاثيرها في الهرمونات الجنسية. وهذه الهرمونات بدورها، يُقال إنها تؤثر في عقول الرجال والنساء (ومن ثم سلوكهم) بطرق مختلفة. وبديلاً عن ذلك، ودون اللجوء للتفسير الهرموني، فإن بعض العلماء يجادلون ببساطة أن الفروقات المتعلقة بعقول الذكور والإناث تؤدي إلى سلوكيات

مختلفة في داخل قوالب سلوكية على أساس أدوار الذكورة والأنوثة. ولسوف نناقش هاتين النوعيتين من الحجج في الفصل التالي.

الفصل الخامس :

الهرمونات والعالم

مازلت أستطيع أن أتذكر مدى الضيق الذي انتابني نتيجة حدث وقع أيام تخرجي في أوائل السبعينيات. فلقد توجه الطبيب الخاص بنائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إلى صحيفة نيويورك تايمز للإجابة على شكوى إحدى عضوات الكونجرس من أن الحكومة تتباطأ في وضع النساء في مراكز عالية المستوى في الحكومة. وكانت إجابة الطبيب في جزء منها كالآتي :

حتى عضوة الكونجرس عليها الامتثال للحقائق العلمية .... فهناك موانع بدنية وسيكلوجية تحد من إمكانات الأنثى ... ولا زلت أفضلُ أن يتخذ جون فيتزجيرالد كيندي John F. Kennedy - كذكر - قرارات أزمة الصواريخ الكوبية عن أن تتخذها أنثى من نفس السن، والتي من المحتمل أن تخضع للهرمونات الثائرة والانحرافات العقلية الملفتة للنظر بالنسبة لهذه المجموعة السنية.

ومنذ ذلك الحين رأينا نساء رؤساء دول يتولين هذا المركز بجدارة في أقطار متباينة مثل أيزلندا، الهند، إسرائيل والباكستان، والفلبين وبريطانيا العظمى. والواقع أن رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارجريت تاتشر تولت رئاسة الوزارة لثلاث مرات، وبهذا ضربت الرقم القياسي للانتخاب لكل رؤساء الوزراء البريطانيين (من الذكور) في هذا القرن. لكن في السبعينيات، كان من شأن التصريحات التي تتنبه ما

ذُكر سابقاً، أن أثارت ردود فعل ثأرية كانت متوقعة من الصحفيات. فكتبت إلين جودمان Goodman في عمودها أن النساء وللمرة الثانية، أُجبرن على إثبات أنه بوسعهن القيام بوظائف معينة على الرغم من "النقص الهرموني" لديهن، وبعبارة أخرى فقد اعتبرن مذنبات حتى يثبتن براءتهن. وعلى صعيد آخر، فإن الرجال، قد "سُمح لهم بالعمل كما لو كانوا أسوياء". والواقع أنها واصلت تقول ما لا تغنيه، وقد عاني الذكور من مشكلة أكثر قسوة وهي تسمم التستوستيرون (وهو هرمون تفرزه الخصية) الأمر الذي دفعهم إلى العنف لأنهم شعروا أنهم في منافسة.

وقالت : إن هذا اعتلال قاس على وجه الخصوص، لأن الذين يعانون منه يجهلون إصابتهم به. بل أنهم يعطون بعضهم البعض ميداليات لإظهارهم أعراض المرض بطريقة مكبرة. ودخلت جودمان أيضاً في المناظرة التي تدور حول ما إذا كان بمقدور ضابطات الشرطة أن يتركن مكاتبهن في الإدارة والانضمام إلى الرجال للقيام بأعمال الدورية بأمان. "والحقيقة هي أن أغلبية كبيرة من المواقف التي تتصل بأعمال الشرطة تتطلب البراعة والمرونة والقدرة على استشفاف المواقف المتفجرة". وكتبت تقول : إن الذين يعانون من تسمم التستوستيرون من المرجح أن يلجأوا إلى العنف أو يعملوا على تصعيده....ومع ذلك، فإن النساء، إذ يتمتعن بالايستروجين (وهو هرمون يثير الدورة الشهرية) فإنهن (وهو ما سبق أن أشارت إليه دراسات الشرطة) تحققن نجاحاً أكبر في تهدئة المواقف العنيفة. وانتهت إلى القول، بعيداً عن التشكيك في الحكمة من اشتراك النساء في الدوريات، فعلى المدن أن تعيد النظر ما إذا كانت الدوريات قد سبق واحتكرها رجال يثور فيهم عدم التوازن الهرموني هذا .... ومن المؤكد أنه ما كان علينا السماح لهم بأن يطوفوا الشوارع وحدهم، أو أزواجاً. فكل منهم يجب أن يُعين له زميل لم يُولد بهذا المرض، وغير عرضة للإصابة به. ولعله يكون شخصاً يتمتع بمستوى الاستروجين الصحيح.

الهرمونات والنواحي الاجتماعية البيولوجية :

وعلى الرغم من طرافة هذا الجدل، إلا أنه يجب أن يذكرنا ثانية بسخافة محاولة إثبات تفوق أي من الجنسين، سواء كان ذلك عند الحديث بجدية، أو على سبيل الدعابة. وهذا لسبب واحد، وكما أشرت في الفصل الثالث، يبدو أنه لا توجد علاقة متناغمة بين مستويات التستوستيرون ومستويات السلوك بعنف بالنسبة للإنسان. بل إن التذبذبات الهرمونية لدى النساء لا تنجم عنها قدرات غير متشابهة أثناء أوقات معينة من الشهر. والأكثر أهمية، هو أن المسيحيين في حاجة إلى أن يتذكروا اعترافهم : "الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله"، وأن الخلاص لا يكمن في جنسنا البيولوجي، ولا في أدوار الذكورة والأنوثة، بل "بنعمة الله"، بالفداء الذي بيسوع المسيح (رو٣: ٢٤).

ولكن الصحافة الشعبية لم تنته بعد من موضوع هرمونات الجنس. وفي هذه الأيام يُفترض أن الجدل لم يعد يدور بعد حول تميز أحد الجنسين، بل حول "علاقة بقاء" نوعيات منفصلة من السلوك في الرجال والنساء بالنسبة للجنس البشري كله. وفي مقدمة المتحدثين عن هذا الوضع حديث من العلماء الذين يطلق عليهم اسم علماء الاجتماع البيولوجيون، والتي تقول نظرياتهم إن الجينات التي تتحكم في أنماط هرمون الذكر والأنثى تطورت على مدى آلاف السنين من التأقلم مع أسلوب الصيد والجمع الذي كان يمارسه أسلافنا الأوائل. وطبقاً لهذه النظريات هُيىء الرجال هرمونياً للعدوان والحركات النشيطة التي هي من متطلبات الصيد، أما النساء فقد هيئن بنفس القدر للبقاء في البيت والتنشئة، وذلك بحسب متطلبات الحمل والرضاعة، التي جعلت رحلات الصيد الطويلة أمراً غير ممكن بالنسبة لهن.

وبالنظر إلى أن الانتقاءات الخاصة بأدوار الذكورة والأنوثة والتي تتفق مع استراتيجيات البقاء هذه أخذت وقتاً طويلاً حتى ظهرت، فإن علماء الاجتماع

والبيولوجي يصرون على أنها لا تـزال معنـا، ولكنهـا لم تُـدرك علـى النحـو الـذي كانت عليه، بالنظر إلى التغييرات التي طرأت على أسلوب الحياة والتي جاءت وليدة التمدين والتقدم التكنولوجي. وإذا ترجمنا هذا إلى عبارات حديثـة، فـإن هـذا معنـاه حتمية، إن لم تكن رغبة الرجال في أن يكونوا قـادة، والنسـاء تابعـات. ومـن أكـثر الأفكار تطرفاً، وهي التي قدمها عالم الاجتماع ستيفن جولدبـرج، فـإن سـلوكيات الرجال والنساء تمليها وبشكل صارم تبنّي أساليب البقاء السابقة، حتى إنه لم تصبح هناك جدوى من محاولة إعادة صياغتها. فالنظام الأبوي - في البيت، في السـوق، في الحكومة، وفي الأكاديمية وفي أي مكان آخر، أمر لابد منـه، بـالنظر إلى أن الزحـف العنيف للقوى البيولوجية العائلية والجنسية تفوق في الواقع كل رؤى تتعلق بمجتمـع أكثر عدلاً سواء كانت هذه الرؤى قومية، دينيـة، إيديولوجيـة أو سيكلوجية. وفي نظرية إدوارد ويلسون Edward Welson وهي أقل ميكانيكيـة بشـكل طفيـف، لدينـا بالفعل حرية ومرونة كافية لأن نعلم أدواراً جديدة للرجال والنساء. ومع ذلك، فإن هـذا سيكون علـى حسـاب قـدر كبـير مـن عـدم الكفـاءة الاجتماعيـة والضغـط الشخصي لأننا دائماً ننفذ مثل هذه التغييرات ضد "برنامجنا البيولوجي" الأعمق.

وكثير من العلماء الاجتماعيين البيولوجيين يجادلون ايضـاً مـن أجـل الحتميـة البيولوجية المزدوجة المعيار في السلوك الجنسي للإنسان، وهم يقولـون بـأن الذكـور من أي نوعية سيعملون بأقصى حد لبقاء جيناتهم وذلك بالاتصـال الجنسـي بأكـبر عدد ممكن من النساء. وعلى النقيض مـن ذلـك، فمـا أن تحمـل الأنثى إلا ويصبـح الاتصال الجنسي بها عديم الفائدة من ناحية زيادة جينات بقائها. وفضلاً عن ذلك، فبالنظر إلى أنها "تُستثمر" بقوة في حمـل عـدد قليـل مـن الأطفـال في حياتهـا، فمـن الصالح بقاء جيناتها أن تتدلل، وأن تجعل "من الصعب نوالها" حتـى يكتسـب أقـوى الذكور من ناحية الجينات "حقوق الاتصال الجنسـي" بهـا، وذلـك بهزيمتهـم لكـل

المنافسين الذكور. وإذا ترجمنا هذا إلى لغة إنسانية حديثة، فإن هذا معناه أنه لا يوجد في الواقع نفع كبير في محاولة تغيير نماذج مثل الاتصال الجنسي غير الشرعي بالنسبة للذكور، أو الحيل الجنسية بالنسبة للنساء. وبرنامجنا الجيني الذي جاء نتيجة هرموناتنا المرتبطة بالجنس، تحول إلى المعادل البيولوجي لطقس ديني والذي تقف القناعة الدينية عاجزة تماماً أمامه. وهكذا، فإنه من المهم أن ندرك أن المسيحيين الذين يدافعون عن أدوار "تقليدية" للذكورة والأنوثة وذلك بالاستناد إلى الإعلان الطبيعي لعلم الاجتماع البيولوجي، سوف يحصلون على أكثر مما ساوموا من أجله. فلسوف يحصلون على الأقل على اختفاء المسئولية الأخلاقية، بالنسبة للرجال والنساء، وذلك نتيجة آليات الإصرار البيولوجي.

الهرمونات في البشر :

علم الاجتماع البيولوجي هو نظرية تخمينية كاسحة تشرح حتى أكثر السلوك الإنساني تعقيداً وذلك باللجوء إلى التكيف التطوري للبقاء الجيني واللياقة البيئية. وإلى جانب كونهم مُقللين من قدر التأثير البيولوجي، وتجاهلهم لتغييرات واسعة تقافية وتاريخية في السلوك الجنسي للبشر، إلا أن نتائجه المؤكدة تنشأ تقريباً من دراسة الحيوان باستخدام مناهج تُعد مشوهة في نظر الكثيرين من البيولوجيين المسئولين، علاوة على ذلك، فإن التفسيرات الاجتماعية البيولوجية تأتي بعد حدوث الأحداث في الواقع الخارجي. وهم يبدأون من أقصى قمتها بالمقارنة بالإناث ثم يستحضر تفسيراً لها مدفوناً في ثنايا الماضي، ولا يمكن إخضاعه للتجربة أياً كان. وبهذا النوع من إدراك الأحداث بعد وقوعها تأتي التفسيرات قابلة للتطويع دون حدود. وإذا كانت القضية هي أن النساء وليس الذكور من الجنس الأكثر عدوانية، فإن علماء الاجتماع البيولوجيين لن يجدوا مشقة في استغلال هذا الاكتشاف من نظريتهم. "ومن الجلي" أن النساء مُبرمجات من الناحية الجينية لعدوان

أكبر، حتى يتمكنّ من حماية نسلهن ومن ثم بقاء جيناتهن. وحينما تكون هناك نظرية غير قابلة للاختبار على هذا النحو ـ وحين يرفض مؤيدوها أن يحددوا "أي" نوع من البرهان يمكن أن يقودهم إلى مراجعتها، فلسوف تنتفي عنها صفة العلمية، مهما بدت مُركبة واسعة المعرفة.

لذلك، دعنا نسأل، ما الذي نجده حين نختبر النماذج الهرمونية المتعلقة بالجنس في الإنسان ؟ ولعلك تتذكر من الفصل الثالث أنه أمر مُضَلِل أن تتكلم على سبيل الحصر عن هرمونات جنسية متعلقة "بالذكر" و"الأنثى" بالنظر إلى أن كل هذه الهرمونات تفرزها النساء والرجال. فما هو حاسم بالنسبةلإنتاج جسم ليكون ذكراً، أو أنثى، هو الكميات النسبية ـ وليست المطلقة ـ للهرمونات العديدة المتعلقة بالجنس، ولاسيما أثناء فترات معينة حاسمة من النمو. ومعظمها يحدث قبل الميلاد، فيما أن الأعضاء الجنسية الداخلية والخارجية تنمو بالتعاقب. ومع ذلك، فإن فترات المراهقة هي فترة حاسمة أخرى من ضمن الفترات الحاسمة، حيث تبدأ في الظهور السمات الجنسية الثانوية (نبرة الصوت، توزيع شعر الجسم، نمو الصدر) وكذلك بداية الخصوبة.

ومن وقت قصير بعد الميلاد، وحتى قبل البلوغ بوقت قليل، فإن إنتاج الهرمون المتعلق بالجنس نادراً ما يحدث في الأولاد أو البنات. ولهذا السبب، فإن النظريات المتعلقة بتأثير الهرمونات على السلوك الخاص بأدوار الذكورة والأنوثة لابد وأن تأخذ أحد هذين الشكلين. أولاً: قد يُقترح أن نسبة اختلافات الهرمون في الأولاد والبنات أثناء النمو قبل الولادة تؤثر في نمو عقولهم (إضافة إلى أعضاء الذكورة والأنوثة) حتى تتهيأ النتائج للحياة. أو ثانياً: قد يقترحون أن نسب الهرمون المختلفة بين الأولاد والبنات عند البلوغ، تبدأ في تضخيم الاختلافات

السلوكية التي كانت في حدها الأدنى حتى ذلك الحين. ولنتأمل كلاً من هذه النظريات بالترتيب.

تأثير الهرمونات في فترة ما قبل الولادة :

أكثر الاختبارات إثارة لنظرية من النوع الأول تمت مع أطفال يمكن أن يُطلق عليهم "تجارب غير مُخطط لها". ومن الطبيعي أنه ما من أحد سيحقن هرمونات إضافية في أمهات حوامل لكي يرى تأثيرها على أطفالهن الذكور أو الإناث. لكن إبان الخمسينات والستينات، قامت بعض النساء اللواتي اختبرن الإجهاض أكثر من مرة بأخذ هرمون اصطناعي (بروجستين) أثناء فترات حمل تالية لأنه يُخفِّض مخاطر الإجهاض مرة أخرى. غير أنه من سوء الحظ، يتّبين أن هذا العقار عمل مثل البروجستيرون (هرمون أنثوي له القدرة على أن يمنع الاجهاض)، ولكنه من نواح أخرى كان يشبه التستوستيرون (هرمون الأندروجين، الذي يُنشِّط الذكورة، والذي يجعل أعضاء الذكر تتشكل في الجنين، بغض النظر عن جنسه من ناحية الذكورة والأنوثة). وهذا لم يُسبب أي تغييرات جسمية في الجينات الذكرية (XY) في الأطفال، ولكنه أحدث بالفعل بعض الجينات الأنثوية (XX) مما جعل للأطفال بعض الأعضاء التناسلية الخارجية التي كانت ذكرية تقريباً (وهذا يعتمد على الزمن وطول المدة التي أخذت أمهاتهم العقار أثناء الحمل). وهذه المشكلة ليست فظيعة بالقدر الذي تبدو عليه للوهلة الأولى، وذلك لأن أعضاء الطفلة الجنسية الداخلية كانت أنثوية تماماً، وهذا ما يضمن الخصوبة العادية حين تكبرن. وإضافة إلى ذلك، فإن الجراحة في مستهل الحياة كانت قادرة على إعادة أعضائهن الخارجية إلى سابق سمتها الأنثوية، بحيث تظهر بشكلها العادي وتعمل بالطريقة المألوفة.

غير أنه يظل السؤال قائماً : ما إذا كانت هذه المواد الإضافية التي تماثل الأندروجين والتي أُخذت أثناء الحمل لها تاثير على سلوك البنات أثناء نموهن ؟ لم

تحدث تأثيرات ذات شأن حين يتعلق الأمر بمقاييس مختلفة من القدرة اللفظية والمنطقية. غير أن دراسات المتابعة الأولى لهؤلاء البنات اللواتي حُقن بالأندروجين وهن في حالة جنينية أظهرت ميلهن لأن يكون لهن شخصبات ذكرية (تحب ألعاب الصبيان). ومعظمهن كن يتمتعن بالرياضات التي تتيح لهن الاحتكاك بالآخرين، و لم تُبدين اهتماماً بعرائس البنات، وفضلن الوظيفة على الزواج على الرغم من أنهن كن من المشتهيات للجنس الآخر.

وقد أشار النقاد وبحق أن الانحياز الأبوي ربما ساعد على خلق هذه التأثيرات. وعلى أي حال، فقد عرف الآباء في حجرة الولادة أن بناتهن لهن أعضاء تناسلية ذكرية، ولذلك فإنه حتى بعد تصحيح الوضع جراحياً، ربما كانوا يتوقعون منهن سلوكاً صبيانياً، وهكذا دعمن هذا في بناتهن. وإضافة إلى ذلك، فإن علماء النفس الذين حكموا على سلوك البنات بعد ذلك عرفوا أيضاً أنهن كن قد حُقِنّ في حالتهن الجنينية بالأندروجين، وهكذا فربما أسهموا بمزيد من سمات "الصبية" لسلوكهن بأكثر مما كان موجوداً بالفعل. وما كان الأمر يتطلبه هو صور دراسة باسم "رؤية مشوشة" ـ بمعنى أنها دراسة لا يعرف فيها آباء الأطفال أو الباحثون الذين سوف يحكمون بعد ذلك على سلوكهن "الخطأ" الذي حدث قبل الولادة.

وقد صممت عالمة النفس جون رينيسك June Reinisch مثل هذه الدراسة في السبعينيات. وفي البداية اختارت بعض البنات لتحقنهن في مرحلة الجنين بالأندروجين، و لم تولدن بأعضاء تناسلية لها سمة الذكورة، وهكذا فإن آباءهن لم يكونوا على علم بالآثار الجانبية المُحتملة للعقار الذي أخذته الأم. وبناء على ذلك، لم يكن في الإمكان أن يتوقعوا سمات صبيانية في بناتهن. وكذلك قامت بدراسة لأولاد طُعموا بالأندروجين وهم في الحالة الجنينية، بافتراض أنه على الرغم من أنهم جميعاً لهم صفة تشريحية عادية من ناحية جنسياتهم إلا أن الجرعة الزائدة

للأندروجين قبل الولادة ربما تُزيد من احتمالات سلوكيات معينـة. (هـؤلاء الأولاد جاءوا أيضاً من عـائلات لا تعـرف شيئاً عـن المخـاطر الـتي تعـرض لهـا أطفـالهم). وأخيراً، كمجموعة ضبط، اختارت أقرباء من نفس الجنس ومتقاربين في السن مـن كـل مـن هـؤلاء الأولاد والبنـات. وبهـذه الطريقـة توافـر لهـا أزواج مـن الأطفـال متشابهين من ناحية الظروف العائلية، ولكن واحداً فقط منها تعرض وهو في حالـة جنينية لجرعة إضافية من الأندروجين. والسؤال الهام كان : كيف اختلف الأطفـال الذين طُعموا بالأندروجين حينما كانوا في حالة جنينية مـن الناحيـة السـلوكية عـن أقاربهم الذين كانوا من نفس نوعهم الجنسي ؟

لقد ركزت رينسيك على نوعيـة واحـدة معينـة مـن السـلوك وهـي، إلى أي مدى من العدوانية سيتصرف الأطفال ــ موضـوع الدراسـة ــ في مواقـف الصـراع الطفولية (مثل الجدال حول قواعد لعبة مـا). ولقـد اكتشـفت أن كـلاً مـن الأولاد والبنات ممن تعرضوا للأندروجين قبل الولادة كانوا أكـثر مـن أقربـائهم الذيـن مـن نفس جنسهم من ناحية القول بأنهم سوف يسـتعملون القـوة البدنيـة في مثـل هـذه المواقف. غير أن ناحيتين من هذه النتائج كان لهما اهتمام خاص.

أولاً: الفـروق بـين البنـات اللواتـي لم يتعرضـن والبنـات اللواتــي تعرضــن، والأولاد الذين لم يتعرضوا كانت صغيرة جداً، على الرغم من أهميتها مــن الناحيـة الإحصائية. وقد طُلب مـن الأطفـال الإجابـة على ثمانيـة عشر موقفـاً وهميـاً مـن الصراعات. ومن بين هؤلاء، قالت البنـات الطبيعيـات إنهـن كـن سـيواجهن هـذه المواقـف بـالاعتداء البدني مـن ثلاثـة منهـا، أمـا معــدل إخواتهــن ممــن تعرضــن للأندروجين فكان أربعة، أما معدل الأولاد العاديين فكـان خمسـة اعتـداءات بدنية من بين ثمانية عشر احتمالاً. وهنا نعود فنقول، إننا في حاجة إلى أن نسـأل أنفسـنا، كم من فروق عملية تنجـم عـن ذلـك ؟ (ومـن المؤكـد أنـه ليس بكـاف بالنسـبة

للفروق لأن نجعل الناحية البيولوجية هي التفسير الأكبر للسبب الذي نجد معه أن أكثر من تسعين في المائة من جرائم العنف ارتكبها رجال).

ثانياً: وأكثر اكتشاف مدعاة للدهشة، كان في عشرات الأطفال الذين طُعموا بالأندروجين فيما كانوا في حالة جنينية. وهؤلاء فضلوا العدوان البدني في إجاباتهم، وكانت هذه ضِعف إجابة الأولاد العاديين ـ أي عشر مرات مقابل خمس من ثماني عشرة حالة ـ وكان هذا مما يدعو إلى الدهشة لأن البحث بالنسبة للحيوانات يبدو أنه أظهر أن التستوستيرون كان له "تأثير سقفي"، بمعنى أنه إذا وصل إلى أكثر من نسبة معينة، فإنه لا يُحدِث فرقاً سواء بالنسبة لتشريح الذكر أو السلوك. ومع ذلك، علينا أن نتذكر أن هذه الدراسة، على الرغم من السيطرة عليها بشكل رائع في معظم الحالات، إلا أنها لم تكن اختباراً لتأثيرات التستوستيرون (هرمون تفرزه الخصية). فقد اختبرت هرموناً صناعياً اتضح أنه يعمل من بعض الجوانب مثل هرمون "أنثوي"، ومن نواح أخرى مثل هرمون "ذكري". وبناء على ذلك، فإنه لا يزال من غير الحكمة أن نقارن بين الأطفال الذين شملتهم هذه الدراسة وأولئك الذين أُتيحت لهم بيئة هرمونية طبيعية قبل الولادة.

ثم إننا في حاجة أيضاً لنتذكر أن الدراسة لم تكن تقيس عنفاً بدنياً حقيقياً، بل مجرد أعمال تخيلها الأطفال الذين ربما كانوا يُظهرون قدراً أكبر من ضبط النفس أثناء الحدث الحقيقي. وحتى إذا أهملنا طبيعة البروجستين (وهو هرمون يُهيىء الرحم لقبول البويضة الملقحة)، فما لم نفترض أن كل الذكور الميالين إلى العنف طُعموا بجرعة زائدة من الأندروجين (وهذا أمر غير محتمل) لا يمكننا استنتاج أن الهرمونات "تصنع" اختلافات جنسية مُعينة في السلوك لا يمكن تجنبها. وفي أقصى الحالات، فهي تنحرف بميولنا إلى جهة أو أخرى، إلا أنه حتى الآن، فإن أكبر قدر من هذه الاختلافات هو من تعليمنا وخياراتنا.

مستويات الهرمون عند سن البلوغ :

وصفت الدراسة التي قامت بها جون رينسيك بشيء من التفصيل لأنها تُبين نوع الجهد والنفقات المطلوبة لعمل بحث يحتاج حتى للبدء في فصل النتائج الناجمة عن الطبيعة عن تلك الناجمة عن التنشئة بالنسبة للسلوك المتعلق بأدوار الأنوثة والذكورة. وليس بمقدوري التأكيد بقوة كافية على أن هذه النوعية من الدراسة نادرة جداً، سواء بسبب تكلفتها من ناحية الوقت والمال، ولأن نوعية "التجربة غير المُخطَّط لها"، التي مَثلها الأولاد والبنات ممن اشتركوا فيها هي بالطبع غير شائعة إلى حد كبير. ومعنى هذا هو أن معظم الدراسات التي تدَّعي إنهاء الجدل حول الطبيعة/ التنشئة، لها حدود منهجية تجعل نتائجها قابلة لأكثر من تفسير. والواقع أنه حتى نتائج رينسيك غير واضحة تماماً، بالنظر إلى أنها لم تكن تختبر نتائج تستوستيرون خالص مُفرز بشكل طبيعي. وبناء على ذلك، فالتفسير الذي يتم اختياره، سواء كان ذلك "تقليدياً" أو يدعم فكرة المساواة، عادة ما يأتي من سلوكيات الباحث التي سبقت تطور العلم الحديث عن الرجال والنساء، كما أنها تأتي نتيجة تفسير نزيه للبيانات.

ويتعين علينا أن نلاحظ أيضاً أن مصممي أكثر الدراسات نفعاً، هم وحدهم الأقل احتمالاً من ناحية وضع ادعاءات كاسحة من جانب واحد عن أصل الاختلافات الجنسية (وما تتضمنه). وعلى الرغم من أن رينسيك عالمة نفس تقاوم بشدة فكرة أن "التعليم يُفسِّر كل شيء". فإن بحثها قد أقنعها أن الفروقات بين الرجال والنساء في القدرة على الفهم والتفكير والشخصية قائمة على أساس فروق بيولوجية صغيرة جداً، تم تضخيمها إلى حد كبير بتاريخنا الشخصي والاجتماعي، وبالمتطلبات العاجلة للمواقف التي نجد فيها أنفسنا. ومن سوء الطالع، أن الدراسات الأخرى التي ظهرت لم تكن على هذا القدر من الحرص. ومن المؤكد أن هذا هو

الحال بالنسبة لنوعية أخرى من النظريات المتعلقة بالهرمون، وهي تلك التي تدّعي أنها تفسر الاختلافات الجنسية على أساس مستويات الهرمون في الكبار وليس في حالة ما قبل الولادة.

الهرمونات المفكرة ؟

قرب نهاية الطفولة، تبدأ هرمونات الجنس في الرجال والنساء في اتّباع نماذج مختلفة جداً. في الطفولة، لا يمكن تقريباً تقفي أثر الأندروجين أو الأستروجين في عينات البول سواء بالنسبة للأولاد أو البنات. إلا أنه حوالي سن العاشرة، يزداد الأندروجين بسرعة في كلا الجنسين، في حين أن الأستروجين لا يزداد إلا في البنات. وابتداء من سن البلوغ إلى ما بعد ذلك، تتغير نِسَب الهرمون في السيدات طبقاً لمرحلة الدورة الشهرية، في حين أن نسب الرجال تظل ثابتة نسبياً. وقد ادّعت بعض النظريات أنه توجد علاقة سببية بين اختلافات الهرمون بين الذكر والأنثى، ونموذج الإنجازات العظيمة الخاصة بالرجال في المجالات الأكاديمية والمهنية، على النقيض من العدد الأكبر من النساء في الأدوار المساعدة مثل أمينات مكتبات وسكرتيرات وكاتبات الحسابات.

بناء على هذه النظرية، فإن زيادة هرمونات البالغين في كل من الجنسين يُنشِّط المخ بطريقة تُساعد على أداء الأعمال البسيطة العادية (مثل الكتابة على الآلة الكاتبة، وحفظ الملفات والحسابات الروتينية). وفي ذات الوقت يُقال إن الهرمونات المتعلقة بالجنس تتدخل في أداء الأعمال الأكثر تعقيداً ـ النوعية التي تتطلب أن "نتوقف ونفكر" (مثل العلماء، الأطباء، المهندسين) وليس مجرد أن نتبع أول هاجس أو عاداتنا المألوفة. ثم تواصل النظرية لتشير إلى أن الأستروجين يُعمِّق هذه النتيجة بأكثر مما يفعل الأندروجين. ومن هنا يجب ألا تأخذنا الدهشة أن نجد ما اكتشفناه بالفعل : رجال أكثر في أدوار مهنية عالية الأجر تتطلب فكراً أساسياً كثيراً، ونساء

أكثر في أنشطة روتينية ذات أجر منخفض. (ويوجد أيضاً، كما في النظريات الاجتماعية البيولوجية، الاقتراح القوي أنه إذا كان توزيع هذه الأعمال قد قام على أساس الناحية البيولوجية، فليس هناك ما يمكننا عمله إزاء ذلك).

ولكن، وكما تكشف الأمر، ليس هناك ما يؤيد حتى الافتراض الأولى بأن هرمونات الجنس تساعد بالفعل أو تُعطّل أداء المهمة بالطُرق المقترحة ـ ولهذا، إذا كان ذلك حقاً، فإن هذا يجعل أداء النساء "للأعمال الروتينية" أفضل في أثناء دورتهن الشهرية حين يكون الأستروجين في أعلى معدلاته. ثم إنه يجعل أيضاً أداء النساء للأعمال التي تتطلب "مستوى أعلى من التفكير" أفضل قبل دورة الحيض مباشرة وبعدها، حين يكون الأستروجين في أدنى مستوى له. ومع ذلك فإن هناك بحثاً تضمن حوالي ثلاثة عشر عملاً متشابهاً أُعطيت لنساء في جميع مراحل دورة الحيض ولم يكتشف مثل هذه التقلبات. وبعض النساء يُخبرن بالفعل عن تقلبات عاطفية، حيث تشعرن بأنهن أكثر نشاطاً ومرحاً وثقة بالنفس في منتصف الدورة الشهرية وتشعرن بالعبوس قبلها. بيد أن هذه التغييرات يبدو أنها غير مهمة بما يكفي لأي نوعية من أداء العمل (والواقع أن دراسة تلو الأخرى أظهرت أن الرجال وليست السيدات هم الذين سجلوا أعلى معدلات التغيب عن العمل، على الرغم من الاستقرار الكبير للهرمونات لديهم).

الهرمون المثير للغريزة الجنسية :

وبالإضافة إلى تقلبات مزاجية مُعينة لدى النساء (ومازلنا لا نعرف كيف وبأي قدر تنجم هذه عن الهرمونات)، فهل الاختلافات الهرمونية في الرجال والنساء تؤثر في أي سلوك آخر ؟ وإذ يدعو هذا الأمر للدهشة كما يبدو، إلا أن أهم اختلاف هو أيضاً مجرد تشابه. ويبدو أن التستوستيرون مرتبط بالإثارة الجنسية عند الرجال والنساء. وفقدان التستوستيرون في الرجال نتيجة الخصي، أو لتدخل

كيمائي، يؤدي بصفة عامة إلى تقليل الإثارة الجنسية بدرجة كبيرة وفي القدرة على الانتصاب والقذف. بيد أنه حين تعاني النساء من نقص الأستروجين (على سبيل المثال نتيجة إزالة المبيضين Lubrication) فإن السائل الذي يفرزه المهبل، هو الذي يقل وليس الإثارة الجنسية أو القدرة على هزة الجماع.

أما جون موني John Money الذي قام بقدر كبير من الأبحاث حول العلاقة بين البيولوجية الجنسية والسلوك، انتهى أخيراً إلى أن المادة التي تشبه التستوسترون والتي تنتجها الغدة الكظرية (فوق الكلى) هي المسئولة عن كثير من إثارتهم الجنسية. وفي النساء اللواتي فقدن الغدة الكظرية كعلاج لأشكال معينة من السرطان، تقل لديهن الإثارة الجنسية والنشاط والقدرة على هزة الجماع. وعلى النقيض من ذلك النساء اللواتي حقنّ بالتستوسترون لعلاج سرطان الثدي كثيراً ما يُبلغون عن زيادة نشاطهن الجنسي (على الرغم من أن التستوسترون قد يتولد عنه سمات ذكورية مثل زيادة شعر الجسم، عمق الصوت وما إلى ذلك). وحقيقة أن غشاء الغدة الكظرية عند الرجال ينتج أيضاً كميات صغيرة من مادة تشبه الأندروجين، لذلك فإنه في الذكور العاديين قد يساعد هذا "المصدر المزدوج" للأندروجين (كثير من الخصية وقليل من الغدة الكظرية) على تفسير السبب في أن معظم الرجال يُثارون جنسياً بسهولة أكثر مما هو الحال في معظم النساء. ولكن بعد فقدان الأندروجين الذي تنتجه الخصية، فإن نسب الأندروجين بالمقارنة بالأستروجين عند الرجال ــ وتذكر أن هذه نسب وليست كميات مطلقة ــ تُعدُّ مُهمة لدى الجنسين، قد تتغير إلى حد أن تجعل طبقة الأندروجين الخارجية الكظرية قليلة النفع.

وهنا نجد مفاجآت لم تكن متوقعة. فمع أن العلاج التكميلي بالأندروجين عادة ما يساعد على استعادة القدرة الجنسية للرجال، إلا أن العلاقة ليست من

نوعية بسيطة. فيما كنت أكتب هذا الفصل أثناء إجازة في المروج الكندية، كانت دورة الألعاب الأوليمبية الشتوية الخامسة عشر قد بدأت في مدينتي كالجاري وألبرتا المجاورتين. ومن بين ملامح الموقع الأولمبي كان هناك معمل رفيع المستوى لاكتشاف آثار ما يزيد على ٤٠٠ عقار ممنوع وذلك في بول الرياضيين بعد الأداء. ومن أوائل الممنوعات الاستيرويد، والأندروجين الصناعي اللذين يساعدان على بناء العضلات إذا أُخذا لعدة شهور.ومنعهما في دورة الألعاب لم يقم فقط على أساس حقيقة أنهما يتيحان لمن يستعملهما مزية غير عادلة في المنافسة، بل وأيضاً بسبب المشاكل الطبية التي يمكن أن تنجم عن استعمالهما لفترة طويلة - ومن بينها العجز الجنسي عند الرجال !. إلى حد أن مادة الأستيرويد هذه تعمل عمل الأندروجين الطبيعي، و"الكثير" ليس دائماً "أفضل".

بل إنه في هذه الحالة "الأقل" ليس دائماً "أسوأ". والإثارة الجنسية، مثل كل سلوك بشري، تتأثر كثيراً بالتعليم، وتشهد على ذلك حقيقة أن بعض المخصيين البالغين، بل وحتى بعض المصابين بالشلل النصفي السفلي، الذين يفتقرون إلى الإحساس بالأعضاء التناسلية، يواصلون حياتهم الجنسية بنشاط، وكما تقول عالمة النفس جوانا رورbوف في هذا الشأن :

البالغون الذين نضجوا جنسياً سبق أن تجمعت لديهم ذكريات عن الإحساس الجنسي والمشاعر التي تصاحب الاهتياج، وهزة الجماع، والقذف، إلى جانب شبكة من الاستجابات الجنسية المعتادة. والتقليل الكبير في هرمونات الجنس لا يُزيل هذه الذكريات والعادات. فالتهييج الجنسي يمكن أن يستمر - في التخيلات والسلوك.

موجز عن الهرمونات : نظرية الفونوغراف[1] Juke Box

---

[1] خزانة مشتملة على فونوغراف آلي تتيح للمرء سماع الأغنية المسجلة التي يختارها بمجرد وضع قطعة نقدية في ثقب خاص.

وكما كان الأمر في استعراضنا المسهب للجينات وأدوار الذكورة والأنوثة، يجب أن ننتهي إلى القول إنه على الرغم من أن الهرمونات المتعلقة بالجنس تؤثر في السلوك، إلا أنها لا تفعل ذلك بطرق تتناغم مع أنماط هؤلاء الرجال والنساء. فكيمياء أجسادنا مُعقدة للغاية. علاوة على ذلك، فهي خاضعة لما أطلق عليه جورج ماندلر George Mandler عبارة "تأثير الفونوغراف". ومن التجارب التي تمت باستخدام حقن الأدرينالين السابق ذكرها في الفصل الثالث، نتذكر أن هذا الهرمون نفسه، وبنفس الجرعة، كان له تأثير على مجموعات مختلفة من الناس وبطرق مختلفة، اعتماداً على الوضع الاجتماعي الذي كانوا فيه. والجميع استطاعوا أن "يشعروا" بتأثير العقار، أما من ناحية تصرفاتهم نتيجة هذه المشاعر فكانت متباينة جداً. ومثل القطعة النقدية في الفونوغراف والتي كانت ضرورية للحصول على النغمة المطلوبة، ولكنها لا تُحدد اختيارها، هكذا أيضاً هرموناتنا ـ المتعلقة بالجنس وغيرها ـ تُنتج تأثيرات نفسية ملموسة، ولكنها لا تدفعنا إلى التصرف بطريقة موصوفة صارمة. وثمة باحث آخر عبَّر عن ذلك بشكل مناسب على النحو التالي :

الهرمونات وحدها، بما في ذلك الهرمونات الثانوية المختلفة للإنسان، الذكور والإناث، لا تُفسِّر لنا أي شيء. لأن الهرمونات وحدها لا يمكن أن يكون لها وجود. فالتفاعلات الهرمونية تظهر مع تفاعلات للمخ، والتفاعلات الاجتماعية، والأعمال السببية مثل من يعمل بالتوليف، أو على الأقل مثل الكسرولة، والتي فيها لا يُحدد مقوماً لوحده النتيجة النهائية. والهرمونات لا تثور، ولكنها توحي فقط.

وهكذا لا يمكن استخدام الهرمونات كعذر للعنف، والسلوك الجنسي الفاسق وغير المشروع بالنسبة للرجال أو النساء. بل وليس بمقدورنا من ناحية المسئولية أن نطالبهم أن يجادلوا لصالح حتمية النظام الأبوي (أو النظام الأمومي بالنسبة لذلك

الأمر). وهن جزء من الجنس البشري، وكيفية اختيارنا للعيش معهم ستعكس المسئولية التي تشكل جزءاً من صورة الله فينا جميعاً.

الجنس والمخ :

وهناك تقليد بحثي آخر يحاول أن يُقيِّم تأثير الناحية البيولوجية على سلوك الرجال والنساء. وهذا هو مجال علم الأعصاب، أو علم المخ، والذي يدرس نمو المخ وهيكله وعمله، حقل قديم للغاية: فمنذ أن شن الناس حروباً ضد بعضهم البعض (وبالأكثر الآن حيث يقودون سيارات وموتوسيكلات)، استطاع الأطباء أن يدرسوا الناس الذين نجوا من إصابات بالمخ، ولكنها خلفت لهم أضراراً بدنية أو نفسية. وتلف المخ يمكن أن يتأتى أيضاً نتيجة السكتة الدماغية، التي قد تحرم منطقة المخ من الأكسجين لمدة طويلة لكي تسبب تغييرات مؤقتة أو دائمة في وظائفه. وبدراسة سلوك الأشخاص بعد هذه الصدمات، وأحياناً بدراسة المخ لديهم بعد موتهم، "رسمنا بالتفصيل" العمليات الكبرى التي يقوم بها المخ، المناطق المتعلقة بالرؤيا، والرائحة، والسمع، والمهارات اللُغوية وما إلى ذلك. ومنذ عهد قريب جداً، بدأنا نتعلم أشياء أخرى. بتسجيل النشاط الكهربائي للمخ، لمجموعات عادية من الناس، وأخرى تحت الإشراف الطبي، وبتتبع تدفق الدم باستخدام حقن النظائر المشعة.

وإذا نظرت إلى مخ إنسان بدون غطاء الجمجمة الواقي، ربما تتذكر ثمرة جوز الهند الضخمة داخل قوقعتها. ولسوف نرى حفنتين مجعدتين لينتين من مادة رمادية مائلة إلى اللون القرنفلي، يفصل بينهما أخدود عميق طويل، غير أنهما متصلتان معاً بقنطرة من نسيج ضام عبر الجزء المتوسط السفلي. أما على السطح، فإن النصفين يتشابهان بدرجة كبيرة جداً، ولكننا عرفنا لبعض الوقت أن الجانبين، أو نصفي المخ مخصصين إلى حد ما لأنواع مختلفة من التفكير.

والواقع أنه في كل الأشخاص الذين يستعملون اليد اليمنى، وفي غالبية العُسر منهم، فإن النصف الأيسر أكثر تخصصاً بالنسبة للغة، والتحليل المنطقي، والرياضيات، والأنشطة "المتتابعة" الأخرى، أي تلك التي تتقدم خطوة في المرة وبطريقة نظامية. أما النصف الأيمن، فهو على النقيض من ذلك، أكثر تخصصاً للقدرات الفنية والمنْطقية، ولنهج عطفي، غير تحليلي وغير لفظي للواقع.

ومن المهم أن نفهم أن تخصص كل نصف ليس أمراً يُوصف بالقول إما الكل أو لا شيء، بل أن هذا معناه فحسب أن أحد الجانبين قد يكون أكثر كفاءة من الآخر في قدرته على معالجة أنواع معينة من الأعمال. بل ولا يعني مثل هذا التخصص أن جانبي المخ يواجهان متاعب في توصيل أو تنسيق أنشطتهما، ومثل هذا الاتصال تُحدثه طرق من الذبذبات الصادرة من نسيج ليفي عصبي يربط بين النصفين، وكذلك بواسطة بعض الروابط الأصغر حجماً. وأخيراً، وعلى النقيض من تشريحنا الجنسي، فتخصص نصفي المخ لم يُحدد قبل الولادة أو في بداية الطفولة. وفي الأطفال الذين لديهم تلف كبير في نصف واحد فقط من المخ، فإن النصف الآخر السليم يمكنه أن يتولى تنفيذ كل أنشطة المخ العادي ــ وهذا أمر لا يمكن حدوثه بالنسبة للكبار. وبالنظر إلى "ليونة" المخ المبكرة هذه، فإنه من الممكن لاختبار الطفولة، من الناحيتين الاجتماعية والبدنية، أن يساعد على تشكيل نماذج نصفي المخ في الكبار، بنفس الطريقة التي رأينا فيها الخبرة تُغيِّر تركيبات الخلية العصبية في كل من القطط والبشر، في الفصل الثالث. وهذه نقطة هامة يجب أن نتذكرها فيما نتكلم عن الاختلافات المحتملة في الجنس، في عمل نصفي المخ. وبالنظر إلى أن مثل هذه الاختلافات يبدو أنها شائعة في البالغين، فهذا على وجه الدقة لا يعني أنها تقدم فقط، على أساس بيولوجي. وعمل قليل جداً، هو الذي تم بالنسبة لعلاقة التجربة بنصفي المخ لكي نضمن مثل هذه النتيجة.

فصي المخ يستخدمه النساء والرجال :

كل النظريات البارزة عن اختلافات الجنس في نظام المخ تبدأ بملاحظتين معروفتين لنا. حين نجد اختلافات الجنس في القدرات اللفظية، فإنها من المرجح أن تحابي النساء، وحين تُوجد اختلافات في القدرات على الادراك والفهم، فمن المرجح بالأكثر أن تحابي الرجال. وفضلاً عن ذلك، وكما ذكرنا، نفس هذه القدرات اللفظية والمنطقية تميل إلى أن تتمركز في نصفين مختلفين من مخ الشخص البالغ. وهكذا، إذا فُرض أن أنماط القدرات التي تختلف بحسب نصف المخ هي نفسها التي تختلف نتيجة الجنس، بدا لكثيرين من علماء النفس أنه لم يتبق سوى قفزة قصيرة لاقتراح أن الجنسين يختلفان بنفس طريقة تخصص نصفي العقل في هذه القدرات. وأرجو ملاحظة أن هذا اقتراح أكثر تواضعاً من الرأي الشائع بأن "الرجال هم بالأكثر خاضعون للعمليات التي تحدث في الجانب. الأيسر من المخ"، و"النساء هن بالأكثر خاضعات للعمليات التي تحدث في الجانب الأيمن بالمخ". ومثل هذه التعميمات تُخفي وراءها أعمالاً متضاربة، بالنظر إلى أن الجانب الأيسر من المخ متخصص لكل من اللُغة (ومن المفترض أنها قوة أنثوية) والرياضيات (وهي نمط على أنها قوة ذكرية). وعلى غرار ذلك، فإن الجانب الأيمن من المخ متخصص في كل من القدرات على الادراك والفهم (يُفترض أنها قوة ذكرية). والقدرة على التخمين، والتفكير التقوي (بحسب الأنماط التقليدية هي قوة أنثوية).

وما اقتُرح هو أن عقول الرجال والنساء، هي من بعض النواحي "مختلفة في وظيفة جانبي المخ" ـ وبمعنى آخر، أن مدى تخصص كل جانب من المخ قد يختلف بين الجنسين. وأن هذا بطريقة ما هو سبب الفروقات البسيطة التي نجدها في نماذج القدرة. أما من ناحية ما هية هذه النماذج المختلفة Lateralization، تبعاً لاختلاف جوانب المخ التي يمكن أن تُعزي إلى فروقات الجنس في أساليب التفكير، فهذا

موضوع جدل كثير، مع اكتشافات عديدة متناقضة. ومع ذلك، هناك دليل ما للخطوة الأولى في هذه المناقشة ـ أي أنه، بالنسبة للنظرية القائلة أن كل جانب من المخ للرجال له تخصصه الوظيفي ـ أو مجاله أكثر مما لدى النساء.

والمهام السيكلوجية التي تتضمن السمع والبصر يبدو أنها تؤيد هذا. ومن مهام السمع، على سبيل المثال، يضع الأشخاص سماعتي الرأس، ويسمعون رسائل متضاربة في كل أذن. على سبيل المثال، كمجموعتين مختلفتين من المتتابعات العددية. وبعد ذلك يُطلب منهم أن يذكروا أكبر قدر من الأعداد يمكن أن يتذكروها. وبصفة عامة، تميل النساء إلى تذكر ما سمعته كل أُذن بدرجة متساوية، في حين أن الرجال يميلون إلى ما سمعوه بالأذن اليمنى بأفضل مما سمعوه باليسرى. وبالنظر إلى أن الأذن اليمنى ترتبط غالباً بنصف المخ الأيسر (والعكس بالعكس)، فإن هذا يوحي بأن نصف مخ الرجال الأيسر أكثر تخصصاً لمعالجة المواضيع اللُغوية أكثر من النساء.

ومن الطبيعي، أن التخصص الأكبر للنصف الأيسر من مخ الرجال للغات لا يعطيهم أية ميزة بعينها، بالنظر إلى أنه إذا كان شيء يقال في هذا الصدد فإن النساء هن اللواتي يعملن الأدوار اللغوية بشكل أفضل من الرجال. أما ما يُعقّد المسألة فهو أنه حين تُستخدم الأعمال البصرية والمنطقية (والتي تستند إلى تخصص الجانب الأيمن من العقل) نجد أن معظم الرجال ما يزالون يخضعون لجانب "فص" معين بالمخ أكثر من معظم النساء، أما الذي يحاول بعض أصحاب النظريات عمله الآن، هو أن يجدوا وسيلة ليعرفوا لماذا تنتفع النساء من سعة مداركهم اللغوية بالأكثر بين نصفي المخ، في حين أن الرجال في ذات الوقت ينتفعون من ناحية أن قدراتهم المنطقية تتركز في النصف الأيمن من المخ. والمناقشة مُحرَّفة حتى أن كثيرين من علماء النفس

ولاسيما أولئك الذيـن هـم غـير مقتنعـين بـالأصل البيولوجي للاختلافـات الجنسـية المعرفية. أولاً ـ يتساءلون ما إذا كانت تستحق أن تستهلك كل هذا المجهود.

وإني لأتفق مع هذا الرأي، وليس معنى ذلـك أنـي أقلـل مـن أهميـة الأسـاس البيولوجي للسلوك، بل لأن فكرة انقسام المخ إلى : مخ أيمن ومـخ أيسر هـي فكـرة يمكن بسهولة ثبوت عدم معقوليتها. والواقع أن وسائل الإعلام الشعبية أعطتها أهمية أكثر من اللازم حتى أن علماء المخ والأعصاب الأكثر حرصاً أطلقوا اسماً علـى هـذه اللوثة، وقد أسموها "هوس تقسيم الشيء إلى جزئـين"، أمـا عـالِم الأعصـاب روجـر سبري Roger Speray، والذي نال جـائزة نوبـل علـى كتابـه "تخصص نصـف الكـرة الدماغي"، انتقد علناً الميل إلى الإفراط في الربط بين قدرات معينـة تبعـاً لكـل جـانب من المخ. وثمة تقسيمات أخرى، مثل الجبهة مقابل الظهر، القمـة مقـابل القـاع، قـد تكون جوهرية بنفس القدر، والأكثر أهمية، كما قال سبري، أن المـخ يعمـل ككـل متقارب وموحد وبطرق بالكاد بدأنـا في فهمهـا، والـتركيز بـأكثر مـن الـلازم علـى أجزائه المختلفة قد يؤدي بنا إلى إهمال هذا اللُغز الذي يُحير الجميع.

ومما يدعو إلى السـخرية، أن بعـض الاكتشـافات البالغـة الأهميـة للمختصـين بتشريح المخ، قد أوضحوا هذه النقطة بـالذات ـــ أن المـخ يعمـل ككـل ويجـد سُبلاً للتغلب على حدود أجزائه المختلفة. لأنه حتى تلك الدراسات التي تُظهر أن الرجـال يمتازون بالجانب الايمن من المخ أكثر من النساء بالنسبة للأعمـال المنطقيـة، كثـيراً مـا يخلصون القول إلى أنه لا توجد اختلافـات جنسـية في الدرجـات الإجماليـة. ومعظـم النُقاد يأخذون هذا على أنه إشارة إلى أن النساء كثيراً ما تلجـأن إلى الاسـتراتيجيات اللُغوية لحل مشاكل غير شفهية لها صلة بالعلاقات المنطقية. وإني لأجد في هذا خاتمة مهمة للغاية، لأنها تعكس اختباري الشخصي. فإني من هؤلاء الناس الذين يمكـن أن يُحمَلوا علـى تغيـير اتجـاههم في الأمــاكن الغريبــة، حتــى إنــي دائمــاً مــا أقــود

سيارتي وقد وضعت بوصلة على لوحة أجهزة القياس أمامي، وحذرت أولادي ألاّ يشتتوا انتباهي أثناء قيادتي لسيارتي حول مدن غير مألوفة لي. ومع ذلك فنادراً ما أضل طريقي وكثيراً ما سجلت نقاطاً أعلى من المتوسط في قياسات العلاقات المنطقية. وفي ذات الوقت أدرك أن الوسائل التي أتبعها لكل المشاكل المنطقية تتضمن محادثة شفهية، خطوة خطوة مع نفسي ("أتجه جنوباً في هذا الطريق الخالي، ثم شرقاً في ذلك الطريق" وهكذا. وهذه بتعبير آخر، استراتيجيات "المخ الأيسر").

وعلى النقيض من ذلك، أعرف أُناساً آخرين يبدون دائماً أنهم يعرفون الاتجاه الذي يقصدونه، بغض النظر عن عدد الجولات التي قاموا بها، وحتى لو كانوا في مكان يقع تحت الأرض بعدة طبقات. وحين سألت أحدهم كيف يتأتى له أن يفعل هذا، أجاب: "أعتقد أنه يتعين عليّ دائماً أن أستعمل المعلومات المتعلقة بالمكان على مستوى اللاوعي، لأني في الواقع لا أستطيع أن أشرح كيف يحدث هذا. وإجابته ـ من ناحية ما ـ لم تكن لتدهشني، لأنه إذا كان يستخدم بصفة أساسية استراتيجيات العقل الأيمن "الفص الأيمن"، فمن الطبيعي ألاّ يكون قادراً على تفسير كيفية عمله هذا، لأن النصف الأيمن من العقل هو الجزء غير اللفظي. غير إن إجابته كانت ظريفة أيضاً، لأنها كانت مثالاً رائعاً "لبديهيتي الذكرية" بالتناقض مع "عقلانيتي الأنثوية"، التي دائماً تحطِّم المهام المنطقية إلى خطوات منطقية.

خاتمة :

وهكذا مرة أخرى، نجد أن تعقيد الأداء البشري ينسى ملاحظة النماذج البسيطة، عن هوية الرجال والنساء، أو ما يجب أن يكونوا عليه. ولقد حرصت في هذين الفصلين الأخيرين أن أُلفِت الانتباه إلى الناحية البيولوجية لتفسير محتمل للاختلافات السلوكية الجنسية. ومع ذلك ففي كل هذه المجالات الثلاثة التي فحصناها : الجينات، الهرمونات، والمخ بجانبيه ـ اكتشفنا أن الاختلافات، حين

تحدث، تكون أصغر وأكثر تعقيداً مما حسبناه، وفي معظم الحالات لا يمكـن فصلهـا عن نتائج التعليم. علاوة على ذلك، ليس بمقدورنا الاستشـهاد بالناحيـة البيولوجيـة لنُبرر فشلنا الأدبي كرجال ونساء. وحياتنا قد حظيت بحرية رسمهـا الله، ومسئولية نعمل في إطارها، غير أنها في ذات الوقت تسمو على أصولنـا وقيودنـا البيولوجيـة. وكما سنرى في الفصل التالي، سوف يؤدي هـذا إلى اختلافـات ثقافيـة متقاربـة في الطريقة التي يفكر بها البشر عن الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة.

الفصل السادس:

الطبيعة والثقافة والنعمة المشتركة

حين تخرجت من الكلية وأنا في سن الثانية والعشرين، لم أكن قد خرجت من كندا إلا لزيارة بعد الظهر لحديقة الحيوان في ديترويت، وهي على مسافة ساعات قليلة بالسيارة من منزل العائلة في أونتاريو. كما أنه لم يسبق لي أن ركبت طائرة إلا في دورة سريعة في طائرة ذات أربعة مقاعد فوق المزارع والغابات التي تحف بالشاطىء الجنوبي الشرقي لبحيرة حورون. وبوسعي أن أعد على أصابعي عدد الأشخاص من ذوي البشرة السوداء ـ باستثناء الطلبة الدوليين، الذين تقابلت معهم في حياتي. ومع ذلك فبالكاد بعد تسلمّي شهادة في علم النفس وعلم الأحياء بثلاثة شهور، كنت جالسة في طائرة نقل تابعة لقوات الطيران الكندية في طريقي إلى جهة تقع في منتصف العالم، حيث تعاقدت كي أدرِّس الإنجليزية والفرنسية عدة سنين لطلبة مدرسة ثانوية أفريقية في جمهورية زامبيا المستقلة حديثاً.

وقد بدا الأمر وكأنه وصفة طبية لا تخيب لأزمة ثقافية، أليس كذلك ؟ غير أن الحقيقة هي أنه لا قراري الخاص بالتدريس في أفريقية، ولا استعدادي للذهاب إلى هناك قد أُتخذا بتسرع. فالوكالة التي تتكفل بي، وهي وكالة كندية تشبه فرق السلام، تُخضع المتقدمين لها لعملية فحص طويلة وبالغة الدقة. وما أن قُبلت، إلا وقضيت الشهور الثلاثة بين تخرجي ورحيلي، في الحصول على تدريب مكثّف للمدرسين، والتوجه الثقافي مع ما يقرب من مائة من المتطوعين الآخرين من أعمار

وخلفيات متباينة من جميع أنحاء كندا. وبعد وصولي إلى زامبيا، حيث عُينت في مدرسة ثانوية ريفية كبيرة يديرها جيش الخلاص، وكان توافقي الثقافي وتقدمي في التدريس تحت رقابة موظفين من الوكالة الكندية ووزارة التعليم الزامبية.

وفي الوقت الذي أنهيت فيه تعاقدي الذي استمر سنتين، كنت متأهبة لأن أبدأ تدريباً للخريجين بعد عودتي إلى أمريكا الشمالية، ولكن مع فرق، ذلك أنه نتيجة خبرتي الأفريقية، اخترت أن أقوم بدراساتي العُليا في الحقل التجريبي لعلم النفس الشامل ـ وعلاوة على ذلك، فقد قُبلت في برنامج دراسات إفريقية استطعت أيضاً أن أحضر دراساته. وفي غضون عام أو اثنين أصبحت مهتمة بالحركة النسائية التي بُعثت من جديد، والتأثير الذي بدأت تحدثه على الناحيتين الاجتماعية والبيولوجية. وكان من شأن كل هذا أن عدت إلى زامبيا لعمل بحث رسالة الدكتوراه عن تأثير الثقافة وأدوار الذكورة والأنوثة على الإدراك البصري.

وإبان تواجدي أيضاً في إفريقية أصبحت مؤمنة، وجاء ذلك بشكل جزئي نتيجة تأثير عائلة بريطانية أقنعتني، أن كوني مؤمنة ليس مرادفاً لأن أكون ضد ما هو عقلاني. فكان بالإضافة إلى المحبة العملية ومذهب الفعالية اللذين كان يتبناهما زملائي السابقون في هيئة التدريس من جيش الخلاص، مما قذفني ذلك إلى الملكوت مرة وإلى الأبد.

مطلوب : فكر لاهوتي للثقافة :

في فصول سابقة حددت نهجاً كتابياً لموضوعات الجنس وأدوار الذكورة والأنونة، واستخدمته لتقييم بعض كتابات العالَم الغربي التي كانت تنتشر بسرعة والتي كانت تتناول النواحي النفسية والبيولوجية للرجال والنساء. لكن سبق أن رأينا، حتى في دراسات مقتصرة على ثقافتنا الغربية، أن علم الأحياء يتسع ويُعاد

تشكيله بواسطة التعليم. ونحن نعرف أن الخبرات التي تُكتسب عن طريق التعلم تختلف، ليس بين الأفراد فحسب، بل ومن خلال الجنس والطبقة الاجتماعية أيضاً. وما مقدار التغيير الذي سنصادفه حين نخرج من أمريكا الشمالية وبقية العالم الغربي ؟ وكيف يتصرف المسيحي إزاء هذا التنوع في السلوكيات المتعلقة بأدوار الذكورة والأنوثة وغيرها ؟

في الفصول السابقة اتخذت موقفاً ثابتاً ضد الفكرة القائلة إن "الآليات ستحل محل الأخلاقيات". فكرة أنه بمقدورنا اللجوء إلى التقنيات الآلية لتفادي المسئولية بالنسبة للنساء أو الرجال. غير أن خبرتي الشاملة التي أضفت إليها رحلات ميدانية أخرى عند تخرجي، تركتني متشككة في الفكرة القائلة إن أمريكا في جذورها أمة مسيحية نموذجية، وأن تنظيمها السياسي والاقتصادي والاجتماعي (نسخة سابقة منه) يجب ببساطة أن يتبناه كل شخص آخر. فهل هذا يجعلني في أعماقي من أتباع مبدأ النسبية - أي الذي يؤمن بأن المعتقدات بالنسبة لما هو صحيح وما هو زائف، ما هو صواب وما هو خطأ، لا تُحدَّد إلا بالتجارب الثقافية المختلفة ومن ثم لا يمكن الحكم عليها طبقاً لأي معايير مطلقة ؟. من الجلي، أن مثل هذا الموقف لا يتناغم مع إصراري على أن الآليات التقنية لا يمكن أن تحل بدلاً من الأخلاقيات. بل ولا تتسق مع اعتقادي، كمسيحية، أن لدينا "إنجيلاً أبدياً ينبغي إعلانه ... لكل أمة وقبيلة ولسان وشعب". (رؤ ١٤: ٦).

والثقافة هي البوتقة التي يتحقق فيها كل نمو بشري. غير أنه قبل أن نختبر الأدب الثقافي الشامل على أساس أدوار الذكورة والأنوثة، نحن في حاجة إلى بعض المبادىء الكتابية كي نسترشد بها. غير أنه لكي نرسم خطاً دقيقاً بين المذهب النسبي الثقافي الكلي والتمركز الصارم حول العِرق (الاعتقاد بأن ثقافة الإنسان يجب أن تكون معياراً للآخرين كلهم)، هذا يحتاج أولاً إلى فكر لاهوتي للثقافة.

الخليقة، السقوط، أم كلاهما ؟

لنتأمل بدقة أكثر تكوين ١-١١، والتي تتعامل مع تاريخ الخلاص حتى زمن إبراهيم. تكوين ١-٣ تتحدث عن الخليقة وسقوط المرأة والرجل كأدوار ذكرية وأنثوية، وكشخصين كل يعتمد على الآخر. وبعد طردهما من الجنة فقط، بدأ يخلقان ثقافات أكثر تعقيداً. وهذا ما دفع بعض الناس إلى استنتاج أن التنوع الثقافي جاء وليد السقوط، ومن ثم فهو أمر يجب مع الأسف أن نتحمله، أو حتى نستبدله، بقدر الإمكان، بثقافة واحدة "مسيحية" تماماً (وهي ثقافة اتضح أن برنامجها يشبه وبشكل رائع الثقافة الوطنية لمن سيكونون دُعاة للمسيحية). ووجهة النظر هذه كثيراً ما تُدعَّم باللجوء إلى ما جاء في قصة تكوين ١١ عن برج بابل. فقد ذُكر لنا هنا أن البشرية، إذ تجمعت في مكان واحد وبلغة واحدة، قررت أن تبني "مدينة وبرجاً رأسه بالسماء .... ويصنعوا لأنفسهم اسماً". (تك١١: ٤). وإذ رأى الله، وعن حق، أن هذه تُعدُّ محاولة أخرى لاستبداله (وهذه المرة نتيجة غطرسة ثقافة بكاملها، وليس مجرد غطرسة زوجين)، فقرر أن يشتتهم ويقهرهم. وشرع ينوع لغاتهم حتى لا يمكن لمجموعة أن تفهم ما تقوله الأخرى، "ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض". (تك١١: ٩).

وليس ثمة شك في أن هذه القصة تصور الجذور الثقافية الأساسية للغلو في الوطنية، والتنافسية، مع كل ما يصحبهما من التمركز حول نوع الجنس، والحروب والاستغلال على نحو ما نراه على مجرى التاريخ. ولكن هل هذا يعني نفس الشيء مثل القول بأن كل نواحي التنوع الثقافي مرده السقوط ؟ ولو رجعنا قليلاً إلى الأصحاحات السابقة لتكوين١١، سنجد أن الأمور في الواقع أكثر تعقيداً مما توحي به وجهة النظر هذه. ولنتذكر من الأصحاح الثالث أنه عند الخليقة أصدر الله "تفويضاً ثقافياً" للرجل والمرأة : بأن عليهما أن يكوّنا عائلات، وأن يملآ الأرض،

ويخضعا وأن تكون لهما السيادة على كل حي. ونجد هنا "حرية في إطار العرف والتقليد : فإذ كانا مخلوقين على صورة الله، فقد كانت للمرأة وللرجل حرية العمل والاختيار من ناحية الإبداع والتنوع. غير أنهما إذ كانا مخلوقين مسئولين أمام الله، كان عليهما أن يُمارسا السيطرة في إطار المعايير التي وضعها لهما. ومع ذلك، فإنه حتى بعد طردهما من الجنة، لم يُسحب منهما هذا التفويض الثقافي. وبحسب ما قاله المفكر اللاهوتي هيرمان بفينك Bavink:

لم تُنفّذ عقوبتهما في الحال، أو بحذافيرها. فلم يموتا في نفس اليوم الذي ارتكبا فيه الخطية، بل ظلا على قيد الحياة، و لم يُرسلا إلى جهنم، بل عوض ذلك وجدا نفسيهما وقد كُلفا بمهمة على الأرض. وخلاصة القول إنه بدأت من الآن حالة لها طابع خاص جداً، وهي حالة امتزج فيها معاً، الغضب والنعمة، العقاب والبركة، الدينونة والصبر على الأذى. وهي الحالة التي ما زالت قائمة في الطبيعة، وبين الناس، وهي حالة تُدرك التناقضات الحادة التي فيها.

وهكذا، فإنه على الرغم من أن ثقافة ما بعد السقوط هي بركة مشوشة (تماماً مثل ما هو عليه حال الرجال والنساء بعد السقوط) إلا أنها لا تزال تحمل سمة حماية الله وموافقته باعتبارهما الوسيلة التي من خلالها تُعبِّر صورة الله في الإنسان عن نفسها. فضلاً عن ذلك، فإنه على الرغم من أن شر الإنسان كان من نتيجته الطوفان الذي نقرأ عنه في تكوين ٦-٨، حيث لم يُنقذ منه سوى "نوح البار" وعائلته، فإن الله يُكرر التفويض الثقافي بل ويوسعه في بداية الأصحاح التاسع، حين انحسر الطوفان. وبالطبع، عقب ذلك مباشرة رأينا الطابع المشوش لثقافة الإنسان. فقد أصبح نوح أول فلاح للأرض "وغرس كرماً" (تك٩: ٢٠)، ولكنه أيضاً سكر من الخمر الذي صنعه من ثمرها، وأخجل أبناءه بُعريه. ومع ذلك، تعهَّد الله بألاّ يبعث بكارثة أخرى لإدانة شر الإنسان، ولكنه بدلاً من ذلك وعد بتعاقب

أمين لفصول السنة، وحفظ "كل ذي جسد على الأرض" (تك٩: ١٧). و"عهد الطبيعة" هذا ـ كما يُطلق عليه أحياناً ـ يضمن انتظاماً للحياة على الأرض، الأمر الذي يجعل النشاط الثقافي للإنسان أكثر احتمالاً مما كان عليه الحال قبل الطوفان. وهنا أيضاً يعبر بافنيك عن ذلك بشكل حسن فيقول :

"الكارثة الرهيبة التي هزت الكون في السابق، أفسحت الطريق لمجرى منتظم للأحداث. وفترة حياة الإنسان قد قصرت، وقوته تناقصت، وطبيعته تشوهت، وهُذّب كي يتواءم مع متطلبات المجتمع، ووضِع تحت تأديبات الحكومة ... وأصبحت هناك خزانات وسدود لكبح جماح مجرى الآثام. وأصبح النظام، والقياس والعدد هم السمة المميزة للخليقة. فقد كبح الله الحيوان المفترس داخل الإنسان، وبذلك أعطاه الفرصة لتنمية مواهبه وطاقاته في الفن والعلم، في الدولة والمجتمع، وفي العمل والدعوة. وهكذا حقق الله الظروف التي جعلت التاريخ ممكناً

متى يأتي الملوك سائرين على الأقدام :

وهنا أيضاً، لا يعني هذا أن أية ثقافة (بما فيها ثقافتنا) قد استُثنيت من نتائج السقوط. غير أنه توجد حنطة مخلوطة بزوان : فكل النساء والرجال، سواء اعترفوا بالله صراحة أم لا، بمقدورهم القيام بالعمل الثقافي الذي باركه الله، بما في ذلك إبداع أدوار إنسانية مختلفة تعمل من أجل إيجاد مجتمع منظم وعادل. وهذا يشكل جزءاً مما أطلق عليه المفكرون اللاهوتيون "النعمة المشتركة". في فقرة شهيرة قبل نهاية سفر إشعياء، صُوِّر الله في نهاية التاريخ على النحو التالي :

"وتنفتح أبوابك دائماً. نهاراً وليلاً لا تُغلق. ليؤتى إليك بغنى الأمم وتُقاد ملوكهم". (إش٦٠: ١١). وطوال هذا الأصحاح، يرى إشعياء الله، وهو يتقبل بسرور أفضل ما استطاعت الجهود الثقافية للإنسان أن تنجزه. وفي خاتمة العهد

الجديد يؤكد الرسول يوحنا رؤيا إشعياء : الملوك سوف "يجيئون بمجد الأمم وكرامتها" (رؤ ٢١: ٢٦) إلى أورشليم الجديدة.

والكثير من هذه النتائج ستحتاج أولاً إلى تطهير، لأن يوحنا كتب أيضاً يقول : "ولن يدخلها (المدينة) شيء دنس" (رؤ ٢١: ٢٧). والسيوف ستُطبع مناجل، وليس من شك في أن بعض الحضارات لابد وأن تُسأل عن إساءة رجالها للسلطان، أو سوء استغلال النساء للناحية الاجتماعية (ارجع للفصل الثاني من هذا الكتاب). ومع ذلك، فلا شك أنه من وجهة نظر كتابية، إن الحضارات الأخرى ـ غير حضارتنا ـ جديرة بالدراسة والاحترام، وليس مجرد تنصيرها وطبعها بالطابع الأمريكي عليها. والواقع أنه ليس بمقدورنا، وعلى نحو صحيح، أن ننصِّر الثقافات الأخرى ما لم نقم أولاً بدراستها باحترام، وأن نكون مستعدين لتعلم أشياء فاتتنا، أو خبأناها، وأن الله ـ في نعمته ـ كشفها لمجموعات أخرى. وهذا ما ينطبق على دراسة أدوار الذكورة والأنوثة كما ينطبق على أي موضوع آخر.

الثقافة وأدوار الذكورة والأنوثة :

خبراء علم الإنسان والحضارة لهم دور شاق ولكنه لابد منه . وعلماء الاجتماع الذين يعملون في ثقافات أوطانهم يأخذون كقضية مُسلَّم بها أنهم يفهمون معنى الكثير مما يرقبونه. غير أن الزائر لحضارة أخرى يتوجب عليه أن يتعلَّم مجموعة جديدة كاملة (غير منطوقة في معظمها) من القواعد المتعلقة بما يُعتبر مؤدَّباً أو وقحاً، قواعد تتعلق بالكيفية التي يجب أن تتفاعل بها أجيال مختلفة وطبقات اجتماعية، وقواعد عن كيفية تفسير المأساة أو الازدهار، وبالطبع، معتقدات عن طبيعة النساء والرجال وسلوكهم الصحيح. والواقع، أن هناك مدرسة لعلم النفس الاجتماعي، ترى أن أهم سمة جوهرية للبشر أجمعين، هي اكتشافهم بوعي ذاتي داخلي للقواعد الاجتماعية وتطبيقها. فالثقافات والأفراد قد يتمسكون بآراء عالمية

متباينة، ومن ثم يبررون سلوكهم باللجوء إلى مجموعات مختلفة من القواعد المعقدة. غير أن ما يربط بينهم جميعاً، من هذه الناحية، هو اهتمامهم بأن يُنظر إليهم على أنهم "يعملون ما هوصواب" في نظر المجموعة التي ينتسبون إليها أو يودون الانتساب إليها.

ولكن علماء "علم الإنسان" لا ينصبّ اهتمامهم على التنوع الثقافي فحسب. ففيما يجمعون البيانات من الكثير والكثير من الثقافات ـ ولاسيما تلك التي تمارس بالأكثر أساليب البقاء الأساسية التي كان ينتهجها أجدادنا الأولون ـ تراهم يبدأون بالتساؤل ما إذا كانت هناك خيوط مشتركة تجري في سلوك وتفكير "كل" هذه الثقافات، وإذا كان الأمر كذلك، فما هو تعليل ذلك. تقول عالِمة الإنسان شيري أورتنر Sherry Ortner إن "الكثير من إبداعية علم الإنسان يتأتى نتيجة التوتر بين مجموعتين من المتطلبات: أن نفسر شمولية البشر، وأن نفسر الخصائص الثقافية. وثمة نموذج سلوكي معين ـ مثل الحرب ـ قد يكون شاملاً، أو يكاد يكون كذلك. لكن شموليته لا تعني بالضرورة أنها خُطِطَت بيولوجياً (وإلا نتوقع أن كل الثقافات مولعة بالحرب بنفس القدر في جميع مراحل التاريخ). بل وشموليتها لا تجعلها مبررة من الناحية الأخلاقية (على الرغم من أننا قد نجادل بالقول إنه مسموح بها أخلاقياً كأقل الضررين في بعض الظروف). إن مثل هذه "الموضوعات والاختلافات" هي التي يريد علماء الإنسان أن يشرحوها، وكثيراً (على الرغم من ادعاءات قيمة الحياد) ما يريدون أن يحكموا عليها.

"الجنس الثاني" على المستوى العالمي :

من بين الحقائق الإنسانية العامة الوضع الاجتماعي الأدنى للنساء بمقارنتهن بالرجال. مع أنه حتى في أبسط المجتمعات لا توجد أي أنشطة تقريباً تكون بشكل كامل خاضعة لسيادة النساء فقط أو الرجال فقط. والاستثناءات القليلة تتركز

حول حمل الأطفال، ومجالات رعايتهم، وهـي الـتي مـن الناحيـة البيولوجيـة قـاصرة على النساء. وأنشطة مثل شن الحروب، والحصول على المواد الخـام، والتعـامل مـع الحيوانات الضخمة، كلها من المجالات التي تتطلب قوة الذكور.

وعلى العموم أن أي شيء من "عمل الرجـال" يكـون في المرتبـة العليـا. وإذا كان الرجال في تلك الحضارة التي تسـمح لهـم ببنـاء المنـازل، والنسـاء هـن اللوتـي تصنعن السلال، فإن تلك الثقافة ستنظر إلى بنـاء المنـازل علـى أنـه أهـم مـن عمـل السلال. وفي ثقافة أخرى ربما تتغـير المواقـع حيـث تشـيد النسـاء المنـازل والرجـال يصنعون السلال، وبذلك تصبح صناعة السـلال في مرتبـة أعلـى مـن بنـاء البيـوت. (هذا المثال من أفريقيا الغربية حيث كنت أقوم بعمل بحوتي). وفي الحقيقـة أن هـذه الاختلافات هي ثقافة ذات أسس متعصبة: "هـم" لا يسـتطيعون أن يكونـوا آدميـين عاديين مثلنا، لأن رجالهم يعملون عمل السيدات ويجعلون نسـاءهم يعملـون عمـل الرجال.

ومن المهم أن ندرك أن هذه الفرضيـة حـول عالميـة المراكـز العليـا لنشـاطات الرجال ليست امتيازاً عادلاً، فهو مؤسس على ملاحظات منحرفة لعلمـاء الإنسـان الذكور. وهذا ما تقرره عالمات الإنسان النساء في كلمة لاثنين منهن :

في حين (أن جميع علماء علم الإنسـان) يوافقـون علـى أنـه توجـد مجتمعـات حققت النساء فيها سُلطة واعترافاً اجتماعياً كبيراً، إلا أنه ليس من بينهم من لاحـظ مجتمعاً اعتُرف فيه علانية أن للنساء قوة وسـلطة تفـوق مـا للرجـال. ونجـد في كـل مكان أن النساء تُستبعدن من أنشـطة اقتصاديـة وسياسـية هامـة، حتـى إن دورهـن كزوجات وأمهات مرتبط بسلطان وامتيازات أقل من أدوار الرجـال. ولذلـك فإنـه يبدو من العدل القول بأن كل المجتمعـات المعـاصرة هـي إلى حـد مـا تحـت سيطرة

الذكر، ومع أن درجة وتعبير خضوع الأنثى تختلف إلى حد كبير، إلا أن اللاتناسق الجنسي يُعد في الوقت الحاضر حقيقة عامة لحياة الإنسان".

مع ذلك، فإن العلماء في الماضي، نظروا بصفة عامة إلى هذه الحقيقة على أنها لا تُعتبر مشكلة، أي أنها غير جديرة باستكشافها إلى أبعد من ذلك. (لاحظ قيمة الحكم الضمني). وعلى العكس من ذلك، فإن خبيرات علم الإنسان (من النساء) اللواتي تدربن حديثاً، وبعض الرجال أيضاً، شرعوا يطرحون أسئلة أخرى حول هذا الموضوع العالمي. لماذا تقبل النساء ـ في مجتمعنا وفي كل مكان آخر ـ حالة الخضوع هذه وعن طيب خاطر؟ وما هي العوامل المشتركة التي تربط هذه الثقافات التي وُضع الرجال والنساء فيها على قدم المساواة ؟ وهل النساء حقاً لا قوة لهن بحسب ما يبدو لنا في الحياة العامة والخاصة، أم أنهن في الواقع تمارسن قدراً كبيراً من النفوذ السري، في حين يتملقن المعيار الثقافي لسيادة الذكر ؟

وعلماء الإنسان والثقافة ـ من الذكور والإناث ـ يوافقون بوجه عام على أنه ليس بكاف أن تلجأ إلى علم الأحياء لتفسير سيطرة الرجل. والغالب أن الرجال يتمتعون بقوة بدنية أكبر، وحركة النساء من المؤكد أنها تتقيد في بعض الأوقات نتيجة الحمل والرضاعة. إلا أن هذه الاختلافات البيولوجية لا تكتسب قيماً مختلفة إلا في إطار الثقافة الإنسانية. والواقع أنه، بالنظر إلى أن النساء فقط هن اللواتي تلِدن بشراً جدداً، فليس ثمة سبب فطري يمنع المرأة أن تأخذ قيمة أكثر من الرجال وليس أقل منهم. ومع ذلك فإنه مما يدعو إلى السخرية، أنه في معظم الثقافات تُعطي النساء اللواتي تلدن، تقريراً اجتماعياً أقل مما يُعطي للمحاربين الذكور الذين يخاطرون بحياتهم في عملية يدمرون فيها حياة الآخرين.

وقد جادلت على أسس كتابية بأن سيطرة الذكور، وقبول الإناث لها عن طريق الإغراءات الاجتماعية ترجع وبشكل جوهري إلى نتائج السقوط (انظر الفصل الثاني). ولكن بالنظر إلى الحرية التي يتمتع بها الإنسان لتشكيل الثقافة، فلن تأخذنا دهشة إذا اكتشفنا أن هذه الميول الساقطة تم التعبير عنها وبُررت بطرق عديدة ـ أحياناً يتزايد الميل، وأحياناً يقل، بالنسبة لإقامة عدالة صحيحة بين النساء والرجال. وقد اقترح علماء علم الإنسان على الأقل ثلاث نظريات تُبرر عالمية سيادة الذكر وخضوع الأنثى. ولسوف أتناول إحداها في هذا الفصل. أما النظريتان الأخريتان، فلأنهما تتضمنان تداعيات سيكلوجية كبيرة لكلا الجنسين، فلسوف نحددهما ونستخدمهما في الفصل التالي.

الطبيعة في مواجهة الثقافة :

يبدأ أحد تفسيرات خضوع النساء بالنظرية القائلة بأن النساء في كافة الثقافات يُنظر إليهن على أنهن أكثر من الرجال قرباً إلى الطبيعة، في حين أنه يُنظر إلى الرجال على أنهم منخرطون في الثقافة أكثر من النساء. زيادة على ذلك، فبالنظر إلى أن ما هو ثقافي يُقدَّر على مستوى العالم بأنه أكثر قيمة مما هو طبيعي فحسب، فكان من شأن ذلك، أن النساء، إذ إنهن أقرب إلى الطبيعة فقد ضعفت قيمتهن لارتباطهن بها. ولكي نوضح هذا التفسير، علينا أولاً أن نفهم كيف استُعملت كلمتا "ثقافة" و"طبيعة". ونجد أن شيري أورتنر Ortner التي توصلت إلى هذه النظرية بكاملها، تُشارك في الفهم المشترك بين العلماء بأن الثقافة :

هي عملية إيجاد ودعم اشكال ذات معنى (رموز، أشياء من صنع الإنسان...إلخ) والتي بواسطتها تسمو البشرية على عطايا الوجود الطبيعي، وتُخضعها لأغراضها وتتحكم فيها لصالحها. وهكذا بوسعنا أن نساوي الثقافة بجلاء بفكرة الوعي الإنساني، أو منتجات الوعي الإنساني (التكنولوجيا ونظم

الفكر، على سبيل المثال) والتي بواسطتها تحاول البشرية تأكيد سيطرتها على الطبيعة.

ولماذا يجب أن يُنظر إلى النساء على أنهن أقرب إلى الطبيعة من الرجال ؟ أولاً، لأن أجسامهن منخرطة بالضرورة بما تسميه أورتنر "صور الحياة" : "الحيض، والحمل والرضاعة ما هي إلا وظائف منتجة تشارك فيها النساء وبدرجة ونيقة مع إناث الحيوانات الثديية. فضلاً عن ذلك، تأخذ الوظائف الإنتاجية من حياة النساء البالغات أكثر مما تأخذه من الرجال، ولاسيما في الثقافات التي تفتقر إلى وسائل تنظيم الحمل والتي فيها لابد وأن يُطعَم كل طفل عن طريق الرضاعة من ثدي الأم مدة سنتين أو نلاث بعد الولادة. والإنجاب قد يقصر إلى حد بعيد من حياة النساء، إذا ما أخذنا في الاعتبار مخاطر الولادة في معظم الثقافات على مدى التاريخ. وعلى النقيض من ذلك، نجد أن دور الرجال في الإنجاب لا يتضمن إلا القليل جداً من الوقت والجهد والمخاطر الجسدية. وهكذا توفر لهم المزيد من الحرية والطاقة لاستثمارهما في التكنولوجيا والتجارة، والألعاب الرياضية والفن والسياسة والدين. وكل من هذه الأنشطة الثقافية تفصل بني الإنسان عن الحيوانات. ومن ثم فإنه (والناس الذين يمارسونها بالأكثر) يُنظر إليهم على أنهم "أسمى" إلى حد ما.

وإنه لمن الواضح تماماً بالطبع أن النساء تمارسن الثقافة أيضاً. وفي معظم المجتمعات تجد أنهن اللواتي يحولن الطعام من مواد أولية إلى مواد مطبوخة، وهن اللواتي يغرسن السمات الاجتماعية في الأطفال، وهن صُنّاع الكثير من منتجات الإنسان، بل إنهن (والشائع عكس ذلك) الموردات الأساسيات للطعام من الزراعة أو الجمع. غير أنه بسبب القيود التي يفرضها الإنجاب، فإن غالبية عملهن الثقافي يتم في وحدة المسكن أو على مقربة منه، وهن يجمعن بينه وبين العناية بالأطفال. ثم إن الأطفال الصغار أنفسهم يُنظر إليهم كجزء من الطبيعة "قبل البشرية"، فهم يُولدون

غير مكبوحين، وغير اجتماعيين إلى درجة كبيرة، ومثل الحيوانات لا يستطيعون السير وهم منتصبو القامة، ويتكلمون كلاماً غير مفهوم، ولا يتحملون مسئولية اجتماعية. وهكذا يُنظر إلى النساء على أنهن نسبياً أقل ارتباطاً بالثقافة، أو أكثر ارتباطاً بالطبيعة، ليس فقط بسبب انخراطهن في عملية الإنجاب، بل لعنايتهن اللاحقة بأطفال غير مثقفين. والواقع أن النساء أنفسهن كثيراً ما ينظر إليهن على أنهن "مثل الأطفال" لتقيدهن الكبير بقاعدة البيت وارتباطهن المستمر بالأطفال في هذا الإطار.

وهذه الفكرة، القائلة بأن النساء أقل ثقافة، وأكثر شبهاً بالأطفال تكاد تكون مقبولة على المستوى العام لدى النساء والرجال. ومع ذلك فهذه وجهة نظر مليئة بالمتناقضات. ففي المقام **الأول**، من الواضح أن غرس الصفات الاجتماعية في الأطفال من العمليات التي تتطلب معرفة مُفصلة بالثقافة الشاملة. ولا يمكن لشخص غير مثقف أن يقوم بعمل طيب في تنقيف الجيل القادم. **ثانياً**: إذا قبلنا فكرة أورتنر بأن الثقافة يمكن مساواتها بالوعي الإنساني، فإن وعي النساء الثقافي والحال هذه يُرى في نفس الحقيقة القائلة بأنها اتبعت منطق الحجج الثقافية، ووصلت إلى نتائج الثقافة إلى جانب الرجال (عن وضعها). وبعبارة أخرى، فهي تفهم، وتقبل، وتقدم نفس الأسباب، كما يفعل الرجال بالنسبة للوضع المختلف للجنسين. وهذا بالكاد ما يُتوقع من أناس يفتقرون إلى الوعي الثقافي بنفس الدرجة التي يكون الأطفال عليها. فلابد وأن هناك شيئاً آخر يعمل في هذه الناحية.

ناقد حسب الكتاب المقدس :

لنتذكر أنه من وجهة النظر الكتابية إن الحنطة والزوان ــ الخير والشر ــ مختلطان في كل الثقافات. وتذكر أيضاً أنه في أعقاب السقوط وافق الجنسان على أن يتبدل السلطان الممنوح من الله للرجل إلى سيطرة، وتحول النساء من النزعة

الاجتماعية (حب الاختلاط بالآخرين) إلى الإغراء الاجتماعي. وهكذا، فمبرر "الطبيعة ضد الثقافة" الذي قُبل بشكل عام لتفسير المركز الأدنى للنساء، من الأرجح أن يكون تبريراً غير مقصود لحالة السقوط بالنسبة لكليهما. وهذا يكون مقبولاً بالأكثر حين ندرك أن المسيحيين أيضاً، بالنسبة للغالبية منهم، أسهموا في هذا الفكر، وقدموا نفس الحجج التي تسانده عبر التاريخ، غير أنه مما يدعو إلى السخرية، أن رموز العهد الجديد التي ترمز إلى المؤمن، لم تُستمد من الأنشطة التي يتسيدها الذكور مثل الحروب، السياسة، التجارة العالمية، أو حتى الفنون السامية ــ فهي تتعلق بصفة رئيسية بالولادة (الشهادة، حتى يمكن لآخرين أن "يولدوا ثانية") والتنشئة (تقويم الآخرين بصبر)، الاهتمام بجسد المسيح (اتكال المؤمنين بعضهم على بعض) واتخاذ المكانة الأدنى، أي مكانة الخادم ـ فكل الأنشطة اعتبرت على أنها مجال طبيعي لتمارس المرأة نشاطها فيه. إلا أن المسيحيين لابد وأن يصيروا مثل "الأطفال"، وعليهم ألا يظنوا أن ثقافتهم أو قوتهم العالمية بمقدورها أن تخلصهم، وعوض ذلك عليهم أن يتبنوا وضع التلميذ المتلقي.

أما وأن حكمة هذا العالم يجب أن تُقلب رأساً على عقب على هذا النحو، فقد كان ذلك يشكل صدمة لكثيرين من تلاميذ المسيح. وقد شعر أحدهم بأن له الحق في أن يخونه لأنه فشل في أن يحقق الملكوت بقوة السلاح، وهذا ما كان يتوقع منه كمسيا وكرجل ممتاز. وإني لأشك في أنه حتى يومنا هذا، يكون من الصعوبة لكثيرين من الرجال قبول الرأي القائل بأن الإنسان إذ يصبح مسيحياً مؤمناً فإنه بهذا يصبح بالأكثر مثل امرأة أو طفل في عيون العالم. ونفس الفكرة ـ وهي غريبة وتُشكِل مركزاً وضيعاً في تفكير كل ثقافة تقريباً ـ تُعد حجر عثرة تقف عائقاً بين الكثيرين وبين مجرد التأمل في حقوق الإنجيل. وإنه حتى بين الرجال الذين أصبحوا مسيحيين ملتزمين، فإني أشك في أنه ما زال بينهم البعض ممن يشعرون بالتضارب

من ناحية أنهم بذلك أصبحوا "مخنثين" تبعاً للمفهوم الثقافي للأمم. علـى أي حـال، ألم يكن فرويد هو الذي قال إن مجالات النساء هي : الأطفال والمطبخ والكنيسـة ؟ ومن الجلي أن مضمونه يعني أن الرجـال الحقيقيـين يستمرون في أعمـال النسـاء أو ميادينها وهم يعملون بها ولو على سبيل الهواية.

وكثـيراً مـا كنـت أستغرق في التفكـير قائلـة كيـف عـالج المسيحيون هـذه الصراعات. وإنه لمن الصعب أن تسأل معظمهم بصفة مباشـرة، لأن احـترام الـذات مرتبط جداً بالهوية الجنسية حتى إن أي تهديد لهذه الهوية، كثـيراً مـا ينكرونـه علـى مستوى الشعور والوعـي، ولا يتـم التعـامل معـه إلا بآليـات الدفـاع في ظـل مـن اللاوعي. إلا أنه لديّ بالفعل بعض الافتراضات بخصوص سلوكهم على هذا النحو. فمـن بين الطـرق الـتي يستطيع بواسـطتها الرجـال أن يُخففـوا مـن الصـراع بـين ذكوريتهـم الثقافيـة وتـأنثهم كمسـيحيين هـي أن يُحولـوا الكنـائس والوكـالات المسيحية الأخرى إلى مؤسسات ذات رئاسات متدرجة يكون وضـع النسـاء متدنيـاً في هذا التدرج قدر الإمكان. وإذ هم بهذا يبعدون بين أنفسهم وبين النساء اللواتـي هن أخواتهم في الإيمان حيث يشعر الرجال بأنهم أنفسهم أقل ميولاً لمناصفة المرأة.

وبشكل أكثر وضوحاً، بمقدور الرجال أن يُفوضوا المهام الأكثر اختصاصاً ــ مثل أعمال التغذية الخاصة بالكنيسة بدءاً من الرعاية بالأطفال والمرضـى، إلى إعـداد الطعام وخدمته ـ بشكل أكبر إلى النساء، (مما يدعو إلى السخرية، أنهم بهذه العملية يُقللون من تدريب رعاة المستقبل من الذكور، بالنسبة للمهارات الاجتماعية ورعاية الآخرين وهما من لوازم وظيفتهم). أما المهام ذات الصفة الرسميـة، والمرئيـة، والـتي تُدفع لها أجور جيدة ـ مثل النواحي اللاهوتيـة والوعـظ، واتخـاذ القـرارات الإداريـة الهامة ـ فتتركز حينئذ في أيدي الذكور. إضافة إلى ذلـك، فإنـه حـين يتطلـب الأمـر استخدام لغة خاصة وتدريب (الأمر الذي لا يُتاح إلا للرجال) لكي تكـون إدارياً،

أو راعياً، أو مفكراً لاهوتياً، فإن "ثغـرة الأمـان" بـين النسـاء المسبحيات والرجـال المسيحيين (الذين يخشون من أن يظهروا في شكل غير ذكوري) تكون قد اكتسبت مزيداً من الأمن، فلا يقترين إليها.

وهنالك طريقة أخرى يمكن للذكور أن يتكيفوا بها مع الرؤية الثقافية القائلـة بأن المسيحيين قد "تخنثوا" عندما يصيروا أزواجاً وأباءً شرعيين ملتزمين. على الرغـم من أنه في سلسلة الأوامر الثقافية قد يكون للرجل وضع متـدن "كمسـيحي مخنـث" إلا أنه ما زال بمقدوره أن يؤكد رجولته بأن يكون المسـيطر تماماً في بيتـه. والقـول المأثور بأن "بيت الإنسان قلعته"، يبدو أن الرجال المسيحيين تقبلوه أيضاً دون تردد. وفي قلعته، كثيراً ما يكون بمقدور الرجل أن يمـارس سـلطانه كمـا لـو كـان مَلِكـاً. وعلى سبيل المثال، أود من كل قلبي أن أستطيع القول إن الإحصاءات الخاصة بسوء معاملة الزوجة أوللاب والابنة يقل بدرجة هائلة حين يكون هناك انتمـاء للكنيسـة. ومن الطبيعي، أن مجرد الارتباط بالكنيسة لا يُشكل ضماناً لإيمان عميـق وجوهـري في الرجل. إلا أن الأمر ما زال يُشكل صدمة أن نكتشف كيف أن فرقاً ضئيـلاً هـو الذي تحقق نتيجة ذلك بالنسبة لاحتمالية مثـل هـذا السـلوك (انظـر أيضـاً الفصلـين الحادي عشر، والثاني عشر). وهنا نعـود للقـول بأنـه لابـد وأن يكـون وراء ذلـك شيء آخر، وأن جزءاً من هذا الشيء الآخر، قد يكون مسلكاً دفاعياً عن الذكورة، وصل في هذه الحالة إلى وضع مَرضي متطرف.

أخيراً، يمكن للرجال أن يواجهوا خشيتهم من أن يُؤنّثـوا كمسـيحيين وذلـك بإقامة تقليـد خـاص "بالمسيحية العضليـة" يكـون فيـه الرجـل المسيحي النموذجـي (بمعونة الله بالطبع) قد أكد وضعه بأنه ليس أقل، بل أكثر رجولة مـن ناحيـة القـوة البدنية والمهارة، أكثر من نقاده المعاديين للمسيحية. والرغبة في مسيحية تتميز "بقوة العضلات" قد تؤدي بالوعاظ والمفكريـن اللاهوتيـين إلى أن يُقللـوا مـن التـأكيد أو

حتى يتجاهلوا رموز الكتاب المقدس التي تؤكد على دور المرأة في الحياة المسيحية، كتلك التي ذكرتها آنفاً. ومن منا لم يسمع عدة مرات عظات عن تشبيه "سلاح الله الكامل" الذي استخدمه الرسول بولس في أفسس٦، أو صورته البلاغية في (١كو٩) عن العدَّاء المنضبط الذي دخل المنافسة لكي يحصل على المركز الأول ؟ وعلى نقيض ذلك، كم من مرة سمعنا عظات تستعمل التشبيهات الكثيرة عن ولادة الطفل لوصف كفاح الله للتغلب على الخطية وتحقيق ملكوته النهائي من خلال ابنه وكنيسته، كما جاء في ميخا ٥، أو رؤيا١٢، وهذه صور، يبدو أن كثيرين من المفسرين الذكور يرونها ليست ذات أهمية، بل وقد يجدونها بغيضة.

لماذا يتقبل النساء هذا ؟

من الطبيعي أنه إذا كان تحليلي للسقوط صحيحاً، هنا تكون النساء في كثير من الأحوال مسئولات كالرجال عن السماح باستمرارية هذه النوعية من الأوضاع. وباهتمامهن بالمحافظة على العلاقات (حتى لو كانت رديئة) بل بعمق أكثر مما تنشده عدالة الإنجيل ـ بل وأحياناً أكثر من كرامة صورة الله التي فيهن ـ ألسن بهذا تساهمن في نفس الظروف التي تُقلِل من شأنهن ؟ وأليست حقيقة أن النساء تفقن الرجال عدداً في معظم الكنائس تشكل تأكيداً آخر على ميلهن في أن يكن تابعات ضعيفات للرجال، حتى وإن كان الرجال يشكلون الأقلية ؟

ولا ريب أن هذين الاتهامين كليهما ينطبقان على نساء مسيحيات كثيرات ـ وربما حتى بالنسبة لجميع المسيحيات لبعض الوقت (ومن المؤكد أنني لا أستطيع أن أستثني نفسي منهن). ولكن انجذاب النساء للمسيحية لا يمكن التقليل من شأنه لمجرد اعتباره امتثال في ظل الخنوع. وحين تقرأ النساء الكتاب المقدس بإمعان، ستجدن فيه رسالة رجاء لهن. لأنه فيما يتقدم من التكوين حتى سفر الرؤيا، نجد أن القصة الكتابية هي قصة الانخراط المتزايد في ملكوت الله (انظر أيضاً الفصل الاثني

عشر). إنها الحقيقة أن النبيات والقاضيات كن نادرات في العهد القديم ـ ولكن هذا كان الحال أيضاً بالنسبة لاندماج الأمميين في الشعب اليهودي. ومع ذلك فإننا حين نقرأ سلسلة أنساب يسوع سنجد أسماء من الأمم مثل راعوث وراحاب، ومن هنا نستنتج وعن صواب أن هذه صورة أشياء ستأتي وتتحقق. فالله يستعد ليفتح أبواب الملكوت لتتجاوز حدود الأمة اليهودية. وإذا كانت نُدرة القادة النساء في العهد القديم تعني شيئاً مختلفاً بشكل جذري ـ أنهن أُقمِن لخزي الرجال فحسب حتى يتحملوا مسئوليتهم مثلاً ـ هنا من المؤكد أن نتوقع أن يسوع كان في هذه الحالة أن يوضح أنه على النساء أن تلتزمن مكانهن، ومع ذلك فإنه لم يفعل شيئاً من هذا. وليس ما يدعو إلى الدهشة أن النساء كن يتبعنه جماعات وهنا نجد كلمات دوروثي سيزس الجديرة بأن نذكرها :

مما لا يدعو للدهشة أن النساء كن أول الموجودات عند المهد، وكن الأخيرات ممن بقين عند الصليب. فلم يسبق لهن أن عرفن رجلاً مثل هذا الرجل، لم يحدث على الإطلاق أنه كان هناك آخر. كان نبياً ومعلماً لم يظهر ضيقه بهن إطلاقاً، ولم يكن أبداً يتملّق أو يتعالى، ولم يقل نكات خبيثة عنهن أبداً، ولم يحدث أن عاملهن على أساس القول : "النساء، أعاننا الله عليهن"، أو "السيدات، باركهن الله"، كان يوبخ دون نكد، ويمدح دون أن يُسيء إلى نفسه. كان يأخذ أسئلتهن وحججهن بجدية، ولم يخطط لهن إطلاقاً ليخجلهن، لم يحتهن على أن تكُن ذوات أنوثة، أو كان يسخر منهن لأنهن إناث، لم يكن يظلم أحداً، ولم تكن له ذكورة متقلقلة ليدافع عنها، كان يقبلهن على ما هن عليه ... وكان دائماً يُنكر ذاته ... وما من أحد كان بمقدوره أن يخمن من أقوال يسوع وأعماله، أنها تضمنت أي شيء "مُضحِك" عن طبيعة النساء.

غير أنه، إذا تكلمنا عن خشية الرجال من أن يؤنّث، وعن نفـور النسـاء مـن المهادنة

على حساب علاقاتهن، اقترحت موضوعات أرغب في أن أستوفيها بشـكل أكمـل في الفصل التالي. وسبق في وقت مبكر أن أشرت إلى أن علماء علم الإنسان لديهـم نظريتان أُخريان إلى جانب نظرية، الطبيعة / التنشئة، لشرح شمولية تسـلط الذكـور وخضوع الإناث. فدعنا نتأمل بتدقيق الآن في هاتين النظريتين.

الباب الثالث

أباء و شركاء

٧ – استمرارية النظام الأبوي

٨ – المشاركة في الدور الأبوي

٩ – الزواج والعائلة وملكوت الله

الفصل السابع:

استمرارية النظام الأبوي

كلما حضرت كنيسة غير كنيستي، حاولت أن ألقي نظرة على دار الحضانة قبل بداية الخدمة. وإذا لم أستطع أن أعرف المكان الذي يتم رعاية الأطفال فيه، كنت على الأقل أكتفي بأن ألقي نظرة على قائمة العاملين بدار الحضانة. ولم يكن دافعي إلى ذلك هو مجرد حبي لمراقبة الأطفال وهم يلعبون (على الرغم من أن هذه متعة أيضاً). ولكن اهتمامي الأساسي كان منصباً على معرفة من الذين يقومون فعلاً برعاية هؤلاء الأطفال. ومن خلال زياراتي للكنائس، اكتشفت أن القواعد المنظمة للخدمة بدور الحضانة قد تغيرت على مدى السنوات العشر الماضية أو نحو ذلك. وإلى عهد قريب، كانت معظم الكنائس تأخذها كقضية مُسلَّم بها أن رعاية الأطفال هي من مسئوليات النساء. وهكذا رأينا نساء من جميع الأعمار تضفن أسماءهن على قائمة من يخدمون بالعمل في الحضانة، أما الفتيات الصغيرات فيأخذن هذا على أنهن "قد كبرن" حين يُسمح لهن بالانضمام إلى هذه الخدمة. وعند الحاجة، إذا تخلفت امرأة ممن أدرجت أسماؤهن في جدول الخدمة عن الحضور، ولم تكن هناك امرأة أخرى كي تحل محلها، كانوا يلجأون في العادة إلى أحد الآباء ليسد هذا العجز ـ ولو أن ذلك كان يتم بعد الاعتذار المناسب.

إلا أنه في كثير من الكنائس في أيامنا هذه يبدو أن النمط يسير على هذا المنوال : العناية بالأطفال الأصغر تتم بصفة رئيسية بواسطة البالغين من كلا

الجنسين، الذين سبق أن كانت لهم خبرة بالأطفال الرُّضع (وهذا أمر معقـول تماماً، إذا ما أخذنا في الاعتبار احتياجات مثل هـذه الكائنـات البشـرية الصغـيرة). وعلـى العكس من ذلك، فإن الأطفال الذين تعلموا المشي حديثاً لا يتـم الإشـراف عليهـم بواسطة أمهات وآباء، بل بواسطة أطفال أكبر ومراهقين من كلا الجنسـين. والقيـد الوحيد على ما يبدو (وهو أيضاً معقول تماماً) هو أنه يتحتم وجود شخص بـالغ ذو خبرة ـ وربما اثنين، وهذا يعتمد على حجم عدد الأطفال الذين هم من هذه النوعية ـ وذلك للإشراف على العاملين الأصغر سناً. وابناي همـا مـن بـين المتطوعـين عـن طيب خاطر للخدمة في حضانة الأطفال الذين تعلموا المشـي حديثـاً، في حـين أنـي أشك أن من بين تحفيزهم على ذلـك عـو تجنـب الجلـوس أثنـاء العظـة، إلا أنـه مـن الواضح أن هناك عوامل أخرى وراء تطوعهما. فابني الأكبر قريب من السـن الـذي يستطيع فيه قانوناً أن يبدأ كجليس للأطفال، الأمر الـذي يفضلـه علـى عمليـة جـز العشب، أو جرف الثلج كعمل يُحقق له كسباً مالياً. وهـو يـرى أن سـجلاً طويـلاً من الخدمة الناجحة في الحضانة سيعزز موقفه، بالنسبة للعمل الذي يهدف إليه. أمـا ابني الأصغر فهو على قناعة أن نظام الحضانة سيتفسخ إلى نـوع مـن الفوضـى دون مساعدة أولاد كبار مثلـه. وأكـثر مـن مـرة، وبنغمـة التشـامخ في صوتـه قـال لي : "هؤلاء البنات والبالغون ـ لن يستطيعوا الصمود أمام هؤلاء الأطفال الصغار كثيري الحركة واللعب".

والكنيسة في أفضل حالاتها، هي عائلة موسَّعة، ومؤسسة عامة، قد أوجدهـا الله على هاتين الصورتين. وعلى الرغم من أن نماذج الدور الأبـوي هـي بـلا ريـب أول النماذج وأكثرها تأثيراً في الحيـاة المسيحية الأبويـة، إلا أنـه لم يقصـد منهـا أن تعمل في عزلة عن الآخرين، لأنه بسبب الانفرادية المُغالى فيها في عصرنـا، وبسـبب التسرخ بين الحياة العائلية الخاصة وحياة العمل لكسب العيش أصبح الاعتراف بهـذا

الاتكال المتبادل بين الطرفين ينال احتراماً أكثر في خرقه وليس في المثول لـه. ولكنـه لا يزال المعيار الذي يضعه الكتاب المقدس، وحيث يُمارَس بفعالية ـ حتى في حضانة الكنيسة ـ فإنه سيُخفف من التأثيرات التي يتعرض لها الأطفال نتيجة قوى نفسية واجتماعية سالبة سأقوم بوصفها في هذا الفصل.

لقد تعلمنا في الفصل السابق أن من بين وسائل تبرير الاختلافات في السلطان والوضع بين الجنسين إبراز تفوق الثقافة البشرية على الطبيعة "الخام"، حيث ربط بين الرجال والثقافة وبين النساء والطبيعة. وعرفنا أيضاً أن هذا من السهل جداً عمله في معظم المجتمعات، بالنظر إلى أن أنشطة النساء الثقافية يحِد منها الحمل ورضاعة الأطفال الصغار. وبالنظر إلى أن الأطفال أنفسهم يُولَدون غير مثقفين، فإن النساء اللواتي تعنين بهم تبدَون أقل ثقافة نتيجة الارتباط بهم.

والعلماء الذين قدموا هذه النظرية أسرعوا إلى الإشارة إلى أنها ليست تقليلاً من شأن الجانب البيولوجي، وهي لا تُبرر النتيجة القائلة إن "تركيب بنية الإنسان إنما هو قَدَر"، أو أن علم الأحياء لا يضع إلاّ مجموعة محدودة من الأدوار للرجال وللنساء لا تتغير إطلاقاً. وبيولوجية الإنجاب تجعل بالفعل فروعاً معينة من العمل أكثر فاعلية، ومن ثم أكثر ملائمة، ولاسيما في الثقافات التي تعتمد في إعالتها على العمل اليدوي، ولا تُخزِّن أو تحفظ كميات كبيرة من الأطعمة. إلا أنه حتى المجتمعات التي تعتمد على أساليب بسيطة في إعاشتها، ترتب أدوار الذكورة والأنوثة بطرق متباينة كثيرة، وعلى الرغم من استمرارية الاختلافات البيولوجية بين الرجال والنساء. وهذه الحقيقة وحدها تناقض الحكمة القائلة "بأن تركيب بنية الإنسان إنما هو قدر". إضافة إلى ذلك، وكما عرفنا من الفصل السادس، أن جميع المجتمعات لديها نوع من تقسيم الأدوار بين الذكورة والأنوثة في العمل، تعكس

بصورة غير مباشرة ناحية بيولوجية لا يمكن أن تُبرر حقيقة أن أنشطة الرجال هي التي تلقى تقديراً عالياً على مستوى العالم.

ما يتجاوز علم الاجتماع البيولوجي :

ولكن بعض علماء الاجتماع والأحياء حاولوا الجدال بالقول إن هناك أساساً بيولوجياً للمنزلة العالية لعمل الرجال، وهو أساس يعكس أسلوب حياة وإعاشة أجدادنا الأولين الذين كانوا يعتمدون على الصيد والجمع،ومازال هذا محفوظاً في جيناتنا. ومعنى حجتهم تقريباً ما يلي: الرجال أقوى جسمانياً وأكثر حركة من النساء. ولذلك فإنهم يُقدمون للجماعة طعاماً أكثر، ولاسيما البروتين الضروري الذي يحصلون عليه من الصيد. وبدون هذا الطعام ستتضور الجماعة جوعاً وأخيراً يكون الموت مصيرها. وعلى هذا، فإن المكانة العالية لعمل الرجال تأتي بالطبيعة من أهميتهم البالغة تاريخياً كموردي طعام. علاوة على ذلك، فإن أشخاص كل من الجنسين الذين يدفعهم تكوينهم الجيني إلى تقييم الرجال أكثر سُيزيد احتمال بقائهم بسبب التشجيع الذي يولونه للرجال للقيام بالعمل الصعب المتمثل في الصيد. ومن ثَم ليس هناك ما يدعو إلى الدهشة في أن هذه الجينات التي "تعطي قيمة أكثر للذكور" صمدت إلى يومنا هذا، وهناك احتمال قليل في أنها ستزول من بنية الإنسان في وقت قريب.

ولكن على غرار معظم نظريات علماء الاجتماع والأحياء، لا تخضع هذه النظرية للفحص التجريبي. فحين يرقب العلماء بدقة أكثر عادات الأكل لدى من يعتمدون على الصيد والجمع، سيجدون أن الصيد ما هو في الواقع إلا نشاط متقطع غير منتظم. ومعظم غذاء الجماعة (البروتين وغيره من الأطعمة الأخرى) يأتي من جهود الجمع التي تقوم بها النساء لا الرجال بصفة يومية. وكما سنرى بعد ذلك وفي هذا الفصل، فإن وضع النساء قريب جداً من وضع الرجال في الجماعات التي

تعتمد على الصيد والجمع أكثر منه من الجماعات الأخرى ـ ولكن ليس هـذا مـرده ببساطة دورهن في إمداد الطعام. والواقع، أنه حـين شـرعت الجماعـات في الزراعـة عوض الصيد والجمـع، فـإن النسـاء، في المعـدل، تعملـن العمـل اليـدوي أكـثر مـن الرجال (وهذا على الرغم من أنهن أقل قوة، وبرغم قيود الحمل والرضاعـة). ومـع ذلك فكلما زاد عملهن، كلما انخفض وضعهن الاجتماعي، تمامـاً مثلمـا لا يحصـل العبيد على وضع نتيجة عملهـم بجهـد أكـبر في الحقـول، وهـذا هـو الحـال بالنسـبة للنساء أيضاً. وكان هذا يُفسَّر ببساطة على أنه أمر "طبيعـي" (أو كـان يُقـرر بعيـداً عن كل منطق) بأنه على النساء أو العبيد أن يزحِن من على كاهل الرجال البـارزين اجتماعياً عبء القلق من ناحية إنتاج الطعام. وهكـذا فـإن شـيئاً مـا غـير المسـاهمة بالطعام لابد وأن يكون وراء اختلاف الأوضاع بين الرجال والنساء.

الحياة العائلية بالمقارنة مع الحياة العامة.

التشبيه الكتابي للكنيسة بأنها كجسد، يُعرِّفنا بأنه ليس أي عضو مهما كـان متواضعاً أو غير مرئي له أهمية أكبر من أي عضو آخر : "فـإن كـان عضـو واحـد يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه. وإن كان عضو واحد يُكرَّم فجميع الأعضاء تفـرح معـه". (١كـو١٢: ١٦ انظـر أيضـاً روميـة١٢). منـذ سنوات قريبـة لجـأ بعـض المسيحيين إلى هذا التعليم للدفاع عن تقسيم العمـل المعتـاد، بـين الرجـال والنسـاء. وقالوا إن المرأة كمسيحية ليست "مجرد ربـة بيـت" فحسـب. وأي رجـل مسـيحي يجب عليه ألا يُضفي على نفسه مزيداً من الأهمية لأنه أكثر أعضاء العائلة الظاهرين كسباً للطعام. وبالنظر إلى أن البروتستانتية تُشدِّد على أن جميع المؤمنين كهنـة، فـلا يجب على أي راع أن ينظر إلى نفسه على أنه أرفع منزلة لدى الله، بل عليه، مثلمـا فعل المسيح الذي "أخلى نفسه آخذاً صـورة عبـد" (انظـر فيلبي٢: ٣-١١). فكـل هـذه الأمـور تعـد حقـاً كتابيـاً، ولكـن هـذا مـا لم يمارسـه المسـيحيون دائمـاً، لأن

المسيحيين لا يمكنهم إنكار أنهم يتأثرون بالمؤثرات الثقافية الأوسع نطاقاً، وحينما يفعلون ذلك، أو حينما ينكرون أثر السقوط على العلاقات بين الذكر والأنثى، تكون هناك مشاكل معينة تم تجاهلها. وهم بكل بساطة "يمثلون رأياً غير مُعترف به جماهيرياً" ويجعلون كثيراً من الرجال والنساء يشعرون بالتعاسة، بل ويشعرون بالذنب لعدم شعورهم بالرضا على "مشكلة ليس لها اسم".

فما هي تلك المشكلة ؟ وهذا يأتي بنا إلى نظرية ثانية تحاول أن تشرح التقليل العالمي من قدر النساء بالمقارنة مع الرجال. وتبدأ النظرية بالمقابلة بين المجال الخاص أو العائلي لحياة الإنسان، وبين حياته العامة. ولكي نفهم هذه النظرية وتداعياتها، نحتاج إلى معرفة كيف تُستخدم كلمتي "عائلي" و"عام". تقول ميشيل روزالدو، وهي من علماء علم الإنسان، إن كلمة عائلي بمعناها العالمي تشير إلى أصغر المؤسسات التي تنظم في الحال نوعية النشاط الذي تقوم به إحدى الأمهات ــ أو أكثر ـ مع أبنائها. وقد تبنتْ هذا التعريف ليس للتهوين من أهمية الآباء، بل لأن الأمهات ـ بأكثر من الآباء ـ هن اللواتي تُحد حركتهن ومدى نشاطهن نتيجة الحمل والرضاعة. وهي تتحدث عن "أم أو أكثر" نظراً لوجود الزواج بأكثر من واحدة على مدى تاريخ الإنسان، وفي كثير من ثقافات اليوم غير الغربية.

وكما سبق ورأينا، فإن حقيقة أن الأمهات يحملن ثم يُرضِعن الأطفال لم تجبرهن في الواقع على أن يحفظن أنشطتهن الثقافية في إطار عمل المنزل الدائم. وفي الجماعات البدوية القائمة على الصيد والجمع مثل الحطابين والأقزام، ينقل كل واحد المعسكر حين تستولى الجماعة على منطقة يجدون فيها نباتات برية صالحة للأكل. إضافة إلى ذلك، فإن أنشطة المرأة من ناحية جمع الطعام كثيراً ما تأخذها بعيداً عن البيت الذي هو قاعدتها. وإذا كان لديها طفل، فهي تحمله على ظهرها، أما الأطفال الكبار، فإما أنهم يصاحبونها لمعاونتها، أو يبقون في المعسكر مع

البالغين الآخرين. وحتى إذا كان الأمر كذلك، فإن أنشطة النساء من ناحية الإنجاب تُقدِّم مبرراً لأبسط نظم تقسيم العمل ينبناه الإنسان، فالنساء أكثر من الرجال، جديراً بهن أن يقمن بالأعمال التي يمكن بسهولة الجمع بينها وبين رعاية الأطفال. وهذه، كما تبيّن، كثيراً ما تكون قريبة من البيت وتتركز حول العلاقات الوثيقة مع قليل من الناس. وفي ثقافتنا نجد هؤلاء الناس يكونون غالباً من أطفال تلك المرأة. وفي الحضارات الأخرى، قد يكون من بينهن زوجات عاملات، وأولادهن وأحياناً أمهاتهن أو حمواتهن.

وعلى نقيض ذلك نجد أن كلمة "عام" تُشير إلى أنشطة، مؤسسات اجتماعية وصيغ من الاتحاد الذي يربط، وينظم أو يُصنِّف مجموعات الأمهات والأطفال. بمعنى آخر، إذا كانت وحدة الأم / الطفل تهتم أكثر بالحياة العائلية، وأكثر قوة في صِلاتها الودية، لكننا نجد هنا كيانات عامة أكبر وغير متأثرة بالنواحي الشخصية — سياسية واقتصادية، وعسكرية، ودينية ـ هي التي تربط هذه الوحدات معاً لكي تسمو على النواحي البيولوجية وأي روابط عائلية أخرى. ونظراً "للتخلف الذي أحدثه الإنجاب"، إذا جاز التعبير، فقد تسيد الرجال هذه الأنشطة. وكما تقول روسالدو Rosaldo :

إذا تحدثنا عن هذا ببساطة شديدة، فليس لدى الرجال التزام واحد، يتطلب التحمل والتضحية بالوقت، ومُلزِم من الناحية العاطفية ـ يكاد يبدو ضرورياً وطبيعياً ـ مثل علاقة الأم بطفلها الرضيع. وهكذا أصبح متاحاً أمام الرجال في أن يكونّوا المؤسسات الاجتماعية الأكبر التي نسميها "المجتمع".. وهي نظم عامة لها ترتيبها وهدفها والتزامها أن تربط بصفة خاصة مجموعات المـُشكلة من الأم / الطفل. في مجموعات.

غموض الدور الأسري :

هذه الأنشطة العامة الرسمية التي يُسيطر عليها الذكور هي التي دائماً تحظى تقريباً باحترام حضاري أكثر من أنشطة النساء الأقل ظهوراً والأكثر تماسكاً من الناحية الاجتماعية. ولعل هذا مرده أن الأنشطة العامة يبدو أنها تسمو على الطبيعة بأكثر من الأنشطة المنزلية، ومن هنا تبدو أكثر إنسانية وبشكل متفرد، من ناحية الإبداع الحضاري، والمرتبة الأعلى لما هو "عام" تُعد سبباً آخر من عدم الارتقاء بوضع النساء تلقائياً على الرغم من مساهمتهن الكبيرة في إنتاج الطعام. لأنه إذا كانت أنشطة النساء في مجال الزراعة والجمع تتم في إطار مجموعات عائلية صغيرة مُنعزلة، وإذا كانت سيطرة النساء قليلة أو معدومة بالنسبة للأنشطة الأكثر عمومية في مجال توزيع الطعام، والتسويق والأعياد الطقسية، هنا لن تحقق لهم أنشطتهن الخاصة بإنتاج الطعام أية قيمة اجتماعية إلا بقدر ضئيل.

ونعود للقول، بأنه ليس هناك سبب بيولوجي ضروري يُحتّم أن يكون الأمر على هذا النحو. وأن هناك تنوع ثقافي كبير في درجة تقييم المجال العام أكثر من الخاص : والفجوة بوجه عام، نجدها أقل في المجموعات البدوية الأصغر التي تعتمد على الصيد والجمع (وهي إلى حد كبير تمارس مبدأ الزوجة الواحدة)، وتكون بدرجة أكبر جداً في الثقافات الكبيرة الدائمة التي تعتمد على الزراعة (والتي من المحتمل أنها تأخذ بتعدد الزوجات). وسوف نناقش السبب الذي جعل الوضع هكذا في الوت الحاضر. أما الآن فيتوجب ملاحظة أن.ثقافتنا تعطي لشعبها رسالة مشوشة، فمن الناحية النظرية، نعطي قيمة عالية للناحية العائلية ومتانة العلاقة الزوجية، ودور الوالدين. ومن الناحية العملية، نحن مع ذلك لا نعمل إلا القليل جداً لتدعيم هذه الأنشطة، بالنظر إلى أن المعيار كان إلى عهد قريب أباً غائباً معظم الوقت يعمل بعيداً جداً عن البيت في المجال العام، وأماً مهتمة بالأمور المنزلية إلى

أبعد حد، تفتقر إلى المعونة اليومية ليس من الـزوج فحسـب، بـل مـن أم أوحمـاة أو حتى من زوجة أخرى لزوجها !

وهذا ما يُطلق عليه في ثقافتنا "المشكلة الـني ليـس لهـا اسـم"، وهـي مشـكلة يلحق أثرها بالمسيحيين وغير المسيحيين كذلك. وعلى الرغم من القيمة العاليـة الـتي نخلعها على الزواج والأبوة، إلا أن معظمنا مُقيَّد بالتغييرات الاقتصادية التي لم تظهـر إلا على عهد الثورة الصناعية. فظهور المصـانع والإنتـاج علـى نطـاق واسـع، أجـبر الرجال على البدء في التوجه إلى مكان العمل، مع أنهم ظلوا قبل ذلك قروناً طويلـة يعكفون على الزراعة أو التجارة على مقربة من البيت. ونتيجة لنفـس هـذه القـوى الاقتصادية، أصبحت النساء وبشكل متزايد تعملن في البيت وحدهن مـع أطفـالهن. وفيما يعترف المسيحيون أن المجال العام (غالبيته مـن الذكـور) لا يزيـد أهميتـه عـن المجال المنزلي (غالبيته من النساء) إلا أنه ليس من السهل مقاومة الميـل السـائد الـذي يعطي المجال العام الذي يتسيده الرجال تقديراً أعظم. والواقع أنه، إذا كان قد سـبق للرجال أن ساورتهم مشاعر متضاربة من ناحية "تأنيثهم" كمسيحيين (انظر الفصل السادس)، فلربما قد أُغروا بالأكثر في أن يعطوا حمايــة وتقديـراً أعظـم لمجـالهم العـام الذي تسوده الذكورة كوسيلة تعويض لتأنيثهم في نظر المجتمع الدنيوي السائد.

ولكن حدثت عواقب سيكولوجية عميقة كانت وليدة هذا الصدع بين العام والخـاص، وهـي عواقـب كـانت لهـا آثارهـا بالنسبة للأطفـال والبـالغين مـن كـلا الجنسين. وأود أن أشرح هذا بتأمل نظرية ثالثة وأخيرة تحاول استبيان سبب الوضـع الاجتماعي المتباين بين الرجال والنساء. وفي هذا الإطار أعتقد أننا سـنصل إلى فهـم آلية نفسية هامة. العمل في ظل رغبـة مـن قِبـل الإنسـان يقابلهـا هيـاكل اجتماعيـة مقاومة، والتي بواسطتها تستمر العلاقات بين الجنسين والتي تعرضـت للتفسـخ مـن قديم الزمان.

العلاقات المقطوعة والحياة العائلية :

لنبدأ بقصة قد تُوحي بهذه النظرية الثالثة. منذ بضع سنوات مضت، وبعد الحديث في أحد الاجتماعات المسيحية عن أدوار الذكورة والأنوثة، إذا بسيدة جميلة حسنة الهندام تقترب مني لتحدثني عن محاضرتي. وقد بدأت بالقول إنني ساعدتها على فهم نمط من السلوك في عائلتها كان يُحيرها ويؤلمها لبعض الوقت. وهذه المرأة - كانت زوجة لأحد الأطباء المعالجين - كان لها ابنان في مقتبل العشرينات من عمرهما، وقالت إن ما كان يُحيرها ويحزنها هو أنه منذ أن بدأ هذان الشابان في مواعدة الفتيات، كانا بصفة منتظمة يتعاليان على النساء، بل ويحتقرانهن، بما في ذلك النساء اللواتي يقابلاهن وهما من عائلة مسيحية، وقد علمتهما هي نفسها، بالقول والمثال، أن يحترما النساء، وكانت تحترم نفسها وتحب النساء الأخريات. فمتى إذاً تحول ابناها وصارا منحازين بإفراط إلى الذكور؟ (وكان هذا هو نفس تعبيرها).

وكانت تعتقد أنه إذا كان للأبناء أم تحترم نفسها وتحترم الأخريات لسار أبناؤها على نهجها. ولكن ما عرفته من حديثي أن المثل الذي ضربته عن ابنيها يتوجب النظر إليه في ضوء سلوك أبيهما. ولم يكن الأمر هو أن أباهما بصفة خاصة عدو للنساء. لكنه، كأي طبيب أمريكي، كثيراً ما يكون متغيباً عن البيت. أما من ناحية مساهمته اقتصادياً، فكان أبعد ما يكون عن اللوم، ومع ذلك، فمن جميع النواحي الأخرى، فقد ربَّت ابنيها في الواقع بمفردها، وكأن أباهما غير موجود. وكان جوهر حديثي هو أن غياب الآباء من الناحيتين البدنية والنفسية عن أبنائهما يشكل دائماً سبباً هاماً في أن ابنيها قللا من شأن النساء - دون النظر إلى كيفية قيام الأم بسد هذه الثغرة على نحو جيد - فضلاً عن ذلك، يمكن لهذه العملية أن تصبح لولباً شريراً يتواصل على مدى الأجيال. لأنه كلما قلّل الرجال من شأن النساء

والأنشطة المرتبطة بهن، قل احتمال مشاركتهم في "عمل النساء" الخاص بتنشئة الأطفال. وهكذا، فإن أبناءهم يكونون ميالين للنمو، على شاكلة أبيهم، يحتقرون النساء، ويرغبون في أن ينأوا بأنفسهم عن "عمل النساء" تماماً مثلما فعل أباؤهم من قبلهم.

اعادة النظر في الفترات الحرجة :

من الجلي أن موجز حجتي السابقة ينقصه بعض الخطوات. لماذا يؤدي الغياب النسبي للآباء عن أبنائهم إلى حملهم على التقليل من شأن النساء، حتى في العائلات التي تؤدي الأم فيها دورها بوعي كامل كأحد الأبوين، وتتمتع بشعور صحي تحترم به نفسها والأخريات ؟ وما هو الدليل على أن هذا الأمر حدث بالفعل ؟ ولكي نُجيب على هذه الأسئلة، نحن في حاجة لمواصلة استعراض العمل الذي قام به خبراء علم الإنسان في المجال الثقافي. فضلاً عن ذلك علينا أن نتعلم شيئاً عن "نظريات العلاقات المتعارضة"، وهو شكل مختلف عن علم النفس التحليلي التقليدي، الذي يُركز على علاقات الطفل المبكرة الاجتماعية، والعاطفية والمعرفية مع الناس، و"الأشياء" الأخرى المتعلقة بالارتباط.

والأطفال في سنيهم القليلة الأولى يواجهون عدداً كبيراً ومروعاً من الأعمال العاطفية، والطريقة التي يتعاملون بها معها، يكون لها أثرها القوي على حياتهم التالية كأشخاص بالغين. والطفل المولود حديثاً، يعتمد تماماً على الآخرين لإشباع حاجاته الجسدية. والطفل كان "جسداً واحداً" مع الأم لمدة تسعة شهور قبل الولادة، وعلى الرغم من أنه بعد الولادة يستطيع أن يتنفس ويرضع ويُخرِج الفضلات دون الحاجة إلى حبل سُرِي، إلا أنه لا يزال تحت رحمة من يعتني به ـ وفي الغالب، وعلى المستوى العام تكون الأم ـ هي من يُقدم له الطعام والراحة والاهتمام بحاجاته الجسدية. ومن الطبيعي يكون من المستحيل أن نعرف على وجه الدقة ما

يدور في ذهن طفل بالغ الصغر، لكن علماء النفس التحليليين والمهتمين بالمعرفة والنمو، يتفقون جميعاً، على أن السبب الأول هو أن الأطفال ربما لا يميزون بين أنفسهم وبين الشخص الذي يعتني بهم. لأنه بالنسبة للطفل البالغ الصغر (وإن كان سريع النمو) فما الحياة عنده في معظمها، سوى أن يُطعم ويهدهَد حتى ينام، وأن يكون في راحة في علاقته مع من يتولى أمره.

وبالنظر إلى أن الأم عادة ما تكون وكيل الطفل الأساسي، فمن ثم تشير إليها النظريات على أنها "موضع حب الطفل الأساسي". والأطفال الصغار من أولاد وبنات يعتمدون عليها بنفس القدر، وعلى ذلك يكونون "مرتبطين" بها عاطفياً، بنفس القدر. وفي السنتين الأوليين، لا يميزونها "كأنثى"، بقدر ما أنهم لا يفهمون. فهُم أنفسهم لا يفهمون ماذا يعني أن تكون ذكراً أو أنثى. فهم بكل بساطة يشعرون أنها مركز عالَمهم الصغير، وأن الانفصال عنها بأكثر من فترة قصيرة يُولِّد القلق فيهم.

الاعتماد، وهوية الذكورة والأنوثة :

إن الواقع الذي يكشف أن الأمهات، وليس الآباء "هن الأشياء المحبوبة بصفة أساسية" من قِبل الأولاد والبنات كان له معان عميقة في تطوير للهوية الذكرية والأنثوية، ولاسيما حين نُضيف إلى ذلك الأمر الخطير الخاص بغياب الأب، الأمر الذي يتميز به مجتمعنا. وبالنسبة للسنوات العديدة الأولى من الحياة، نجد أن الأم هي التي تقوم عادة بالاستجابة إلى احتياجات الطفل وتهذيبه. وهي كُلية القدرة في نظر الطفل ومن ثَم تراه يحبها ولكنه في ذات الوقت يخشاها. وليس للطفل، سواء كان ولداً أم بنتاً، أية فكرة عن أن وضع أمهما وسلطانها في العالم ككل، متدنيان تماماً في واقع الأمر، لأن الأطفال لا يعرفون صراحة أن هناك عالماً أكبر بعيداً عن عالمهم. وكما سبق أن قلت، إنهم لا يعرفون شيئاً عن التكوين الجنسي الخاص بهم أو

بالآخرين إلا بعد سنتين أو ثلاث من الولادة. وهكذا فلم تكن الأم هي أول شيء يحبونه فحسب، بل كانت أول نموذج للدور الذي يعرفونه. وبالنظر إلى أنها محور عالمهم إلى هذا القدر، وتبدو لهم وكأنها مُسيطرة على كل شيء، فهي الشخص الذي يحب الأطفال ـ أولاداً كانوا أو بناتاً ـ أن يتشبهوا به، ويريدون أن يكونوا مثله.

ولقد تتبع علماء النفس المختصون، بجانب المعرفة، المسيرة التي بواسطتها يُدرك الأطفال أنهم ذكور أم إناث. فمع سن سنتين تقريباً، يستطيع معظم الأطفال الإجابة على نحو صحيح عندما يُسأل أحد منهم ما إذا كان ولداً أم بنتاً. ولكن هذه مجرد "علامة" شخصية بالنسبة لهم، مثل أسمائهم. فما زالوا أبعد ما يكونون عن فهم عمومية وديمومة الجنس من الناحية البيولوجية، فهم لا يستطيعون أن يستوعبوا أن كل واحد يُولَد إما ذكراً أو أنثى، وأن هذا أمر لا يتغير. فالطفل الذي بلغ سنتين يعتقد غالباً أن الولد قد تغير إلى بنت بكل بساطة لأن شعره قد طال، أو أنها هي نفسها (أي الطفلة) يمكن أن تصبح "بابا" إذا ما ارتدت ملابسه وقصت شعرها على غراره. ولا يقل هذا الارتباك المبكر بين الأطفال الذين يعرفون الفروق في الأعضاء التناسلية بين الأولاد والبنات. وهذا المنطق المتخلف ما زال يُحملهم على الاعتقاد أن التغيير السطحي يعادل التغيير التام. ولا يستطيع الطفل قبل سن الثانية والنصف أن يجادل بكلمات كثيرة مثل "أنا بنت، وسوف أكون كذلك دائماً" فما دمت بنتاً سأظل دوماً بنتاً، وإذا كنت ولداً سأظل كذلك دائماً.

بيد أن المعرفة العقلانية بأن الشخص ولد أو بنت شيء، وأن يشعر عاطفياً بالأمن والكفاية والسعادة بالنسبة لهذه الحقيقة فهذا شيء آخر. وهنا يبدأ دور الأمهات يأخذ أهميته باعتبار أنهن المربيات الوحيدات تقريباً لأطفالهن في أن يأخذ أهميته. والأمهات كما سبق وأشرت، هُن الأشياء الأولى التي أحبها كل الأطفال

قبل المرحلة التي يفهمون فيها معنى الاختلافات الجنسية. وحين يبدأ الطفل بالفعل في فهم أن الأم "مثلي" (إذا كان الطفل بنتاً) أو "ليس مثلي" (إذا كان الطفل ولداً)، تأخذ طبيعة هذه العلاقة الأولية معنى مختلفاً عند الأولاد والبنات.

تقليد طائفة ماكيسمو Machismo :

الأولاد الصغار، كما البنات الصغار، من الطبيعي أن ينجذبوا لرعاية الأم وقوتها. وإذ انجذبوا إليها، كان من الطبيعي أيضاً أن يرغبوا في أن يكونوا مثلها. ولكن في حوالي سن الثالثة، مع زيادة يقينية الولد من أنه ولد وسيكون كذلك دائماً، تأتيه رسالة مُلحة ولكنها مُربكة من كل واحد ممن هم حوله : كلا، لن تكبر لتكون مثل ماما. عليك أن تكبر لتكون مثل بابا، ذلك الشخص الذكر الكبير الذي تراه لفترة قليلة، في كل صباح ومساء في الغالب، وأحياناً لفترة أطول قليلاً في عطلات نهاية الأسبوع. وبعبارة أخرى، يكتشف الولد أنه بالنظر إلى أنهما من جنسين مختلفين، فإنه ليس بمقدوره أن يحصل على هويته الأولية من أمه التي تُطعمه، والتي هي دائماً موجودة، ولكن عليه عوض ذلك أن يأخذ نموذج دوره من نفس جنسانية أبيه الذي لا يراه إلاّ نادراً.

وهذا ما ينجم عنه نوع من "القيد المزدوج" بالنسبة للأولاد. فليس بوسعهم ببساطة أن يظلوا متعلقين بأمهاتهم دون سبب واضح، ومع ذلك فإن نموذج الدور الذي من المفروض أن يُقلّدوه غير متوافر وإلى درجة كبيرة. وكان من شأن ذلك، أن معظم الأولاد اضطروا أن يتعلموا عن الذكورة "نظرياً"، وليس عن طريق شخص مُتاح لهم.

في معظم المجتمعات يكون عمل (الأب) والحياة الاجتماعية بعيداً عن البيت، بعكس عمل زوجته وحياتها الاجتماعية. وعلى ذلك، فإنه كثيراً ما لا يُتاح

للأب أن يتواجد مع ابنه، ويمارس الأنشطة المتعلقة بدوره كرجل، بعيداً عن المكـان الذي يقضي فيه ابنه معظم حياته. ونتيجة ذلك، فـإن هويـة الولـد الجنسية كذكـر كثيراً ما تصبح هوية "نظرية" فيمـا يتعلـق بـدور أبيـه كذكـر سـواء كـانت محـددة بوضوح، أو بغير وضوح، وليس هوية "شخصية" أكثر عمومية ــ بمعنى أن تكـون هوية أكثر إدراكاً بشخصية الأب وقيمه وسماته السلوكية ـ تلك التي يمكن أن تنجم عن علاقة حقيقية بأبيه.

غير أن بعض المتخصصين في علم نفس النمو يرون في كل هذا مـيزة معرفيـة للأولاد. فعدم وجود مثال حي للدور الذكري ـ كما يقولون ـ يُرغِم الولد الصغـير على التفكير في ضوء "عموميات" المذكر. فعليه أن يتصور كيـف يتصـرف كرجـل بطريقة منطقية مستقلة، لم تتعقد نتيجة الكثافة العاطفية التي تتـأتى مـن صلـة وثيقـة بأي ذكر مُعين. ثم إنهم يُشيرون أيضاً إلى أن هــذه الممارسـة المُبكـرة الـتي فُرضـت فرضاً بوجه عام ربما تكون أساساً لميل الرجال فيما بعد لأن يكونوا أكثر اسـتقلالية من النساء، وأكثر قابلية للتحليل النفسي (وهي ميزة واضحة في مجتمعنا الذي طغت عليه المسحة العلمية إلى درجة كبيرة). وقد يكـون الأمـر كذلـك، إلا أنـه حتـى إذا كان ذلك صحيحاً، فإن هناك ثمناً يجب دفعه لكـل شـخص مُشـترك في هـذا. لأنـه حين يفتقر ولد صغير إلى وجود مثال حي يعبر عن دور الذكورة، فإن شعوره بأنـه ذكر "يعيش في أمن ونجاح" شعوراً يكون أقل رسوخاً. والتأرجح بين الرغبـة في أن يكون "مثل أمه" (المتواجدة دائماً مـن أجلـه) وإدراكـه غـير الواضـح بـأن عليـه أن يُخمِد هذا لكي يكون "مثل الأب" (الذي قليلاً ما يتواجد في البيـت أثنـاء سـاعات استيقاظ الطفل) من هنا قد تساوره شكوك عميقة دون وعي منه، بشـأن رغبتـه في أن يكون ذكراً وقدرته على مقابلة متطلبات دوره كذكر.

خوف النساء المكبوت :

ولكن عندما يكبر الولد ويصبح له اتصال بالعالم على اتساعه، يبدأ في إدراك أن "كونه ذكراً" من المفترض أن يُشكّل مزية. والرسالة التي يحصل عليها هي أن الرجال، إذا كانوا "رجالاً حقيقيين" يكونون من الناحية الاجتماعية أكثر أهمية من النساء، ومن ثَم، إذا ما تصرف "أقل من رجل" يكون مثل المجموعة الأقل شأناً. وهذا ببساطة يدفع بخطته الأولى المنضاربة إلى مزيد من الهبوط إلى أسفل، فها هو قد شعر بالفعل أن شيئاً ما غير آمن في ذكوريته، وعليه الآن أن يحاول بهمة أكثر كي يُثبت لنفسه وللعالم أن هذا ليس موضع شك. وكيف يعمل هذا ؟ أسلم طريقة هي أن يُقلل صلته بالنساء وبأنشطتهن إلى أقل درجة ممكنة، ويكبح أي سمات "أو دوافع نسائية" في نفسه. وفي الحالات المُفرطة يمكنه أن يفعل ذلك بأن يحتقر النساء علانية، أو حتى يُسيء معاملتهن. أما الأقل تطرفاً، فيمكن للرجل ببساطة أن يتجنب النساء إلا حين تكون لديه حاجات منزلية أو جنسية يجب إشباعها، على أن يقضي بقية الوقت في مجموعات ظاهرة قاصرة على الذكور. أو ـ على العكس من ذلك ـ يمكنه أن يُضفي صفات مثالية على النساء، وبحسب التشبيه البلاغي "يصنعوا لهن تمثالاً"، أي يعتبرهن كاملات الصفات. وهذا يحفظهن على مسافة آمنة، ولكن هذا كثيراً ما تصاحبه طلبات مستحيلة من "الكمال النسائي".

وفي بعض الثقافات قد يتأرجح الرجال بين سلوك الاحتقار، أو إضفاء الصفات المثالية، وهذه سمة شائعة في طائفة "ماكيسمو machismo" في كثير من مجتمعات أمريكيا اللاتينية. وفي مثل هذه الثقافات نجد أن مظاهر قوة الذكور قد تتناوب بين إخلاصهم للعذراء مريم وظلمهم للنساء في عائلاتهم. وأياً كانت الاسنراتيجية التي يستخدمونها من بين هذه النوعيات، فإنها تتيح للرجال الذين لا يشعرون بالأمن لأن يخفوا ما قد يصل إلى "خوف من النساء" كامن في العقل

اللاواعي. ويتعلم الولد بصفة تدريجية أن النساء لسن قويات من الناحية الاجتماعية كما كان يُعتقد. لكن ارتباطات "فترته الحرجة" السابقة ما زالت تتمثل في أم تبدو أنها قوية وقادرة على كل شيء. وإذا جُمع بين هذا وحرمانه السابق من نموذج حي يعبر عن دور الذكر، ستكون النتيجة قناعة مكبوتة تماماً ولو أنها قوية ـ بأن النساء يمكنهن أن ينزعن منه جانباً أساسياً من ذاتيته ـ أي هويته الذكرية.

والناس من كلا الجنسين هم ضحايا لهذا الخوف وآليات الدفاع التي تُخفيه. وعلى الرغم من أن هذا قد يعكس بشكل جزئي انحيازي كعالِمة نفسانية، إلا أنني أشك في أن هذا "الخوف من النساء" الذي يتملك الذكر أن هناك سبباً أعمق لكل من الطبيعة / الثقافة والتفسير العقلاني العام / الخاص لوضع النساء المتدني. غير أن الرجال والأولاد يعانون من عواقب ذلك إلى جانب النساء. لأنه بوسعنا أن نرى الآن كيف أن الشعور الذكري بعدم الأمان هذا، قد أكسب نفسه استمرارية من جيل إلى جيل. والطفل المحروم من نموذج الأب تتكون لديه هوية ذكرية ضعيفة متضاربة، ولكي يعوِّض عن عدم الشعور بالأمان هذا في فترتي المراهقة والبلوغ تراه يُبعد نفسه عن النساء و"عمل النساء"، وما هو عمل النساء الأكثر وضوحاً ؟ رعاية الأطفال الصغار. ولذلك يتجنب كل ما يتعلق بتغذية أطفاله، وهو ـ دون أن يدري ـ يساهم في أن يخلق فيهم ذكورة لا تشعر بالأمن، تخاف من النساء، والسلوك التعويضي الخاص برفض النساء والذي من الممكن أن ينجم عن ذلك.

أما وأن هذه الدائرة المفرغة كثيراً ما لا تلقى رضاء الرجال الذين يبدو أنهم يستفيدون منها، فهذا ما نراه في كتابات صموئيل أوشيرسون Samuel Osherson، وهو من علماء النفس من جامعة هارفارد الذي أشرف على دراسة طويلة الأمد لرجال نموا في الخمسينيات وتخرجوا من هارفارد في الستينات. ومعظم هؤلاء الرجال يُجسدون الفكرة الأمريكية لنجاح الذكر. وهؤلاء من بينهم أطباء ومحامون

ومديرون، ورجال بنوك، وسماسرة البورصة وكُتّاب وعلماء. وبحسب الظاهر، فقد تحقق الحلم الأمريكي بالنسبة لهم. وإذا كان هناك من يشعر بالرضا في حياتهم فأعتقد أن يكون من بينهم هؤلاء الناس.

وما وجده أوشيرسون بالفعل فيمن أجابوا على أسئلته يعبر عن إحساس مضاعف بالخسارة. فمن ناحية، معظم هؤلاء الرجال شبوًّا وهم يعرفون آباءهم كرجال يقدِّرون الواجب، ولكنهم كانوا مساهمين اقتصاديين من على بعد، ممن كانوا في أفضل حالاتهم بدون أية فعالية اجتماعياً وعاطفياً في البيت، وفي أسوأ حالاتهم كانوا أكثر من الأطفال طفولة من ناحية مطالبهم وسلوكهم. وعلى صعيد آخر، إذ كان مجيبو أوشيرسون يفتقرون إلى أباء يعبرُّون عن أمثلة حية لها أدوار كاملة لتنشئة الذكر (على الرغم من أنهم كانوا يمثلون أنماطاً إقتصادية حركتها إلى أعلى). فقد وجدوا أنفسهم يُكررون نفس الدورة مع زوجاتهم وأطفالهم. ويلخص أوشيرسون ما ذهب إليه على النحو التالي :-

من هذه المناقشات بدأت أعرف كيف كانت نتائج التباعد بين الآباء والأبناء، عميقة وأليمة كما كانت متوقعة، وكانت تُشكل انفصالاً نعتبره في مجتمعنا قضية مُسلَّم بها. وكثير من المناوشات التي تقع بين الذكر والأنثى في زماننا، متأصلة في المعارك الخفية المستمرة للأبناء مع أبائهم، والطرق المتباينة التي يحاول الأبناء من خلالها أن يُكملوا هذه العلاقة في وظائفهم وزواجهم. ومع ذلك، وبالرغم من أهميتهم السيكولوجية، فإن الآباء يظلون مغلّفين بالأسرار، حيث ننسب إليهم صفات مثالية، أو نحط من قدرهم، أو نتجاهلهم. وإذ نفعل ذلك فإنما نكف عن تقليدهم، لنظهر أننا مُختلفون.

دروس من الصيادين / الحصادين :

ومما تجدر ملاحظته أن أوشيرسون يستعمل التعبير الثلاثي "ينسب صفات متالية"، "يقلل من شأن"، و"يتجاهل"، وذلك ليجمع سلسلة العواطف التي يشعر بها الرجال تجاه غياب آباء طفولتهم. لأننا رأينا نفس مثلث المواقف هذا يعمل في الرجال تجاه النساء نتيجة لنفس نموذج غياب الأب. وإذا كانت الأمهات، بفضل تكوينهن البيولوجي، دائماً تنخرطن مع الأطفال الصغار بأكثر مما يفعل الآباء، فيبدو أنه ليس هناك مهرب من هذا اللولب الشرير. ولكن ليست هذه هي القضية. سبق أن أشرت إلى أن الثقافات تختلف من ناحية مدى تأكيدها على الصدع الخاص / العام وتعطي قيمة أكبر للأخير. كما ذكرت أن هذا الصدع عادة ما يكون أقل عمقاً عند الصيادين والحصادين البدو الذين يتبعون نظام الزواج من واحدة، والذين لديهم أيضاً فروق بين الرجال والنساء أقل بكثير مما هو الحال بالنسبة للفلاحين المقيمين الذين يعولون عائلاتهم ويتبعون نظام تعدد الزوجات. ولكن ماذا بشأن أسلوب حياة الصيادين / الحصادين الذين لا يبالغون في الحطّ من قدر الأنثى؟ وماذا عن جيرانهم المزارعين الذين يبالغون في ذلك؟ لكي أشرح هذا سأعتمد على خبرتي البحثية مع شعب البيجمي Pygmy بجنوب أفريقية وجيرانهم من شعوب البانتو Bantu. غير أن القراء الذين شاهدوا الفيلم السينمائي الخاص بجنوب أفريقية "لابد وأن الآلهة قد جُنت" وتصويره لمرح الخطابين في كالاهاري بوشمين، سيسهل عليهم استيعاب ما يلي :

أولاً، من الضروري أن يعيش البدو في جماعات صغيرة: وهي ثقافة تعيش على أساس تتبع حيوانات يصطادوها وكذلك النباتات الصالحة للأكل، ولهذا لا تستطيع التحرك بفعالية في مجموعات كبيرة. لكن صغر المجموعة وقدرتها على الحركة يُقلل من احتمال وجود أشخاص يقتصر عليهم أدوار بعينها. فلا يوجد أناس بشكل كاف لأن تكون لديهم فئات مستقلة ممن يعملون السلال، وممن

يصنعون السهام، وممن يبيعون زيت النخيل ... إلخ. بمعنى أن كل واحد منهم يجب أن يُجيد كل هذه المهن، تماماً مثلما يجب علينا نحن حين نشترك في معسكر. ولكن هذا لا يعني أنه لا توجد أدوار للذكورة والأنوثة. فالنساء، في قبائل البيجمي عادة ما تقمن ببناء الأكواخ، وجمع النباتات، وعمل زيت النخيل وطهو الطعام. أما الرجال فيصطادون الحيوانات التي يؤكل لحمها، ويجمعون جوز الهند، ويصنعون شباك الصيد، والحراب والقسي والسهام. غير أن صغر حجم المجموعة وقدرتها على الحركة كانت تتطلب التعاون الوثيق بين جميع أعضائها. وهكذا فإن رحلة الصيد الناجحة قد تتضمن نساء وأطفالاً صغاراً، يُخيفون الحيوان كي يندفع نحو الشباك حيث يقتله الرجال والأولاد. والمرأة قد تطلب من زوجها أن يرعى الطفل حين تقوم هي بطهي الطعام. والأجداد من كلا الجنسين يهتمون بالأطفال الذين تعلموا المشي حديثاً في المعسكر، حيث يخرج آباؤهم للصيد والحصد. بعبارة أخرى فالانشقاق العام / الخاص، وارتباط الرجال بالعام والنساء بالخاص، ليس له أهمية تُذكر في هذه الثقافة.

على النقيض من ذلك، فالمجموعات التي تعتمد في إعالة نفسها على الزراعة يجب أن تكون أكبر حجماً. وبالنظر إلى أنها لن تتحرك من مكان إلى مكان حيث توافر الأرض القابلة للزراعة. وتعيش مثل هذه المجموعات في قرى نمطية كبيرة ودائمة يخرجون منها للعمل في الحقول أو المزارع القريبة. فضلاً عن ذلك، فالمجموعة كبيرة وثابتة بشكل يكفي لوجود دور للتخصص : فمن المحتمل أن يوجد حدَّاد للقرية، وصانع سلال، ومن يشتغل بزيت النخيل ...إلخ. وإلى جانب هذا الدور التخصصي الكبير عادة، يأتي دور المجموعة الأكبر سناً، وأدوار الذكورة والأنوثة المتخصصة. فمجالات الرجال والنساء، الأطفال والبالغين تصبح مُحددة

بشكل دقيق، ويقل دور التعاون بينهم. وعن عمد أو عن جهل تُهيىء هذه الظروف لولادة الحركة اللولبية المندفعة إلى أسفل والسابق وصفها.

مخاطر تعدد الزوجات :

وهناك تناقض آخر بين الثقافات البدوية والزراعية، وهو ممارسة تعدد الزوجات بشكل عام في الفئة الأول، والزواج من واحدة في الثانية. وسبب هذا الاختلاف ليس مفهوماً تماماً (لعل له علاقة بالمصاعب التي تكتنف حركة العائلات الكبيرة في المجموعات البدوية) إلا أن النتائج السيكولوجية واضحة تماماً. فعندما يكون للرجل أكثر من زوجة واحدة، يتوافر له نظام دعم مستمر للطوارىء المنزلية. فإذا كانت إحدى زوجاته مريضة، أو محدودة النشاط بسبب الحمل أو الرضاعة، فإن زوجة أخرى تقوم بالطهي ورعاية الأطفال والزراعة نيابة عنها. وفي مثل هذا الموقف، لا يمكن للرجل ـ حتى في ظروف الطوارىء ـ أن يعتني بالأطفال، أو يراه أحدهم وهو يقوم بأي أعمال "نسائية" أخرى. إضافة إلى ذلك، فكل من زوجاته يكون لها في العادة كوخ منفصل خاص بها وبأولادها. ويشير خبراء علم الإنسان إلى هذا بأنه "الترتيبات الخاصة بنوم الأم ـ الطفل". ثم يتناوب الزوج النوم مع كل زوجة على حدة، على الرغم من أنه قد يتجنب العلاقة الجنسية مع زوجة معينة لشهور وأحياناً لسنوات بعد أن تلِد (وهذا في حد ذاته ليس أمراً سيئاً تماماً، لأنه يُتيح للطفل فترة كافية للرضاعة قبل أن يُولد له أخ آخر). بل وتُتاح له فرصة النوم في مربع قاصر على الذكور فقط، كي يكون بعيداً تماماً عن الزوجات والأطفال.

ومع ذلك، فإنه من بين نتائج هذا، أن الآباء في هذه العائلات لا يقضون "أوقاتاً سعيدة" بين زوجاتهم وأطفالهم وافتقارهم إلى الاتصال المباشر مع الأبناء الصغار، والذي سبق أن دعمه تخصيص الأدوار بشكل دقيق في هذه الثقافة تضاعف نتيجة نظام الزواج بأكثر من واحدة. فهل يُزيد هذا من "خوف" الرجال

من النساء وما يصاحب ذلك من الحط من قيمتهن ؟ هناك دليل غير مباشر على أن هذا صحيح. فانفصال الرجال عن زوجاتهم وأطفالهم في بعض الحضارات يكون كاملاً حتى إن الأولاد يأخذون ببساطة نفس تصنيف النساء والبنات إلى أن يبدأوا أدوار الذكور البالغين أثناء المراهقة.

علاوة على ذلك، هناك علاقة قوية تماماً بين وجود ترتيبات نوم الأم والأطفال في حضارة ما وقسوة طقوس بداية سن المراهقة للأولاد. وهذه الطقوس عادة ما تتضمن عملية الختان الأليمة التي دائماً يقوم بها ذكر بالغ بعيداً عن القرية، ومنع النساء منعاً باتاً من معرفة ما يدور حولهن. ويكون الأمر أن الرجال، لا يعرفون إلا القليل عن هوية أولادهم الذكرية، ولذلك يتخذون إجراءات مشددة ليجعلوهم ينكرون الرابطة الأولية مع أمهاتهم، ويولدون من جديد كذكور على يد ذكور.

ثمار المعية (البقاء معاً) :

وعلى العكس من ذلك، فمجتمع الصيد والجمع الذي تسود فيه إلى حد كبير شريعة الزواج من واحدة، والدور الأكثر مرونة الخاص بهذه الحرفة نادراً ما يكون فيه مثل هذه الطقوس السرية المُعقدة الخاصة بالقبول في فئة الرجال. وحتى إذا أُجبروا على الاشتراك فيها (كما يحدث مع قبائل البيجمي Pygmy الذين يُجبرهم المزارعون من قبائل البانتو حين يعملون لديهم في غير مواسم الصيد)، فإنهم يميلون إلى النظر إلى هذه الطقوس نظرة سخرية واحتقار. ولذلك، فإنه على الرغم من أن رابطة الأم ـ الطفل هي بالضرورة رابطة قوية، إلا أنها لا تمنع بالضرورة إلى العزلة بين الجنسين، وتقليل الرجال المتتالي من قيمة النساء. ومما يجدر ذكره أيضاً أن الليونة في أدوار الذكورة والأنوثة في مجتمع الصيد والجمع، والتعاون بينهما يصاحبه تشابه فكري أكبر بين الرجال والنساء. وعلى سبيل المثال، فإن اختبارات القدرة المنطقية التي تميل إلى بيان الاختلافات بين الجنسين في ثقافتنا كثيراً ما لا تُظهر شيئاً

من ذلك بين مجتمع الصيد والحصد ـ وهذا اكتشاف رائع للغاية إذا ما أخذنا في الاعتبار افتقادهم التام لممارسة الاختبارات التي على النمط الغربي. وبعض هذه القابلية قد تعكس مهارات تم اكتسابها أثناء التحرك الكثير من مكان لآخر. ولكن الموضوع هنا، هو أن الذكور والإناث متساوون إلى حد كبير في الحركة والانتقال، حتى وإن كانت تفاصيل أنشطتهم مختلفة.

هل بوسعنا أن نتعلم شيئاً من هذا فيما يختص بموقفنا ؟ فعلى الرغم من الفجوة الثقافية التي تفصل بيننا وبين مجتمع الصيد والجمع، إلاّ أن بعض خبراء علم الحياة، والباحثين في العلاقات الهادفة يعتقدون هذا وكتبوا يقولون : "التغيير يجب أن يتقدم في اتجاهين" :

أولاً: يبدو أنه من الواجب إدماج الرجال في المجال المنزلي، وإتاحة الفرصة لهم للمساهمة في تحويل أطفالهم إلى أشخاص اجتماعيين، وكذلك في إعطائهم المزيد من المهام المنزلية الدنيوية. والأكثر من ذلك ... إن وضع النساء لن يرتفع إلا حين تساهمن بنفس القدر مع الرجال في مجال العمل العام.

ومن المهم أن نفهم أن مثل هذه التغييرات لا تمحي كل الفروق بين أدوار الذكورة والأنوثة. وسمة الاختلاف بالنسبة لقبائل البيجمي وجماعات الصيد والحصد الأخرى لا تتمثل في عدم وجود أدوار للذكورة والأنوثة (فمن الواضح أنها موجودة) بل بدرجة التقارب والتعاون، والمساواة الاقتصادية ومرونة الأدوار التي يشترك فيها الرجال والنساء. وعلاوة على ذلك، كما سنرى في الفصل التالي، حتى عندما يمارس الرجال والنساء عملاً مشتركاً ــ مثل الرعاية بالأطفال ــ فإن ممارستهم لذلك تنفذ بشكل مختلف، وكثير من هذه "الاختلافات في الأسلوب" يبدو أنها تستحق الحفظ.

أما الذي لا نجده في أسلوب الحياة الخاصة بمجتمعات الصيد والحصد فهو الفجوة الواسعة بين الحياة المنزلية والحياة العامة، التي تحصر النساء في الأولى والرجال في الثانية، والتقليل من قدر الحياة المنزلية بالمقارنة مع الحياة العامة. والوجه الآخر للتقليل من قيمة النساء هو بالطبع من الأمور التي يؤمن بها المسيحيون كأعضاء "جسد واحد". ولكن من الصعب تنفيذ معتقدنا هذا في سلوكنا الفعلي ما دام الهيكل الاقتصادي والاجتماعي لمجتمعنا قد فرض مثل هذا الصدع بين ما هو منزلي وما هو عام، بين عالم الرجال وعالم النساء. ثم إنه من الصعب أن تتناغم معتقداتنا وأعمالنا من جهة ومشاعرنا من جهة أخرى ما دام خوفنا من التغيير متأصلاً أكثر في حياتنا العائلية الأولى، والعلاقات الهادفة التي تصورها في ثقافتنا. وإلى هنا قد ركزت على نتائج مثل هذه الاختبارات في الأولاد، غير أننا في الفصل التالي سنرى أنه مع ابتعاد الآباء والاستقرار المستمر للأمهات إنما يشكل بركة مشتركة للبنات أيضاً.

العودة إلى الحضانة :

وفي نفس الوقت، أخذنا الحدبث بعيداً عن تقريري غير الرسمي، والذي يُعد مسحاً شاملاً لحضانات الكنائس، الأمر الذي أشرت إليه في مستهل هذا الفصل. غير أن العلاقة يجب أن تكون الآن واضحة إلى حد ما. فبقدر ما يدمج المسيحيون الذكور في عمل الرعاية بالأطفال إلا أنهم يساعدونهم في قطع هذه الاستمرارية خوفاً وتحقيراً للنساء. ولكن هذه التغييرات يمكن أن تحدث أيضاً بعيداً عن الحضانة. منذ عهد قريب عدت إلى المدينة حيث كنت قد قابلت زوجة الطبيب التي كانت قلقة من جهة ابنيها اللذان "يعظمان من شأن الرجل". وبعد محاضرتي عرفتها إذ كانت بين الحضور، وقد أمضينا عدة دقائق وتبادلنا أطراف الحديث. وعلمت منها

عودتها لمدرسة الخريجيين، وإذ تذكرت حوارنا السابق سألتها عن سير الأحوال على الجبهة المنزلية.

قالت : "لقد تغيرت الأمور قليلاً، وأنت تعلمين أننا رُزقنا بابني الثالث وهو أصغر بكثير من أخويه الآخرين. وإذ عدت الآن إلى المدرسة، شرع أبوه يقضي وقتاً أطول معه. وكان هذا أمراً طيباً للغاية بالنسبة لكليهما، فقد أصبح زوجي أقل اهتياجاً وعصبية من ناحية قلقه على وظيفته، وابتدأ يعرف ما فقده نتيجة غيابه لوقت طويل عن ابنيه الأكبر سناً. أما ابننا الأصغر فكان له موقف مختلف جداً عن موقف أخويه تجاه النساء".

و لم يسعني إلاّ أن أسأل : "وماذا فهم الأخوان الكبيران من كل هذا ؟".

صمتت لبرهة (وتذكرت بلا ريب، أن فترة التهيؤ الاجتماعي لا يمكن التغلب عليها بسهولة) ولكنها أجابت : "أعتقد أن هذا كان له أثره عليهما أيضاً. وأمامهما طريق طويل يجب إكماله فيما يتعلق بمواقفهما تجاه النساء. ولكنهما لاحظا بشكل قاطع تغيير والدهما في أولوياته. وأعتقد أن هذا سيكون له أيضاً أثره بالنسبة لأولوياتهما".

الفصل الثامن:

المشاركة في الدور الأبوي

منذ عهد قريب، وفي حلقة دراسية استمرت يومين دارت حول موضوع أدوار الذكورة والأنوثة، كان هناك رجل في الثلاثينات من عمره ينصت إليّ وأنا أتكلم عن الغياب النسبي للآباء في مجتمعنا، ثم انضم إلى المناقشة وقد بدا عليه ألم كبير. وقد بدأ كلامه قائلاً : هل هناك من يدرك كيف أنه من الصعوبة للآباء أن ينخرطوا شخصياً في تربية أطفالهم، حتى ولو كانوا يودون ذلك ؟ وقد تبين أن هذا الرجل كان طبيباً، ورئيس قسم في إحدى كليات الطب الكبرى في البلاد. وهو كمسيحي التزم بأن يعطي لعائلته الأولوية على تقدُّمِه الشخصي في وظيفته. وبناء على ذلك أخبر رؤساءه في العمل حتى قبل أن يستخدموه أنه سيراعي ضميره في عمله، ولكنه لم يكن ينوي أن يكون "رجل المنظمة" الذي بكل بساطة يضغط على عائلته كي تتكيف مع مطالب الجامعة أياً كانت.

هنأته لتمسكه بمبادئه، ولاستفادته على أفضل وجه على أي حال من كلا العالمين. ولقد كانت الجامعة في أشد الحاجة إليه على الرغم من أولوياته الدينية الغريبة. فقد كان أستاذاً ورئيس قسم وهو في سن صغير. ولقد عزم على أن يكون مشاركاً فعلياً في تربية أطفاله وأن يكون دعماً عاطفياً لزوجته وهكذا فعل، وإذ كان أكاديمياً كان جدوله مرناً إلى حد ما، فقد استطاع هذا الرجل أن يقوم بأدواره في البحث والإدارة، وكان في الوقت نفسه يقوم بدوره كأب بكل نشاط. وعلّقتُ

على ذلك بقولي إنه كان نموذجاً لدور عظيم بالنسبة للرجال المسيحيين الأصغر منه سناً، وكان مثالاً طيباً لرجل كان يعمل على هدى نصيحة يسوع القائلة: "اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تُزاد لكم"(مت٦: ٣٣).

غير أن إطرائي على نجاح هذا الرجل الفعلي في تحايله على دوره لم يكفِه. فقد كان يعرف كل هذا. بل إنه كان يعرف، على المستويين الفكري والعقيدي إنه كان ينبغي أن يكون سعيداً وشاكراً للطريقة التي استطاع من خلالها أن يوازن بين التزاماته نحو وظيفته ونحو عائلته. وما كان يريد أن يُعبِّر عنه حين تكلم عن صعوبة كونه أباً نشيطاً كان يمثل قلقاً راسخاً في حياته.

والمشكلة هي أنه بالرغم من معتقداته ونجاحه في أن يتصرف على هديها، إلا أنه كثيراً ما شعر بأنه ليس بالكفاءة لأن يكون رجلاً أكاديمياً. وبالنسبة للملاحظ الخارجي، كان يبدو مثالاً للنجاح الوظيفي. غير أنه حين كان يقارن نفسه بزملائه في كلية الطب، وبرؤسائه في الجامعة، لم يكن يستطيع الهروب من شعور عدم الارتياح الذي كان يتملكه من ناحية أنه كان يؤدي بدرجة "أقل جودة". ولقد ركز زملاؤه الذكور بالأكثر وبكل عزم على مستقبلهم الوظيفي، ومن ثَم عملوا أكثر منه في مجال البحث والنشر، ونالوا منحاً للبحث وتثبتوا أكاديمياً بأكثر سرعة. ولا ريب أن كثيرين فعلوا هكذا على حساب عائلاتهم. ولكن السمات الاجتماعية والقيم الثقافية التي شبَّ عليها الذكور، وبالحالة التي كانت عليها، تجعل الرجل الذي يضع عائلته في مرتبة تسبق (أو على نفس المستوى مع وظيفته لا يمتدحه زملاؤه الذكور لكونه أكثر رجولة) والواقع أن ما يحدث هو العكس. وفي العالم التنافسي لسيرة الذكور، فكونك "ثانيَ الأفضل"، أو حتى "أكثر من ملائم" في وظيفتك من السهل فهمه على أنه فشل. ويبدو أن هناك نظاماً نقدياً ضمنياً

للذكورة بمقتضاه أن الرجل الذي يتفوق على رؤسائه في العمل هو فقط الذي يُسمح له بأن يشعر بحق أنه ناجح كذكر.

وقد قال هذا الطبيب المسيحي آسفاً : توجد جميع نظم الدعم التي تساعد النساء اللواتي تحاولن التحرر من قيود الأدوار وعادات التفكير ذات النمط المتكرر، ولكن ماذا يوجد للرجال الذين يجاهدون لعمل الشيء نفسه ؟ من الجلي أنه كان مستاءً لالتصاقه المتخلف بذكورة مُحددة ثقافياً وبأولوياتها المنحرفة، ولكنه كان يجد صعوبة في التوفيق بين مشاعره ومعتقداته وسلوكه. وظلت مشاعره تلح عليه بأنه لم يحصل على الأفضل من كلا العالمين، وأنه فشل كرجل حتى وإن نجح كزوج وأب.

مشكلة مشتركة :

يبدو أن النساء يبحثن أحياناً عن دعم عاطفي، بل وتحصلن عليه أكثر من الرجال وذلك أثناء كفاحهن للتوفيق بين الأدوار الجديدة والمشاعر القديمة المتأصلة. وهذا مرده في جزء منه إلى أن النساء يُسمح لهن بالإقرار والتعبير عن سلسلة أكبر من المشاعر بأكثر مما هو مسموح به بالنسبة للرجال. ثم إن هذا أيضاً مرده إلى أن كثيرات من النساء تشعرن أكثر ـ وليس أقل ـ بأنوثتهن حين يشاركن الآخرين في مشاكلهن وحلولها. ولسوف نستكشف بعض أسباب هذه الاختلافات بعد ذلك بوقت قصير. أما الآن فيتطلب الأمر القول بأن النساء لسن بغريبات عن نوعية التضارب الذي عبر عنه هذا الطبيب "الذكر". وكثيرات ممن هن أقل من مدبرات بيت متفرغات، على سبيل المثال، يشعرن أيضاً أنهن فاشلات ـ هذه المرة كزوجات وأمهات ـ حتى فيما هن تُحققن نجاحاً ورضاء في أدوار جديدة كطالبات وعاملات أو مهنيات.

مساعدة الأزواج على التعامل مع تغيير أدوار الذكورة والأنوثة ـــ فقالت إنه حتى خبرتها المهنية لم تهيئها للمشاعر التي كانت تهاجم زوجها وتهاجمها حين تحملت المسئولية المالية للعائلة بالكامل حتى تتيح لزوجها تحقيق أمنية عمره في أن يكون كاتباً. وكان تغييراً وافقا عليه تماماً. وعندما كبر أولادهما وتركوا البيت كانت قد تخرجت وبدأت مستقبلها العملي بنجاح سواء كمُدرسة، أو في العيادة. وكلاهما كانا على قناعة بأنها فرصة ذهبية في أن ينغمسا في مهنتيهما الجديدتين التي لم يكن كل منهما قادراً على تحقيقها من قبل. ولكنهما سرعان مع عملا التغيير (وكانا يعرفان جيداً أن الزوج لن يكسب إلا القليل جداً من عمله ككاتب مبتدئ)، وقد ذكرت روبين أن زوجها : "تملكته الكآبة مدة ستة شهور، أما أنا فعانيت بنفس القدر من صراع طويل مع غضبي".

وإلى تلك اللحظة لم أكن قد عرفت إطلاقاً معنى أن أكون مسئولة عن بيتي، ناهيك عن رعاية أحبائي. وهذا هو ما يحدث حين تكون بنتاً وليس ولداً. ولقد سبق لي العمل بالطبع، ولكن دائماً كصاحبة أجر إضافية .. أما الآن، ولأول مرة، كنت في الوضع الذي يعرفه الرجال تمام المعرفة: إذا لم أذهب إلى العمل اليوم، لن يكون لديّ نقود غداً. وقد كرهت هذا الوضع.

وعلى حين غرة، كان علينا أن نواجه الحقيقة بأننا كنا لازلنا تحت سيطرة الصور المتكررة لأدوار الذكر والأنثى ـ وهي صور كنا متأكدون أننا على استعداد، في ذلك الحين، أن نستحضرها حيث كانت متأصلة في وعينا. وقد كافح هو ضد شعوره بالفشل حيث تملكته خشية بأن رجولته ربما تكون قد لحقها أذى. أما أنا ـ المرأة العاملة المتحررة ـ فقد تملكني الحنق والغضب أنه لم يعد يعتني بي بعد ...

وكنت أعرف أن هذه المشاعر جاءت من عمق أعماقي، وأني قد تعلمت منذ بداية طفولتي بأنه سيكون هناك دائماً شخص ما يسهل عليّ حياتي، وأنه من الأفضل أن يكون ذلك الشخص رجلاً.

وأخيراً، تلاشى غضبها وزالت كآبته، غير أنه، وكما قالت روبين : "ليس بدون قدر كبير من الصراع النفسي بالنسبة لكلينا". وكما ذكرت "حتى بين أصغر عملائها". ما زال معظم الرجال لا يستطيعون أن يتعاملوا مع عدم قدرتهم على إعالة العائلة، ومازالت معظم النساء تجدن صعوبة في قبول الحاجة إلى أن تعولن أنفسهن.

أدوار جديدة، وقواعد جديدة ؟

هذه الأمثلة من تعاملات الرجال والنساء مع تغيير أدوارهم تأخذنا إلى بعض الموضوعات الأخرى التي سنعرض لها في فصول تالية. وما يدفعني إلى تقديمها في فصل عن الأبوة سبب له شقين :

أولاً : لا أعتقد أنني أؤسس نقطة لاهوتية عن أهمية تواجد الآباء مع أولادهم. ورغم أن المسيحيين يختلفون في نطاق واسع من الأمور اللاهوتية والاجتماعية والسياسية، إلا أنهم يتفقون في أن الكتاب المقدس هو كلمة الله. ومع ذلك، فإنه على مدى السنوات العشر الماضية أو ما يقرب من ذلك، دهشت بسبب اتفاقهم في الرأي حول موضوع واحد هو : إذا كان للعائلات المسيحية أن تعاني، فالآباء يجب أن يعطوا اهتمام قلوبهم لبيوتهم، وأن يصبحوا أبوين منخرطين في همومه وليسوا مجرد أسياد غائبين يمدون زوجاتهم بصفة أساسية بما تحتجنه لتربية الأولاد.

لعل المسيحيين (بل إنهم بالفعل) يختلفون حول توقيت، بل حتى شرعية دخول زوجاتهم مجال العمالة التي تتقاضى أجراً. ولكنهم متفقون بوجه عام حول حاجة الأزواج لوجودهم في المنزل بشكل ملموس، وأن يشاركوا في تنشئة الأولاد بفاعلية. أما جيمس روبسون James Robson، وهو كاتب شعبي في موضوعات الأسرة فيوجه انتقاداً قوياً للرجال الذين يتخلّون عن عبء الأبوة لزوجاتهم، وبهذه العملية كثيراً ما يعزلونهن عن الشركة مع البالغين، وإذ يتطلع للماضي لعمله الذي قضى فيه مدة طويلة "كمبشر". فحتى بيللي جراهام اعترف أنه في الثلاثينيات والأربعينيات من عمره "حاول أن يعمل الكثير جداً"، وحذّر الرجال المسيحيين بألا يستعملوا وظائفهم، أو "بناء الملكوت" كعذر لتجنب أطفالهم : "فالطفل في البيت يحتاج أن يعرف أنه (أو أنها) محبوب معهم، وأنه (أو أنها) يستطيع أن يعتمد على رعاية الأب أو الأم ـ غير المشتتة ـ أثناء النهار".

ولهذا لا أعتقد أن القناعة الدينية هي التي تجعل الرجال المسيحيين يتجنبون تحديات القيام بواجبهم كآباء. إنها بشكل جزئي صعوبة التغلب على مشاعر مدفونة بشكل عميق في سماتهم الاجتماعية كذكور. ثم إنه، وكما أشرت، فالنساء أيضاً لديهن مثل هذه الصراعات. فعلى أحد المستويات لهن الحق في ألاّ يكُن تعيسات بتغيب الأزواج بشكل كبير، حيث يتركونهن يتحملن عبء الأبوة وحدهن، بغض النظر عن مقدار النقود التي يحضرونها إلى البيت. إلا أنه على مستوى آخر، فإن شعورهن العاطفي بالكفاية كنساء مرتبط بشكل وثيق بالمعايير الثقافية عن "كمال" القيام بدور الأم، حيث يدبرن بيتهن، والدعم الذي يقدمه الأزواج. ومع ذلك فإنه على مستوى آخر، هناك إحساس بالقوة مرتبط بكونهن أكثر الأشخاص البالغين أهمية عند أطفالهن، الأمر الذي نرى النساء في كثير من

الأحوال وقد تشتت فكرهن من ناحية مشاركة أحد لهن في ذلك، حتى وإن أبـدى أزواجهن استعداداً للقيام بذلك.

بحث في الأبوة : مغامرة جديدة تماماً، في كرة القدم

والآن، صدِّق أو لا تُصدِّق، أن البحث في موضوع البنوة هو مبـاراة جديـدة تماماً كما في علم النفس. وإلى وقت قريب جداً لم يكن هناك علـى وجـه التقريـب سيكولوجية خاصة بالأبوة، ولكن للأمومة فقط، والتي افتُرضت أنها مرادفة للأبوة. والواقع أنه حتى الستينيات كان البحـث الوحيـد عـن الأبـوة يتنـاول نتـائج غيـاب الأب، لموته أو بسبب الطلاق أو الخدمة العسكرية ـ ولاسيما بالنسـبة لتطـور هويـة الأبناء بالنسبة لأدوار الذكورة والأنوثة. وقليلـون مـن البـاحثين هـم الذيـن اهتمـوا بالتساؤل عن تأثير غياب الأب على بناته، والواقع أنه ما من أحد حاول أن يتحرى طبيعة ونتائج غياب الأب بالنسبة للبنات أو الأولاد.

ومن الطبيعي أن محاولة فهم دور الأب فقط عن طريق العائلات الـتي يتغيـب فيها الأب تشبه بـالأحرى محاولـة فهـم الأمومـة فقـط عـن طريـق دراسـة الأطفـال المودعين بالمؤسسات الخيرية، والذين حُرِمـوا مـن الأمهـات. ولقـد رأينـا كيـف أن البعض يمكن أن يقاوموا عاطفياً أي تغيير في أدوار الذكورة والأنوثة المتأصلة فيهـم، حتى وأن اتصفوا بأفضل النوايا، وذلك مع افتراضـاتهم مـن ناحيـة قصـر الموضـوع على الأمومة وغياب الاباء بدرجة كبـيرة. وقـد رأينـا في الفصـل السـابع كيـف أن فترات الاختبار الحاسمة المُبكرة تساعد على تفسير هذا. فالأولاد الذيـن حُرِمـوا مـن آبائهم في سن مبكرة يتعرضون لخطر أن يصبحوا بالغين بهوية ذكرية هشة. ونتيجة لذلـك تراهـم يتسـمون وبـإفراط بنوعيـات السـلوك الذكريـة مـن الناحيـة الثقافيـة ومقاومين من الناحية العاطفية لكل مـا يبـدو أنـه "نسـائي"، بمـا في ذلـك الانخـراط

الوثيق مع أطفالهم. ولكن ما هي نتائج الإفراط في ظاهرة اهتمام الأمهات فقط بأطفالهن فيما يتعلق بتأثير ذلك على البنات ؟ وما هي تأثيرات وجود الأب بالنسبة للأولاد والبنات، ولاسيما بالنسبة للسنوات القليلة الأولى من الحياة ؟ هذه هي الأسئلة التي ستكون موضوع اهتمامنا بقية هذا الفصل.

العلاقات الملموسة والشخصية الأنثوية :

لنبدأ بتأثير العائلة "النمطية" على شخصية البنات والهوية من ناحية الذكورة والأنوثة. ولقد رأينا في الفصل السابع أن الوجود شبه المستمر للأم، والغياب شبه الدائم للأب كانا يشكلان بركات مشتركة بالنسبة للأولاد. والآن أصبح الأمر جلياً حيث أن منظومة حياة العائلة (الأم باعتبارها الراعي المستمر، والأب الغائب في أغلب الأحيان لكسب الرزق) لابد وأن يكون لها نتائجها المتباينة على البنات. في الطفولة المبكرة نرى البنات والأولاد متعلقين على حد سواء بالأم كراعيتهم الأساسية. ولا تكون لديهم أية فكرة من ناحية أنها "مؤنثة" بالتقابل مع "المذكر"، أو من ناحية أنها من "نفس" جنسهم، أو "مختلفة" عنهم في هذه الناحية. وفي سن الثالثة تكون البنت الصغيرة قد عرفت أنها أنثى وستظل دائماً هكذا، وأن نفس الشيء ينطبق على أمها. وفي البداية تكون هذه معرفة إيجابية جداً ومطمئنة، لأنه لكي تعرف البنت الصغيرة معنى أن تكون مؤنثة من الناحية الثقافية، فهي في حاجة إلى أن تعمل ما يتأتى طبيعياً ـــ أي أن تلتصق بصفة وثيقة بالأم. فهي ليست في حاجة، مثل أخيها، إلى أن تتساءل ما إذا كانت أعمالها ومشاعرها الخاصة بنوعية جنسها "سليمة" لأنه قد توافر لها نموذج دائم لدور من نفس الجنس، يغذيها دائماً بما تود معرفته كأنثى نامية. وفي ظل هذه النوعيات من الترتيبات الأبوية، فإن الأنوثة المُحددة ثقافياً أمر يتأتى عن طريق "الإمساك به" وليس عن طريق التعلم، فهو يُلتقط

من خلال تفاعلات لا حصر لها مع الشخص الذي هو في ذات الوقت نموذج لدور من نفس الجنس، وأكثر الأشخاص قيمة وقوة في العالم المحدود للبنت الصغيرة.

وهذا لايعني إنكار وجود عائلات غير سوية، الأمهات فيها ميالات إلى الرفض والانتقاد حتى إن بناتهن تصبحن غير مطمئنات على الإطلاق من ناحية احتمال نجاحهن كعائلات. غير أن البنات في معظم العائلات لهن ميزة من ناحية السهولة التي تشكلن بها هويتهن الجنسية. وهذا يُفسر السبب في أن النساء عادة ما تملن إلى أن يكُنّ أكثر راحة من الرجال في علاقاتهن. وهُن على النقيض من الأولاد، لا تُجبرن على الابتعاد عن الشيء الذي كان موضع حبهن الأول (الأم) والذي تتدعم فيه هويتهن الجنسية. وبناء على ذلك، وكما يقول المختصون في دراسة العلاقات بين الأشياء، "حدود الأنا" عند البنات تكون أكثر قابلية "للنفاذ" أي الاختراق. ومعنى هذا هو أن شعور المرأة بأنها شخص، منفصل ومميز عن الآخرين، قد ينمو بأقل قوة مما عليه الحال بالنسبة لمعظم الرجال. وإذ أُتيح لهن أن يتمثلن تماماً بأمهاتهن في صغرهن، فيبدو أن النساء يجِدن أن الأمر أكثر سهولة ومتعة من ناحية تكوين روابط وثيقة مع الناس ـ المشاركة في فشلهم ونجاحهم والتناغم مع الحالة العاطفية للآخرين.

التكلفة والفوائد :

إلى عهد قريب كان يُنظر إلى أن البنات تنشأن أقل فردانية وأكثر ارتباطاً بالآخرين بأكثر مما هو حاصل بالنسبة للأولاد، على أنها دليل يُثبت أنهن غير مهيآت لقسوة الحياة العامة. وعلماء النفس، التحليليون والمعرفيون يقولون بأن النساء تفتقرن إلى البُعدين الأدبي والفكري كي تستخدمن المبادىء العامة وليس الولادات الشخصية، ليأخذن أوضاعهن العادلة في مجالات القانون، وإدارة الأعمال والحكومة. ويتفق لويس C.S.Lewis مع هذا الرأي، ويقدمه كأحد أسباب رئاسة

الأزواج "الطبيعية" على زوجاتهم، لأنهم أكثر منهن لياقة لأن يكونوا ممثلين للعائلة في العالم ككل (انظر أيضاً الفصل الثالث عشر).

إلا أنه منذ فترة قريبة أُعترف بهذه العقلانية غير الشخصية على أنها البركة المشتركة. لأنه حتى في الحياة العامة دائماً تُتخذ القرارات في إطار علاقات بين العمال والإدارة، مندوبي المبيعات والعملاء، المحامين وأصحاب القضايا، الأطباء والمرضى، النواب ودوائرهم، والقائمة لا نهاية لها. وكسب العيش في المجال العام لا يمكن أن يكون "غير شخصي"، وهو "عمل موجّه" محض. وبصفة خاصة في المؤسسات الكبيرة، حيث يتعيَّن على العاملين في أدوار كثيرة ومتباينة أن يُنسقوا جهودهم، نجد حاجة متزايدة إلى عمق المشاركة الوجدانية، واللباقة والمهارة في القرارات المتعلقة بأى نزاع. وهكذا فإن اهتمام النساء بالعلاقات والتي تعززت أثناء السنوات الأولى من ارتباطهن الواضح بأمهاتهن من المحتمل أن يكون نتيجة لمصدر نشأتهن وليس نتيجة لمسئوليات الحياة.

الغيرية غير الناضجة :

هناك تكاليف وكذلك فوائد في أسلوب النساء الأكثر تمركزاً حول الذات. وقوة هذا الأسلوب تكمن في الاهتمام بحفظ العلاقات وحل النزاعات من خلال الحوار وإيجاد حلول وسط بدلاً من التطبيق الصارم لمبادىء مجردة. غير أنه في كفاحهن لحفظ شبكة من العلاقات قد تهمل النساء الشعور بمسئولية ناضجة فيما يتعلق بأعمالهن. وتحدد العالِمة النفسية كارول جيليجان Carol Gilligan، من جامعة هارفارد، في كتاب جعلت الهدف منه تحليل وتقدير "صوت النساء باختلاف آرائه" ـ الذي يُبرز المشاكل التي تنجم حين تفشل النساء في أن توائم بين نزعتهن إلى تكوين العلاقات والشعور الشخصي باحترام الذات والمسئولية.

وإحدى دراسات جيليجان تتضمن مجموعة من النساء الشابات تحاولن تقرير ما ينبغي عمله عندما يحملن دون تخطيط مسبق. ولم يكن هدف الدراسة هو حثهن على اتخاذ إجراء أو آخر. بل اكتشاف سُبل معالجة النساء لهذه الورطة الأخلاقية النسائية المحضة ـ وهي مشكلة تتأثر فيها حياتان في نفس الوقت، لأن إحداهما تحمل الأخرى. وأقل الاستجابات نضجاً ـ في رأي جيليجان ـ جاءت من شابات لم تتخذن القرار إلا على أساس رغباتهن المباشرة، متجاهلات تأثير ذلك القرار على بقية الأشخاص الآخرين الذين لهم علاقة بالموضوع (الطفل، والد الطفل، أبوي الشاب والفتاة، وما إلى ذلك). إلا أنه كانت هناك أيضاً نساء غير ناضجات، وعلى النقيض من ذلك تماماً فقد حاولن إنكار أية مسئولية شخصية بالنسبة لبداية الحمل أو التعامل معه، وذلك بالرجوع فقط إلى رغبات شخص آخر. فقد جاء الانخراط في عملية جنسية غير محرمة لكي "تُسِر" أو "لا تخسر" شخصاً آخر (من تعاشره)، وكانا الآن مستعدين أن يعملا أي شيء يريده "شخص آخر" (الصديق، الوالدان، أو ما إلى ذلك) ـ إجهاض أو عدم إجهاض ـ لكي تحفظ الوضع الراهن للعلاقة القائمة.

والوضع بحسب الظاهر، هو أن هؤلاء النساء تقدمن من حالة "الأنانية" التامة التي تنشأ عن الاستجابة الأولى إلى اهتمام صحيح بالآخرين الذين يشملهم الأمر. لكن من الواضح أن مثل هذا الاهتمام بالآخرين يحجب وراءه إنكاراً عميقاً للمسئولية. وفي هذه الحالة : "لقد فعلت ذلك من أجل شخص آخر" تصبح غطاء لـ "لست مضطرة لأن أتحمل مسئولية سلوكي"، وهي نقطة أبرزتها حقيقة أن بعض النساء اللواتي قدَّمن هذه الإجابة كن يصارعن ليس مع أول حَمل غير مرغوب فيه بالنسبة لهن، بل كان الحمل "الثاني". وبحسب ما تقوله جيليجان، هؤلاء النسوة " أُمسِكن بين سلبية التبعية وإيجابية الاهتمام ". لقد أقنعن أنفسهن بوعي أو بغير وعي

أن جوهر الأنوثة هو إرضاء الآخرين، وأنه إذا ما واصلن عمل ذلك فحسب، فإن "الآخرين" سيعتنون دائماً بهن.

وحين اتصلت جيليجان بهؤلاء النسوة الشابات بعد ذلك بسنة، وجدت أن الكثيرات منهن استيقظن على خبرة قاسية. فالعلاقات قُطعت على الرغم مما فعلنه (سواء من أجهضت أو من أبقت على الطفل) في محاولة لتوطيدها. وهذه الصدمة هي التي دفعت بكثيرات من النساء الشابات إلى ما وراء هذه النوعية من الاتكال غير الناضج والذي كانت النساء في ذات الوقت تُكافأن بسببه أو تلقين اللوم على مدى التاريخ. فكثيرات اكتسبن شعوراً ـ تأخر وقته زمناً طويلاً ـ بأنهن مدعوات لعمل وهدف، وكن يعملن لتحقيقه. والواقع، أنهن جئن لتقولن : "على الرغم من أن العلاقات لها أهميتها، فليس بمقدوري أن أتحرر من المسئولية عن أعمالي، أو كعذر لعدم تنمية واستخدام مواهبي". وهكذا فإن اهتمام النساء بالعلاقات، الذي تعزز أثناء السنوات الأولى من ارتباطهن غير المنقطع بأمهاتهن، إنما هو بركة مختلفة. فمن ناحية يُعد هذا صحيحاً مطلوباً للأسلوب الذكري المجرّد، العام وغير الشخصي. ومن ناحية أخرى، فإنه يصبح بسهولة عُذراً للإخفاق في تنمية بعض نواحي النضج الأخلاقي للبالغين.

وأرجو عدم إساءة فهم مبرراتي لإشراككم في هذه الدراسة. فليس المقصود بها اقتراح الموافقة على الإجهاض عند الطلب. غير أن دراسة جيليجان لا تشير إلى أن ورطة المرأة الأخلاقية لا تُحَل بمجرد قرارها بأن تُنجب طفلاً طبقاً لشروط. فإذا دفعها "الإيثار غير الناضج" إلى أن تحمل أولاً، وإذا لم تشجع المرأة الشابة إلى أن تذهب إلى أبعد منفانها نتيجة لهذا، لا تنمو. وبينما كنت أود لو كان بوسعي القول إن الكنائس في طليعة أولئك الذين يساعدون المرأة على أن "تنمو" إلى توازن سليم

بين الايثار والاستقلال. ولكني أعرف أن الحال ليس على هذا النحو في كثير من الأحوال. فهناك كنائس كثيرة جداً لا تُشجع في المرأة الفكر المستقل والقيادة بين الناس على اعتبار أن هذا ليس من طبيعة الأنثى، ويتعارض مع الخضوع المفترض فيها. كثيرون يرتون لحال النساء غير المتزوجات اللواتي يفتقرن إلى أزواج "يعنون" بهن، كما لو أن المرأة إذا ما عالت نفسها من خلال عمل خارج البيت يُعد من ناحية ما خرقاً لنظام الخليقة. وحقيقة أن بعض النساء يتخذن من نظام الكنيسة عذراً بعدم ممارستهن فكراً وعملاً مستقلين لا تجعل من هذا أمراً مستساغاً بأي حال. بل إن هذا يوحي بأن أياً من الجنسين لم يعترف بتخلف مثل هذا السلوك، وهي الطريقة التي أدت إلى المغالاة في دور الجنس اجتماعياً، وإلى استمرار الهياكل الاجتماعية الظالمة لا تترك للنساء سوى خيارات قليلة جداً للتصرف.

نتائج بحوث حول دور الأب :

السلوك المشوّه لدور الذكورة والأنوثة كذاك الذي تبين من إجابات النساء التي عرضتها جيليجان، إنما هو متأصل أساساً في سقوط البشرية. غير أنه، وكما رأينا في النماذج الشاملة التي عُرضت في الفصل السابع، فإن المعايير الأبوية يمكنها أن تضخم من الأمر أو أن يتجه الرجل اتجاهاً عكسياً ويميل إلى إساءة استخدام السلطان، وكذلك ميل المرأة إلى إساءة استخدام قدرتها على تكوين علاقات اجتماعية. وقد عرفنا أنه في الثقافات التي تُتيح تعدد الزوجات حيث لا يوجد تقريباً تواصل بين الآباء وأطفالهم الصغار، فإن الفصل بين الجنسين واحتقار النساء يصل إلى مستويات خطيرة. وفي الثقافات البدوية، والتي تأخذ بمبدأ الزوجة الواحدة، حيث أدوار الذكورة والأنوثة أقل صراحة، ودائماً يشترك الآباء في القيام بدورهم الأبوي، وتصبح النساء أكثر استقلالية، والرجال أكثر قبولاً للعلاقات، ويزداد تقييم الجنسين على قدر أكبر من المساواة.

وبسبب التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لثقافتنا، فإن الأب النموذجي في المجتمع الغربي الصناعي نراه في الغالب غائباً عن الفترة المُبكرة من نمو أطفاله تماماً مثل الرجل الذي يتزوج من أكثر من واحدة في المجتمع الذي يعتمد في إعالته على الزراعة. وقد أشرت إلى ما يتحمله الأولاد والبنات حين تتركز الترتيبات الأبوية تقريباً حول دور الأمومة الأكبر والدور الهامشي للأب. ولكن ما التأثير الذي يُحدثه وجود الأب بشكل أكبر في حياة الأطفال الصغار ؟ سوف نجيب على هذا السؤال بنظرة على العمل الجديد والمثير جداً والذي تم حول "سيكولوجية دور الأب".

والبحث حول دور الأب تضمَّن ملاحظات كثيرة عن التفاعل بين الأب / الطفل، في المستشفيات بعد ولادة الطفل الأول مباشرة، في المعامل التي تستهدف قياس ارتباط الأطفال الأكبر سناً بآبائهم، وأثناء زيارتهم لبيوت العائلة. وهذه الوسائل لها ميزة إعطاء معلومات "جيدة النوعية" من شرائط الكاسيت، وشرائط الفيديو والسجلات المكتوبة بشكل نظامي، والتي يمكن تحليلها إلى أدق تفاصيلها. أما من ناحية مساوئها، فتتمثل في أنها عُرضة لأن تُعطي نتيجة "كحقل تجارب". وبالنظر إلى أن الآباء يعرفون أنهم تحت الملاحظة، فقط لا يكون سلوكهم نمطياً. ومع ذلك، فبالنظر إلى أن الوسائل الأخرى (وسوف نصفها بعد قليل) تساعد على تعويض هذا التحديد، فلسوف أتابع الموضوع وألخص نتائج هذه الدراسات التي قامت على أساس "ملاحظات تحت السيطرة".

إبان الزيارات الدراسية للمستشفى، حيث يُراقب الوالدان أثناء تفاعلهما مع مولودهما الأول، قام الباحثون بمقارنة كمية ونوعية "السلوك المُلزِم" الذي أظهره الآباء والأمهات نحو أطفالهم. والسلوك العاطفي يشمل أنشطة مثل احتضان الأطفال، وأرجحتهم، والنظر إليهم، والابتسام في وجوههم، والغناء لهم، ولمسهم

وتقبيلهم. وقد كشفت هذه الدراسات أن الآباء يتصرفون بالضرورة بنفس الطريقة التي تتصرف بها الأمهات مع أطفالهن المولودين حديثاً، ناهيك عن الطبقة الاجتماعية، وبغض النظر عما إذا كان الأب موجوداً أثناء الولادة بالفعل. بل ولا يختلف الآباء والأمهات الجدد من ناحية تجاوبهم النفسي لأطفالهم المولودين حديثاً. وحين راقبوا حالة القلب وضغط الدم، وُجِد أن الآباء من كلا الجنسين يتجاوبان بنفس الطريقة وإلى نفس المدى، حيث يُظهِر الطفل ضيقه. غير أنه مما تجدر الإشارة إليه، أنهم يختلفون في استجاباتهم الأكثر علانية واللفظية. وفي المتوسط، تُعبِّر الأمهات عن اهتمام أكبر بالأطفال حين يتواجدن وسط مجموعة، بأكثر مما هو الحال حين ينم سؤالهن على انفراد، غير أن العكس تماماً هو ما يحدث بالنسبة للآباء. وعلى النقيض من الأنماط المتكررة القائمة، نجد أن الآباء أكفاء ومتجاوبين مثل الأمهات من ناحية أطفالهم المولودين حديثاً، ثم إنه ـ ما لم يُسألوا علانية ـ يُعبرون على الأقل عن نفس القدر من الاهتمام بهم.

وهناك نوع آخر من الدراسة التي تعتمد على الملاحظة والتي تُعرَف باسم "نموذج الارتباط". وفي هذه النوعية من الدراسة، يُحضِر الآباء طفلهم، أو الطفل الذي بدأ يتعلم المشي إلى معمل عبارة عن حجرة لِلعب لمدة ساعة أو ما يقرب من ذلك. ويُطلَب من الأب (أو الأم) أن يمكث مع الطفل أولاً، أن يجلس ويقرأ لا أن يلعب بنشاط مع الطفل، ولكن عليه أن يُجيب إذا أبدى الطفل أي تفاعل. وهذا ساعد الباحثين على أن يُحصلوا على قياس "الخط الأساسي" لارتباط الطفل ـ بتسجيل مدى مكوث الطفل بدرجة وثيقة مع الأب، أو طلبه العون أو الراحة. بعد ذلك يُطلب من الوالد أن يخرج من الحجرة لدقائق قليلة ويُترك الطفل ليلعب وحده. والدرجة التي يتوقف الطفل عندها عن اللعب، ويُبين ضيقه، أو يحاول أن يجد الوالد ـ الأب أو الأم ـ (حيث يتوجه إلى الباب، وينظر حوله وما إلى ذلك)

تُعد مقياساً ثانياً للارتباط. وفي المرحلة الثالثة من الملاحظة، يدخل أحد البالغين غير المعروفين لدى الطفل إلى الحجرة ويحاول اللعب معه. ودرجة الضيق التي يُظهرها الطفل تجاه الشخص الغريب (ودرجة "سلوك التعلق" التي تظهر حين يحل الوالدان محل الغريب) تُشكّل القياسات الأخيرة للارتباط.

وإلى عهد قريب، فإنه من بين مئات الدراسات التي أُجريت باستخدام نموذج الارتباط هذا لم تتضمن أي منها الآباء. وتم تصحيح هذا أخيراً في السبعينيات، حين قامت دراسات عديدة وبشكل نظامي بمقارنة سلوك ارتباط الأطفال بكل من الأمهات والآباء. وكانت النتائج هي : حتى سن إثنى عشر شهراً، لم يكن هناك اختلاف في كمية ونمط سلوك الارتباط الذي أُظهِر تجاه الأب بمقارنته بالأم، فقد تفاعل الأطفال تجاه كلا الوالدين على قدر من المساواة وتعرَّفوا على كل منهما بنفس الطريقة التي تعرَّفوا بها على الغريب. والنظريات السابقة عن نمو الطفل افترضت بأنه لأسباب تتعلّق بحب البقاء فحسب، كان الأطفال بالغريزة يميلون في البداية إلى رابطة مبكرة مع الأمهات فقط. ومع ذلك فإنه فيما بين السنة الأولى والثانية من العمر فقط يظهر هذا النموذج الذي يفضل الأم. وهذا لم يكن يدعو إلى الدهشة، إذا أخذنا في الاعتبار أنه في كل العائلات كانت الأمهات التي شملتهن الدراسة هن من يقمن بعناية الأطفال بصفة أساسية. ولكن حتى مع هذا، فإن ربع عدد من تعلّموا المشي حديثاً أظهروا التصاقاً بالأب أكثر من الأم، وربع آخر أظهر التصاقاً بنفس القدر بكلا الوالدين. وعلى العكس من الحكمة الشائعة، فإن الآباء من الشخصيات البالغة الأهمية في عيون أطفالهم حتى إن درجة غيابهم الكبيرة عن البيت لم تُقلل من جاذبيتهم عند بعض الأطفال الذين شملتهم الدراسة.

وأخيراً، لاحظ الباحثون تفاعلات الأب / الطفل في بيئة البيت. ولعل أكثر هذه الدراسات دقة تلك التي أجرتها عالِمة النفس ميشيل لامب Micheal lamb، التي

اختارت بطريقة عشوائية عشرة أطفال بكر من كل جنس من سجلات المستشفى ودرستهم من خلال زيارات منزلية متكررة حتى بلغوا سن الثانية. وكما أشرت في الفصل السابع، سلوك الطفل يتأرجح بين الارتباط بمن يعتنوا به والاهتمام المتزايد بالعالم الأرحب. ولقد لاحظت لامب هذا التوتر بالتمييز بين سلوك الأطفال من ناحية "الارتباط" و"الانتساب" (ولو أني أعتقد أن تعبير "الانتساب المعرفي" يُعبِّر بشكل أفضل عن هذه الحالة الأخيرة). وسلوكيات الارتباط كانت تلك التي تستهدف الحصول على الراحة والتلامس البدني حين يخاف الطفل، أو يشعر بأذى أو ضيق. وعلى العكس من ذلك، فإن سلوكيات الانتساب المعرفية استعملها الأطفال لإشباع حب الاستطلاع لديهم من الناحيتين الاجتماعية والفكرية، وتضمنت ظهورهم وهم يبتسمون، يضحكون، يُغنون ويلعبون. واكتشفت لامب أنه على أساس قياسات الارتباط وحدها، لا يُميِّز الأطفال عادة بين الأمهات والآباء. ولكن إذا كانوا متعبين، أو تضايقوا لوجود غريب، هنا فقط يُظهِرون سلوكاً مرتبطاً بالأم (وهذا أيضاً، لا يدعو إلى الدهشة لأن جميع الأمهات باستثناء واحدة فقط كُن في الأساس ممن تقمن بصفة أساسية برعاية أطفالهن).

ومع ذلك، فحين لا يكون الأطفال متعبين أو تحت ضغط أي أمر آخر ـ وبعبارة أخرى، حين يكونون قادرين وبحد أقصى على الانتفاع من التحفيز الاجتماعي والفكري ـ يكون الآباء بصفة عامة هم المُفضَلون في جميع المراحل حتى سن الثانية (حيث انتهت الدراسة) وعبر كل الطبقات الاجتماعية. وانتهت لامب إلى أنه في العائلات التي تكون فيها الأمهات هن اللواتي تعنين بالأطفال بصفة رئيسية، يُقدِّر الأطفال أباءهم على أنهم "الحافز الأفضل الجديد". بمعنى، أن الآباء ليسوا غير مألوفين لدى الأطفال بحيث يُثيرون فيهم القلق الذي يُحدثه الغرباء، ولكنهم يجيئون ويذهبون بكثرة كافية لتولد الاهتمام بهم "كحلي مثيرة" وبطريقة

لا تحدث مع الغرباء إلاّ بعد سن سنتين. ولاحظ أن هذا الاستنتاج لا يتطلب أن تكون الأمهات دائماً المعتنيات الأساسيات بالأطفال، والآباء "الحافز الأفضل الجديد". والواقع، أنه حين تزيد العائلات، نجد أن الإخوة والأخوات الأكبر سناً (بل وحتى الحيوانات المدللة) تتبنى سلوك الانتماء المعرفي. وما يعنيه هذا هو أن الذي يعتني بالطفل بصفة أساسية ـ أياً كان ـــ قد يصبح الهدف الرئيسي لسلوك الارتباط، لكن تلك السلوكيات التي تستهدف زيادة استقلالية الطفل بدنياً وفكرياً من المناسب أن توجَّه إلى أعضاء عائلة أخرى.

بل وحتى حين ينخرط الآباء في سلوك الانتماء المعرفي مع الأطفال يتبين أنهم يشرعون في ذلك بطرق مختلفة إلى حد ما. وقد اكتشف ميشيل يوجمان Micheal Yougman ـ وهو عالم نفساني بجامعة هارفارد ـــ هذا حين قام بتحليلات دقيقة لشرائط فيديو سُجلت على مدى ستة شهور في بيوت الأطفال. والأمهات بصفة مستمرة تُحدِثن أصواتاً أكثر، وتغنين مع أطفالهن، ولاسيما الألعاب التي تتضمن التقليد وتلك التي يكون لكل واحد فيها دوره. أما الآباء، فمن المحتمل بالأكثر أن يشتركوا في ألعاب بدنية مع أطفالهم : يربت على ظهر الأطفال الأصغر سناً، والقيام بلعب صاخب خشن بسيط وتحت السيطرة مع الأكبر سناً. وفضلاً عن ذلك، يُعبِّر الوالِدان عن تفضيلات متشابهة بالنسبة لهذه الألعاب، فنجد الأمهات تعبرن عن سعادة بالألعاب التي تتضمن الغناء أكثر مما تفعلن بالنسبة للألعاب البدنية، والآباء يعبرون عن العكس. والواقع أن الأطفال يحتاجون إلى كلا النوعين من الألعاب من أجل نموهم الاجتماعي والذهني. والحوارات التي تدور بين الأم والطفل تشجع على تنمية لغتهم، في حين أن ألعاب الأب التي تتجه بالأكثر إلى الناحية البدنية تساعد على تنمية مهاراتهم المنطقية والحركية.

ومن الطبيعي، أن حقيقة أن الآباء يميلون إلى مزاولة نوعيات مختلفة من الألعاب

التي يفضلونها مع أطفالهم لا تعني أن هذه الاختلافات تُضعِف الناحية البيولوجية. ومما هو جدير بالذكر أنها تواكب الناحيتين المعرفيتين اللتين يميل الرجال والنساء إلى الاختلاف حولهما، إذا حدث أن اختلفوا. وتُظهِر النساء تفوقاً ضئيلاً في المهارات اللفظية، كما يُظهِر الرجال تفوقاً بسيطاً في المهارات المنطقية. ولكن وكما سبق أن عرفنا، فإن التنشئة تُضيف الكثير إلى الطبيعة من ناحية ظهور هذه الاختلافات حتى إنه مع سن البلوغ، يستحيل فصل هذه الإسهامات. والمهم في الموضوع هو أنه إذا كان هناك والدان (أب وأم) منخرطان بشكل كبير في تربية أطفالهما، وكذلك تشكيلة من المشتركين في ذلك بصفة ثانوية، سيكون من شأن هذا احتمال تعزيز تنمية الطفل المعرفية والاجتماعية.

كفاءة الآباء بالمقابلة مع آدائهم :

ولكن القيد الهام الوارد في العبارة الأخيرة يتمثل في القول "الانخراط بشكل كبير". وإذا اقتصرنا فقط على البحث السابق ذكره، فلسوف ننتهي إلى استنتاج أن الآباء يتصرفون على شكل حسن للغاية. أليسوا أكفاءً كوالدين، وأليسوا مهمين من الناحية التنموية بالنسبة لأطفالهم، على الرغم من أي لغة طنانة تتحدث عن العكس ؟ نعم، هذه حقيقة، ولكن هناك فرقاً هاماً يجب أن نعرفه بين الكفاءة والأداء. ولا تقول لنا الدراسات التي أشرنا إليها آنفاً سوى ما يستطيع أن يفعله الآباء في مجتمعنا، وليس ما يعملونه عادة تحت المراقبة، حين تُسجل عنهم الملاحظات وتُسلط عليهم الكاميرات بمعرفة علماء الاجتماع. ولكي نُقيِّم درجة انخراط الآباء الفعلية مع أطفالهم نحتاج إلى الرجوع لدراسات تكون أقل عُرضة لتأثير "حقل التجارب". وأقل القياسات الخاصة بالآباء تطفلاً تأتي بما يُسمى

بدراسات "ميزانية الوقت". وهذه الدراسات، والتي قد تشمل آلاف الحالات وفي عدة بلدان، تتطلب في الأساس أناساً بالغين يُسجلون ما يعملون كل خمس عشرة أو عشرين دقيقة على مدى أيام الأسبوع (باستثناء الإجازات). وبالنظر إلى أنه لم يتم اختيار نشاط بعينه ليكون هدف الدراسة، فإنه ليس هناك احتمال في أن يشوّه المشتركون في البحث الوقت المسجل بالنسبة لأي سلوك، بما في ذلك الأنشطة التي تتضمن الأطفال. وهذه السجلات بالطبع، لا تعطينا سوى تقديرات عن كمية وليس عن نوعية الوقت الذي يقضيه الآباء مع أطفالهم. ولكن هذا أمر من المهم معرفته، لأن فوائد انخراط الآباء التي تعود على الأطفال ـ بما في ذلك الفوائد المعرفية والاجتماعية وتنمية هوية الذكورة والأنوثة ـ لا يمكن أن تؤتي ثمارها إذا كان الآباء غائبين معظم الوقت.

ودراسات ميزانية الوقت التي أُجريت في الثمانينات كانت تُبيِّن بصفة مستمرة أن الآباء يقضون خُمس كمية الوقت تقريباً كأمهات في أعمال منزلية خالصة بما ذلك رعاية الطفل. وزيادة على ذلك، ظل هذا الفرق لا يتغير في شمال أمريكا نتيجة وضع المرأة التي تعمل خارج البيت. وعدد كبير جداً من الحجج التي تُطرح ضد عودة النساء إلى الانخراط في صفوف العمالة تتركز حول ما سيعانيه الأطفال بما يُسمي "الحرمان من الاحتكاك الأبوي المباشر" والذي يتأتى نتيجة ذلك. ومع ذلك تُظهِر دراسات "ميزانية الوقت" أن الأمهات عادة لا يقضون وقتاً أقل مع أطفالهن حين تكون لديهن وظيفة خارج البيت. فهن بكل بساطة تختصرن الأنشطة الأخرى التي تعتبرنها أقل أهمية، بما في ذلك تنظيف البيت، الهوايات، قضاء الوقت مع الصديقات، بل وحتى النوم. وعلى العكس من ذلك، فإن الأب الذي يسكن شمال أمريكا، رغم أنه كفء تماماً للقيام بدوره كوالِد، إلا أنه في واقع الأمر لا يقوم بهذا الواجب إلا لمدة تتراوح ما بين عشر إلى ثلاثين دقيقة في اليوم.

وقد تبيَّن أن معظم هذه المدة نُقضى في توصيل الأطفال إلى أنشـطة، أو "مراقبتهـم" أثناء مشاهدة التليفزيون. ولعل أكثر ما يدعو إلى السخرية في كـل هـذا أن كثـيرين من الآباء المُطلقين يبلغون أنهم يقضون مع أطفالهم ـ بعد احتفاظهم بحق زيـارتهم ـ أوقاتاً أكثر مما كانوا يفعلون حين كانوا يعيشون معهم تحت سقف واحد.

الوجود الأبوي : ما هي مميزاته ؟

نتيجة أن نسبة غياب الأب المرتفعة لا تزال المعيار السائد حتـى في العـائلات المترابطة في شمال أمريكا، فإنه ليس من السهل الحصول على صورة كاملة لمـا تعنيـه نسبة حضور الأب العالية بالنسبة للأطفال من كلا الجنسـين. ولقـد ذكـرتُ المزايـا المعرفية والاجتماعية التي تتأتى حين يكون للأطفال الصغـار والـدان كـل منهمـا لـه أساليبه المختلفة قليلاً، ويتفاعل الأطفال معهما. لكن الكثير مـن هـذه المزايـا قـد لا تتطلب "عائلة نووية معيارية" لكي تظهر. وهناك خط مختلف من النظريـات يُشـير إلى أن "عدد" وليس "جنـس" البـالغين في العائلـة هـو الـذي يؤثـر في نمـو الأطفـال فكرياً. وهناك ميل للأبكار، وكذلك الأطفال الذين ليـس لهـم إخـوة، في الحصـول على درجات مُحصلة الذكاء أعلى من تلك التي يحصل عليها الأطفال الذين وُلـدوا بعد ذلك في العائلات الكبيرة. ويُشير بعض البـاحثين إلى أن هـذا يرجـع إلى أنـه في العائلات الكبيرة نجد أن حـاصل الجمـع (المقـدار الكلـي) للانتبـاه الذهـني للبـالغين "ينتشر بشكل ضعيف" بين أطفالها بأكثر مما هو الحال في العائلات الأصغـر. ومثـل هذه النتائج قد تكون في الواقع مصدر ارتياح، ولاسيما بالنسـبة للآبـاء الوحيديـن، لأنهم يقولون إنه طالما توافرت للأطفال اتصالات رفيعة المستوى مـع أيـة مجموعـة ملتزمة ويعتمـد عليهـا مـن البـالغين (بمـا في ذلـك الأجـداد، والأقـارب الآخـرون، المدرسون، قادة الشباب ... إلخ) فـإن نموهـم الاجتمـاعي والذهـني لـن يعـاني مـن شيء.

لكن النمو الذهني والاجتماعي يتأتى في سياق ظهور هوية جنسية (من حيث الذكورة والأنوثة)، وهذه هي المنطقة التي يحتاج الأطفال من كلا الجنسين، بكل وضوح إلى الانخراط فيها، مع وجود من يعتنون بهم من كلا الجنسين. وفي حالة الأولاد، فالحكمة التقليدية تقول بأن إحساسهم النامي بالذكورة لا يتطلب سوى "أب "وأن يدبر لهم احتياجاتهم بشكل "جيد"، وإلى "ذكر قوي" معروف بقوته في العائلة وفي خارجها بشكل عام. غير أن الواقع هو أن الأولاد الذين هم أكثر شعوراً بالأمن من ناحية ذكوريتهم هم الذين انخرط آباؤهم بشكل كبير في العناية بهم، والذين كانوا يجدون مرونة من ناحية التنشئة والدور الجنسي، وليس الآباء الذين يميلون إلى العقاب وإلى أن يكون دور ذكوريتهم نمطاً متكرراً بالنسبة لأبنائهم. وهذه نتيجة قوية جداً وثابتة حتى أن الباحثين في شئون الوالدين عُرف عنهم قولهم إنه يكاد يكون من المستحيل على الأب أن يكون مربياً أكثر من اللازم لأبنائه. وهذه نقطة هامة يجب ملاحظتها لأنها تُبرِز حقيقة أن مجرد انخراط الأب بقدر كبير أمر لا يكفي. ويمكن للأب أن ينخرط في تربية أولاده بشكل كبير، ولكنه مع ذلك لا يزال أب تتكرر أدواره برتابة فضلاً عن كونه مُستبداً، وهو بهذا يستمر في سلوكه بدلاً من أن يُعيد تربية ذكورية ابنه غير الآمنة، واحتقاره اللاحق للنساء.

أما بالنسبة للبنات، فتوجد الآن بعض المعلومات المتاحة حول نتائج غياب الأب وكذلك تواجده. والبنات اللواتي فقدن الآباء بسبب الموت يملن إلى أن تكبرن وقد تملكهن الخوف المُفرِط والمكبوت في حالة حضور الرجال، في حين أن أولئك اللواتي فقدن آباءهن بسبب الطلاق، يملن إلى التصرف على النقيض من ذلك : تسعين إلى التقرب من الذكور وأن تكن مصدر انتباههم، وتملن إلى أن تنشطن جنسياً في سن مبكر بعكس أولئك اللواتي تنتمين إلى عائلات متماسكة.

غير أنه في خين أن وجود الأب واشتراكه في التنشئة له نتيجة إيجابيـة واضحـة علـى ذكورة الابن، إلا أن النوعية الخاطئة من التنشئة قد يكون لها أثر سيىء على البنات. وهناك أبحاث كثيرة تُبيِّن أنه حتى لو قضى الآبـاء وقتـاً أقـل مـع أطفـالهم، إلا أنهـم أكثر إصراراً من الأمهات على ان يُظهِر أطفالهم سلوكاً "سوياً" من ناحيـة دورهـم الجنسي. وهكذا تراهم ميالين لتشجيع بناتهم من ناحية الملابس النسائية والأخـلاق والثقة. وحين يُضاف هذا الضغط إلى رغبة البنت الصغيرة، تلك الرغبة التي نشـأت داخلها بأنه تُسِير الآخرين، ولا تظهر بمظهر الميَّالات إلى الجزم، فـإن هـذا قـد يُثبِـط تحفزها على الوصول إلى حالة من الفكر العقلاني.

والنساء اللواتي تشغلن مراكـز الإدارة العليـا، وعالمـات الرياضيـات، أكـدن بصفة منتظمـة نفـوذ آبـائهن عليهـن مـن ناحيـة اختيـارهن ومتـابعتهن لوظـائفهن. ومعظمهن نشأن في بيوت يُشجع فيها الآباء على الاستقلالية والإنجاز وليس الأنوثة التقليدية. وليس معنى هذا أن الآباء كانوا بعيديـن عاطفيـاً أو غـير مهتمـين بتنشـئة بناتهم، إلا أن ما شجعوهن وربوهن عليه هو مـا أنجزنـه بأنفسـهن، والمقصـود هنـا مستقبل ناجح في عالم الرجال الشهير. بل وما كانت القضية هي أن النساء اللواتـي حققن إنجازات كبيرة لم يكُن لهن تأثير كأمثلة حية، فقد بينت دراسات أخرى بأنـه كان لهن بالفعل تأثير. ولكن وكما وضَّح الأمر أحد المراقبين فقال :

التأثير الحقيقي للأب قد يكون في قدرته إزاحة القيود الخاصة بأدوار الذكورة والأنوثة بحسب وصفها الاجتماعي .... فالآباء الذين حققت بناتهم إنجازات عاليـة لم يبعثوا إلى بناتهم برسالة تقول إن أنشطة معينة هي المجال الخاص بجنس أو بـآخر. لقد أعطوا بناتهم الرسالة التي تفيد بأن الجنس ليس هو المتغير الأكثر أهميـة والمنظـم لشئون الحياة، حين يكـون الأمـر متعلقـاً بتحديـد مـا إذا كـان يتعينّ علـى البنـات الاشتراك في أنشطة معينة أم لا.

عن الأولاد والأطفال :

إنه لأمر مُحبِط إلى حد ما، أن الأب لابد وأن يكون قادراً على إزالة القيود التي تحد من أدوار الذكورة والأنوثة، ورغم هذا يستمر الآباء في أن يُنمّوا هذه الأدوار في أبنائهم وبناتهم على نحو رتيب متكرر.

لأن هذا لا يعطّل الإنجاز الفكري لدى البنات فحسب، بل إنه يخنق تنمية التنشئة في الأولاد أيضاً. وتقول الحكمة الشائعة إن البنات الصغيرات (من الناحية البيولوجية) مهتمات أكثر "بشكل طبيعي" بالأطفال أكثر من الأولاد. لكن سلسلة حديثة من الدراسات تهدم هذا الافتراض.

وقد احضروا الأطفال ممن يتراوح سنهم بين الثانية والسادسة كل بمفرده إلى حجرة كان بها طفل سنه ستة شهور، جالساً يلعب، في الوقت الذي كانت أمه تقرأ على مقربة منه. وكان الطفل يرتدي ملابس محايدة ويوصف عشوائياً بأنه يمكن أن يكون ولداً أو بنتاً، كما في الدراسات الأخرى المتعلقة ب "الطفل س" (انظر الفصل الثالث). وقد طُلب من أم الطفل ألاّ تتدخل سوى بأن ترحب بالطفل الزائر. وفي التحليل الناجم عن ذلك، لم يُحدِث جنس الطفل الذي في الحضانة أي فرق أياً كان بالنسبة لكمية الكلام، اللمس، أو اللعب الذي انشغل به الأطفال مع هذا الطفل، بل وكان الأمر كذلك بالنسبة لحقيقة أن بعض الأطفال كان لهم إخوة أصغر منهم في حين أن الآخرين لم يكن لهم. والجنس "المُفتَرض" للطفل هو الذي أحدث الفرق، ولكن هذا لم يكن دائماً في الطرق التي يمكن التنبؤ بها. فالبنات من كل الأعمار تتفاعلن بالأكثر مع الأطفال الذين يعتقدون أنهم من نفس جنسهن. غير أن نفس الشيء ينطبق على الأولاد ولكن بالنسبة لمن هم في سن التانية أو الثالثة فقط، أما في سن الرابعة وحتى السادسة فالأولاد يفضلون في الواقع ما يعتقدون أنه "أطفال بنات".

ولكن حينما كُررت التجربة مع من هم في سن الثامنة، ظهرت أنماط الحكمة الشائعة : لعبت البنات مع الطفل وتحدثن إليه ولمسنه بأكثر كثيراً من الأولاد. ومع ذلك فحين سؤل أطفال من نفس السن ـ على انفراد ــ ما إذا كانوا يعتقدون أنه يمكنهم العناية بطفل أم لا، وإذا كان الأمر كذلك، كيف سيقومون بذلك، هنا عبَّر الأولاد والبنات عن قدر متساوٍ من الثقة والمعرفة. ولهذا، وكما كان الأمر بالنسبة لآبائهم، لم تكن الكفاءة في العناية بالطفل هي التي كانت تنقص الأطفال، بل الافتقار إلى الحافز. وهذه الخاتمة تدعمها حقيقة هي أنه حين شُجع الأطفال بشكل جلي ـ في دراسة لاحقة ـ بواسطة شخص بالغ على التفاعل مع الطفل ـ بما في ذلك المعاونة على إلباسه ثيابه وإطعامه ـــ كان الأولاد والبنات من جميع الأعمار متجاوبين بقدر متساو، ومهتمين بنفس القدر بالطفل بغض النظر عن الجنس الذي ينتمي إليه.

ومن الطبيعي، أن الأطفال الرضع ليسوا الأهداف المحتملة الوحيدة لسلوك الأطفال من ناحية التنشئة. فحين قاست سلسلة الدراسات هذه مقدار الوقت الذي يقضيه أطفال من مراحل سنية مختلفة في اللعب مع الحيوانات المدللة والاهتمام بها، كانت اختلافات الجنس تختفي تماماً. وهذه أخبار مشجعة، لأن الاهتمام بالحيوانات المدللة تُشكّل من نواح عدة تدريباً جيداً للعناية بالأطفال، ومن المؤكد أنه أمر أكثر واقعية من اللعب مع عرائس لا حياة فيها.

إلا أنه لاتزال هناك كثير من التشويهات التي يتوجب تصحيحها. في الفصل الأول، ذكرت مجتمعاً مسيحياً كبيراً ومنظماً تنظيماً مركزياً حيث الآباء ينفرون من تغيير حفاضات أطفالهم بحجة أن أبناءهم الكبار، إذ يرونهم وهم يقومون "بعمل النساء" سوف يكبرون بهوية ذكرية غير آمنة بشكل كاف. وكثيراً ما كنت أقع في

إغراء أن أرسل للقادة الذكور لهذا المجتمع (لم يكن هناك قادة من الإناث حتى أتحدث معهن) نسخة من الدراسة التي وجدت أن الأطفال الذين تعلّموا المشي حديثاً أفضل شيء يجذبهم إلى آبائهم (هل تستطيع تخمين ذلك ؟) هو عدد الحفاضات التي قام الأب بتغييرها أثناء الأسبوع الماضي. فالمشاركة هنا في القيام بواجب الوالدين قوية جداً !

الفصل التاسع:

الزواج والعائلة وملكوت الله

هذا القسم الثالث "آباء وشركاء" ركّز أولاً على الأبوة، لأن اتجاه الحوار من الباب الثاني الذي تناول الطبيعة والتنشئة، جعل هذا الترتيب منطقياً. وعلى أي حال فإنه بالآباء يُربَّى الأطفال في سنوات تكوينهم الحاسمة ـ تلك السنوات التي فيها، وربما فوق كل شيء آخر، تقوم التنشئة بتعديل الطبيعة.

ولكن، إذ كان التركيز على دور الأبوين في الفصلين الماضيين، فإننا في حاجة الآن أن نتأمل في الزواج والعائلة بمعناهما العام والتعليمي. وبالنظر إلى أن المسيحيين لهم مثل هذه النظرة إلى العائلة، ومثل هذا الاهتمام بحفظها، فنحن بصفة خاصة في حاجة لأن نُلقي نظرة نقدية على الشكل المقبول للعائلة في الطبقة المتوسطة المدنية، والتي تطلّع إليها معظم الناس في مجتمعنا إبان هذا القرن. وآمل أن يجد القراء أنه في هذا الجانب وفي غيره من جوانب العلاقات الخاصة بأدوار الذكورة والأنوثة، يوجد مجال أرحب للحرية المسيحية المسئولة بأكثر مما اعتقدوا.

آراء متضاربة حول أدوار الزواج في التاريخ الحديث :

كان الزواج والعائلة منذ أمد بعيد من الموضوعات المثيرة للجدل. إلا أنه في مجتمع شهد عقدين من النشاط المُطالِب بالمساواة بين الجنسين تولدت عن هذين الموضوعين المزيد من المناقشات وبأكثر من ذي قبل. وأتذكر محادثة كنت قد

أجريتها مع إحدى الزميلات من الخريجات، كُنا نقارن فيها نوعية العائلات التي نشأن فيها. وذكرت صديقتي قيامها بزيارات عائلية لبيت جدها وذلك في الخمسينات. وأثناء رحلتهم الطويلة بالسيارة كان والداها يتناوبان القيادة. ولكنهما كانا يحرصان دائماً على أن يكون والدها هو الذي في مقعد القيادة (حرفياً) حين كانوا يقتربون من بيت جدها. بل تتذكر حتى المناسبات التي غيرّ والداها مكانيهما في السيارة قبل الوصول إلى بيت جدها بعدد من العمارات فحسب. وهذا الأمر كان غريباً عليّ تماماً، ليس لأن والديَّ كانا يرفضان ممارسة هذه الخدع البسيطة، بل لأن والدتي لم تتعلم قيادة السيارات على الإطلاق. فكلا الوالدين أخذاها قضية مُسلماً بها أن عبء وميزة القيادة هي جزء لا يتجزأ من دور الزوج (وأعتقد أن أبي كان يؤمن بالحالة الأولى كما بالحالة الأخيرة).

وعلى الرغم من أن هذه القصص تبدو الآن من الأمور التي عفا عليها الزمن، إلا أنها تُلمِّح إلى تضارب عميق شعر به كل منا فيما يتعلق بالزواج والعائلة. فمن ناحية، نحن نخشى التغيير، وكأطفال صغار، تشبَّعنا بمجموعة معينة من الأفكار (أفكار والدينا) عن الأدوار "السوية" المتعلقة بالزوجات، والأزواج والأطفال، وهذه الارتباطات العاطفية العميقة الخاصة بفترة حاسمة لا يمكن أن تزول بسهولة في فترة البلوغ. ومن ناحية أخرى، معظمنا يمتعض منها عندما نرى هذه الأدوار وقد تحولت إلى أقفاص. ونحن نشعر - وبحق - أن مواهبنا الخاصة، وشخصياتنا تتحدى القوالب الجاهزة عن "الزوجة المثالية" أو "الزوج المثالي"، ونتساءل عن السبب في أن هذه القوالب لها مثل هذا السلطان علينا. علاوة على هذا، أعتقد أنه من المهم أن أؤكد أن هذا التضارب سمة من سمات الرجال بقدر ما هو من سمة النساء أيضاً، حتى وإن كانت النساء تُعبِّرن عن عدم رضائهن في هذا الوقت وبمزيد من العلانية.

وثمة قصة شعبية، بين المسيحيين وغيرهم، بأن رجال شمال أمريكا ونساءها كانوا قانعين تماماً بأدوارهم الزوجية حتى ظهرت حركة المطالبة بالمساواة بين الجنسين في الستينات وأفسدت النساء وجعلتهن يطلُبن شيئاً مختلفاً (وانتشار النظرية يشير إليه الشوق الحالي إلى أسلوب كوميديات العائلة التي كانت سائدة في التليفزيون في الخمسينات). وطبقاً لهذه النظرية فإنه حين كَتَبت بتي فريدان "سر النساء" عام ١٩٦٣، بدأت النساء في خيانة أهم مصالحهن ورغباتهن الحقيقية، وشرعن في الثورة ضد دور ربة البيت المتفرغة، وتركن أزواجهن مذهولين ومستائين لنكرانهن الجميل. لكننا إذا ما تأملنا بإمعان في التاريخ الاجتماعي بعد الحرب العالمية الثانية نراه يشير بقوة إلى أن الرجال لم يكونوا سعداءً إطلاقاً بالحالة الراهنة لأدوار الذكورة والأنوثة أيضاً.

ولقد لاحظت باربرا إهرينريك - وهي طالبة في الثقافة الشعبية ـ أن أول طبعة من مجلة "بلاي بوي Play boy" ظهرت سنة ١٩٥٣، وذلك بعشر سنوات كاملة قبل أن يُساعد كتاب فريدان على بدء حركة المساواة بين الجنسين الحالية. ومعظمنا يربط "بلاي بوي" وأولادها التي ظهرت بعدها مثل "بنتهاوس" و"هسلر" بصفة أساسية بالدفاع الحار عن الفجور الجنسي. غير أن هناك موضوعاً آخر كان يظهر بانتظام على صفحاتها أثناء الخمسينيات : نقد للزوجات المتطفلات اللواتي على الرغم من إنهن لا يكتسبن مالاً بمعرفتهن إلا أنهن يُطالبن أزواجهن بالمزيد والمزيد من النجاح المادي لدعم أسلوب معيشتهن المرتفع. وأول مقالات بلاي بوي الرئيسية كانت هجوماً على نفقة الزوجة المطلّقة بصفة خاصة، وضد النساء اللواتي لا يشبعن من النقود بصفة عامة. وكان عنوانها "آنسة سنة ١٩٥٣ تُنقّب عن الذهب". وأول طبعة للمجلة كانت من سبعين ألف نسخة بيعت في الواقع كلها، ومع حلول عام ١٩٥٦ بلغ عدد المشتركين فيها ما يقرب من مليون مشترك.

وكتبت إهرينريك تقول : "منذ البداية أحبت مجلة بلاي بوي النساء ذوات الصدر الكبير، والشابات من ذوات السيقان الطويلة وكانت تكره الزوجات".

وربما يكون صحيحاً أن هجوم بلاي بوي على حلم سكان الضواحي الأمريكيين لم يؤثر في السلوك الفعلي لمعظم رجال الطبقة المتوسطة في الخمسينيات. (أما إلى أي حد أثّرت في خيالهم فهذا موضوع آخر). وفضلاً عن ذلك، فإن هجوم هذه المجلات على الزوجات المتطفلات كان على الأقل في جانب منه موضوع إيلام الضحية. فقد طُردت النساء من الوظائف ذات المسئولية العالية والتي كن يشغلنها إبان الحرب العالمية الثانية حتى يمكن ضمان وجود وظائف لأبطال الحرب العائدين. وقيل لهن إنه "من الوطنية" أن تعدن ربات بيوت متفرغات، وقُدمت لهن حوافز مثل فائدة منخفضة على الرهونات، وتعليم مجاني بالجامعات لأزواجهن عن طريق قانون المعاهد العامة، وقد تضافرت الضغوط الاقتصادية والاجتماعية لتحولهن إلى "الطفيليات" اللاتي كانت مجلة بلاي بوي تنتقدهن في أقل من عقد بعد نهاية الحرب. ومع ذلك، وبغض النظر عن هذه المبررات فالنجاح الخاطف لمجلة بلاي بوي يُشير إلى الآراء المتضاربة التي كانت متأصلة في كثير من الذكور الذين يكسبون عيشهم في فترة ما بعد الحرب، وهو تضارب يتجاوز مجرد القيود الخاصة بالزواج الأحادي. والواقع أن استياءهم عبر عن نفسه في المجلات قبل صدور مجلة "سر النساء" بعشر سنوات، حيث يشير إلى أن دور السخط المتعلق بالزواج الذي ظهر في الستينات لم يكن قاصراً على عدد قليل من زوجات الطبقة المتوسطة الذي افترض أن حركة المطالبة بالمساواة بين الجنسين قد أفسدتهن.

هل العائلة "التقليدية" هي التي تحدث عنها الكتاب المقدس ؟

استقرار الزواج والعائلة انخفض إلى حد كبير في أواخر السبعينيات. وإذ

انزعج

المؤرخ كريستوفر لاسك لهذا الاتجاه أصدر كتاباً عن العائلة عنوانه :"مرفأ في عالم قاس"، وأعطى له عنواناً فرعياً "حصار العائلة"، وقد جاء الكتاب كمفاجأة للأمريكيين سواء الحزب اليميني أو الحزب اليساري. وبالنظر إلى أنه كان يُعرف عن لاسك أنه مؤرخ يساري، إلا أن اليساريين نظروا إليه باعتباره خائناً لدفاعه عن العائلة النووية : بدا وأنه يجادل عن النمط الاجتماعي الذي ـ منذ الستينيات ـ كانوا يهاجمونه باعتباره الدعامة الأساسية للرأسمالية ولظلم النساء. ولقد شك المراقبون من السياسيين اليمينيين بأن لديه قائمة سرية لم تكن في صف العائلة بأي حال.

فأين يضع المسيحيون أنفسهم في هذا الجدل، مع نظرتهم العالية للكتاب المقدس ؟ وليس هناك شك في أن معظمهم بكل ثبات يؤيدون العائلة. والمسيحيون في السنوات الأخيرة أنتجوا كماً هائلاً من الكتب والأفلام والندوات والمنظمات التي تدعم نوعية العائلة التي يشعرون أنها بحسب المعيار الكتابي. وهذه العائلة تتكون من أب يكسب عيشها ويعمل خارج البيت، وأم ليس لها أجر تقوم برعاية بيتها وأولادها إلى أن يتقدموا في سنواتهم الدراسية. وحين يكبر الأولاد، قد تعمل بأجر، بشرط ألاّ يتعارض ذلك مع دورها الأساسي كربة بيت. ومؤيدو هذا الرأي يتفقون أيضاً مع البروفسور لاسك بأنه يُقصد بالعائلة أن تكون "مرفأ في عالم قاس"، مأوى للحب يواجه قسوة الحياة العامة :

" في أوقات كهذه....يجب أن يكون البيت المسيحي ملجأ مقدساً ومكاناً للسلام.

والبيت جزيرة من الهدوء والدعم والفهم في عالم مضطرب، كثيراً ما يسوده الجشع. فهو واحة مسيحية بعيدة عن الازدحام الذي يجلب الجنون، والتيارات والضغوط الشريرة.

ومن خلال العائلة فقط يمكننا أن نـأمل في الحصـول علـى الأمـن، والشـعور بالخير والانتماء.

وفي بيوتنا تكون الحاجة إلينا، وبالنسبة لعائلاتنا نحن مهمون. لأن البيـت هـو آخر قلعة ضد الإذلال وسلب الإنسان شخصيته وسماته الإنسانية.

فالعائلة هي الكيان الرئيسي الذي تؤسـس عليه أمور الحياة الأخـرى، وإذا سقطت العائلة، فلسوف تسقط كل مؤسسـات المجتمع الأخرى. ورجـاء أمريكـا اليوم إنما هو في عائلات مسيحية قوية. عليك أن تُصمم على أن تجعل مـن عـائلتك قلعة تتمتع بقوة روحية وأخلاقية ضد تيارات التغيير الأخلاقي " .

عائلة كتابية أم برجوازية ؟

هل هذه وجهة نظر كتابية عن العائلة ؟ هل العائلة "التقليديـة" هـي مرفـأ في عالم قاس والمركز الأساسي لارتباطاتنا الإنسانية ؟ الأسئلة السابقة يبدو أنها تفترض ذلك. فضلاً عـن هـذا، يبـدو أنهـا تشير إلى أن مثـل هـذه العـائلات ــ إذا كـانت عائلات مسيحية ـ فهي على الأقل مستثناة من نتائج السـقوط ومـن المسئولية لأي شخص آخر. وبناء على ذلك، فما يحـدث داخـل هـذا "المرفـأ المقـدس" و"جزيـرة الهدوء" هو مقدس من ناحية ما، وأي نقد ـ أو حتى من الناحية النسبية ـ فيما يتعلق بأهميتها، معناه هجوم على المسيحية ذاتها. بيد أنه على الرغم من تكرار مثـل هـذا الكلام في وسائل الإعلام المسيحية الشعبية، إلا أنه توجد على الأقـل ثلاثـة أسـباب تجعلنا نتشكك بجدية في الوضع "الكتابي" للعائلة التي وُصفت على هذا النحو.

أول هذه الأسـباب هـو سبب تـاريخي. وكمـا سبق وعرفنـا مـن الفصـول السابقة، نوعية العائلة التي يعتبرها كثيرون من المسيحيين أنها معيارية هي في الواقـع حديثة جداً من الناحية التاريخية، وهي في جزء كبـير منهـا نتـاج اتجاهـات التمدين

والتصنيع التي سادت في القرنين الماضيين. وهذا ليس معناه أن العائلة النووية في حد ذاتها هي العائلة الحديثة، يقول المؤرخون الاجتماعيون إنها كانت وحدة العائلة الأساسية في الغرب المسيحي منذ القرن الرابع عشر. أما دور هيكل العائلة النووية الحاضر الذي أُعتبر مثالياً ـ الأب الذي يخرج يومياً لكسب الرزق، الأم كربة بيت متفرغة لتربية الأطفال، الأطفال كنباتات رقيقة في حاجة إلى ستر وحماية وتعليم بخُطَى هادئة ـ إنما هو في مجمله نتاج الطبقة المتوسطة المدنية في القرن التاسع عشر.

وفي الأزمنة الأولى كان البيت بالنسبة لمعظم الناس مكاناً للعيش فيه، ومحور أنشطة العمل الذي يشارك فيه بالضرورة كل أعضاء الأسرة. وكان الناس يتزوجون لأسباب عملية وليس لأسباب رومانسية. وفي معظم العائلات كان يستحيل من الناحية الاقتصادية السماح للأطفال بالقيام بأدوار البالغين تدريجياً حتى وإن كان والدوهم على رغبة في عمل ذلك. وحتى بالنسبة للطفل الارستقراطي الذي لديه فراغ أكثر، نجد أن معدلات الوفيات مرتفعة جداً حتى إنه لم يكن هناك معنىً من الارتباط عاطفياً بالأطفال ماداموا مُعرضين للموت في أي وقت. وهكذا وحسب ما يقول عالِم الاجتماع جيمس هنتر James Hunter كان هناك تغيير كبير في هيكل العائلة والعلاقات في القرون الأخيرة (مسيحي في غالبيته) في الغرب حتى أنه من غير الواضح تماماً ما هي العائلة التقليدية.

وثمة سبب ثانٍ للتشكيك فيما إذا كانت العائلة تتبع نمط الكتاب المقدس أم لا، وله علاقة بالتلميح المتكرر بأن هذه أفضل صورة ممكنة ومدعمة للحياة بالنسبة للعائلة، سواء بالنسبة لأعضائها، أو بالنسبة للمجتمع بوجه عام. ومع ذلك فقد اكتشفنا في السنوات الأخيرة أنه على الرغم من أن ٨٠٪ من المفاسد الجنسية والعنف العائلي تحدث في عائلات السكيرين، إلا أن تاني حدث من حيث النسبة العالمية والذي تضمن العلاقات الجنسية غير المشروعة والإيذاءات البدنية كانت

تحدث من قِبل الآباء في هذه العائلات (لأن غالبية الذين يمارسون الإساءة الجنسية إلى الأطفال هم من الرجال وليسوا من النساء) كثيراً ما يتبنون "قيماً عتيقة" لدرجة الغلظة والقسوة. وهم يؤكدون على خضوع النساء، وأحياناً إلى درجة الاعتقاد بأنهم "يملكون" زوجاتهم وبناتهم. علاوة على ذلك، فهم يؤمنون بقوة في الاكتفاء الذاتي للفرد، حتى إن العائلة كثيراً ما كانت تفتقر إلى الاتصالات الوثيقة بأشخاص بالغين آخرين ممن يستطيعون أن يُخففوا من سطوة الأب. وإذا كانت معتقداتهم الدينية تنزع إلى الإدانة والعزلة (تؤكد خطر الاختلاط مع أناس "ليسوا مثلنا")، هنا تتضاعف عزلة العائلة.

والآباء الذين ينزعون إلى سفاح المحارم في هذه العائلات كثيراً ما يتملكهم الجنس، ومع ذلك يخافون الحديث عنه. وقد يُنفذون رغباتهم في بناتهم، مُعللين سلوكهم بأنه نتيجة إغراء طاغ من قِبل ابنة "ليست صالحة". أما بالنسبة لزوجاتهم، فإذ تخشَين النزاع داخل العائلة، والاستهجان العلني داخلها، كثيراً ما تتجاهلن هذه الممارسات الآثمة. والواقع أن الطبيعة "التقليدية" للعائلة، والتي تدعم اتكال الزوجة على الزوج من الناحية الاقتصادية، تُزيد من صعوبة مواجهتها لزوجها بشأن سلوكه. وحقيقة أن هذه العائلات لا تكوّن سوى جزء بسيط من المحافظين المتدينين هي حقيقة واقعة بالفعل، ولكن هذا ليس موضوعنا. فالموضوع هو أن وجود ما يُسمى بالعائلة التقليدية ـ مسيحية أو غير ذلك ـ لا يُشكل ضماناً "لمرفأ مقدس"، أو "جزيرة هدوء". وبدلاً من استخدام مثل هذه التشبيهات المجازية، كان من الأصح لو أننا ربطنا "كل" العائلات بالبنت الصغيرة التي في أغنية الأطفال الشهيرة : "حين يكونون طيبين، تراهم طيبين للغاية، ولكن حين يكونون سيئين، تراهم بغيضين".

الزواج والعائلة في القصة الكتابية :

وهذا يأتي بنا إلى السبب الثالث، وهو أهم الأسباب، للتشكك في الوضع الكتابي للعائلة "التقليدية". وأقصد به موقف الكتاب المقدس نفسه ذي الحدين تجاه العائلة كمؤسسة. وهنا نحتاج أيضاً إلى تأمل جميع أحداث القصة الكتابية، تماماً مثلما فعلنا في الفصل الثاني حين تأملنا الموضوع العام الخاص بالذكورة والأنوثة.

وكما رأينا في ذلك الفصل، خُلِق النساء والرجال على صورة الله. وهذا معناه ـ على غرار أقانيم اللاهوت ـ قُصد لهم أنْ يُكمِّلوا بعضهم بعضاً وأن يقوموا معاً بممارسة سلطان مدرك لمسئولياته، على بقية خليقة الله. إلا أن كلا من هذين التفويضين المتعلقين بالخليقة صاحبهما الأمر بأن "أثمروا واكثروا" (تك١: ٢٨). وهذا الأمر ـ كما يقول المفكر اللاهوتي جيوفري بروميلي Geoffery Bromiley — أُعطى ليس كغاية في حد ذاته، بل حتى تكون وكالة الله على الخليقة العامرة ممكنة. وتنفيذ التوكيل الثقافي ـ أي الكشف عن الإمكانات الكامنة في الخليقة — كان سيتطلب ليس اثنان فقط، بل الكثير والكثير من الرجال والنساء : ومن هنا كانت الحاجة واضحة إلى العائلات وإلى الزواج. هكذا ـ يواصل بروميلي حديثة. فالزواج نفسه يرجع إلى بدايات الله معنا، وبداياتنا معه .... وكل من الزواج أولاً، والعائلة ثانياً يرجع أصلهما وأساسهما وهدفهما في قصد الله وكلمته وعمله.

وهكذا، فالزواج جزء من نظام خلق الله الأساسي. وأن الله قصد به أن يكون مدى الحياة "جسداً واحداً" وحدة واحدة، فهذا ما تأكد في قصص الخلق، وأُعيد تأكيده بمعرفة يسوع (مر١٠، مت١٩، لو١٦). ومن المؤكد أن الإنسان ليس مضطراً للزواج لكي يكون على صورة الله، أو لينفذ التوكيل الثقافي بالتعاون مع الآخرين. ولكن لم يكن الزواج بجرد حل من المرتبة الثانية، عند الله بالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون السيطرة على شهوتهم بشكل كاف لخدمته وهم في

حالة العزوبة، كما كان يقول بعض لاهوتي العصور الوسطى. ولكن الزواج جزء لا يتجزأ مما ارتآه الله بالنسبة لحياة الإنسان على الأرض، حيث يعكس الوحدة مع التنوع والقائمة في الآب والابن والروح القدس، كما أنه الوسيلة التي يُنجب بواسطتها أولئك الذين يكونون على صورة الله في المستقبل.

وإذا استطعنا أن نتوقف بفكر لاهوتي للزواج منذ الخليقة، ربما نقدر على تبرير (أو على الأقل أن نلتمس عذراً) الأوصاف المثالية للحياة العائلية والتي ـ وكما سبق ورأينا ـ يتبناها بعض المسيحيين. ولكن وكما نعرف تماماً، كان من شأن السقوط أن دب الفساد في كافة نواحي الخليقة، بما في ذلك العلاقة بين النساء والرجال. والعهد القديم يتوسع للغاية في تسجيل النتائج. فهو يقدم لنا قصصاً عن الاغتصاب والزنا وانتهاك المحارم، وجنون تعدد الزوجات (كان للملك سليمان سبع مائة زوجة، وثلاثمائة سرية). ويضيف قصصاً عن خطايا أخرى كان القصد منها التحذير من الخطايا الجنسية، مثل مؤامرة داود الملك لقتل زوج المرأة التي حبلت منه. وهو يقدِّم لنا أحداثاً لم يقترفها الوثنيون لمحاولة إضعاف المجتمع الإسرائيلي، بل كانت أعمالاً أتى بها شعب الله نفسه. بل ولم تقتصر الانتهاكات الجنسية للخليقة على الرجال. فهناك قصص عن نساء يتآمرن لتجعلن أولادهن المفضلين في مكان الأولوية في العائلة (مثل ما فعلت رفقة) وللحصول على ورثة أو نسل بوسائل حرمها الله خلال ارتكاب علاقات جنسية محرمة، كما في حالة ابنتي لوط، أو يتزوج الزوج من خادمة، كما في حالات سارة ورفقة وليئة.

وليس من بين هذه بالطبع ما قُصد به أن يصور مقاصد الله من الزواج والحياة العائلية. بل بالأحرى، وبحسب قول جريتشن جايبيلين Gretchen Gaebelein : "إنها السجل الصادق لفكرة زائفة" ـ وهو تصوير صحيح لرجال ونساء ساقطين. ثم إن لها أهمية أيضاً من ناحية أنه قُصد بها أن تُبيِّن للإسرائيليين بأنه على الرغم

من وضعهم المتميز كالأمة التي منها يأتي المسيا، فإنهم لا يقدرون على أن يُخلِّصوا أنفسهم بمحاولة استغلال نسبتهم إلى إبراهيم - ناهيك عن ابتعادهم عن المعايير التي وضعها الله للزواج الأمين. وحين يأتي المسيا، فلسوف يأتي في الوقت الذي يحدده الله، وبالوسائل التي يراها، وعلى الرغم من أن مجيئه ورسالته تُعيد تأكيد الشكل الذي كانت عليه حياة العائلة عند الخليقة، فانهما يطبقانها على بقية التاريخ البشري، لصالح إكمال ملكوت الله.

العائلة الأولى، العائلة الثانية :

سيادة الله وعلاقتها بالزواج والعائلة وضحت في مجيء يسوع، وفي حياته وتعاليمه. ولقد لخص جيوفري بروميلي هذين الأمرين بشكل مناسب جداً :

" الميلاد العذراوي، الذي لُمّح إليه في تك٣: ١٥، مع إشارته الواضحة إلى نسل المرأة، يُشكِّل آخر حلقة، وأكثرها عجباً، في سلسلة من الولادات غير العادية التي امتدت من اسحق حتى يوحنا المعمدان. وأثناء هذه الفترة كان الأطفال يأتون من والدين مُسنين، الأمر الذي يتعارض مع التوقعات العادية. وفي بعض الحالات يبدو أن الله كان يختار أمهات غير مناسبات، مثل راعوث الأجنبية وبثشبع الزانية. أما الآن، وفي التجسد، فقد نحى جانباً ليس الزواج فحسب (ما عدا في معناه الرسمي المحض) بل والعملية الطبيعية للإنجاب البشري أيضاً، ليفسح مجالاً للعمل الذي سيزيل عواقب السقوط. "قوة العلي" هي التي كانت وراء ميلاد الطفل الذي "وُضِع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل" (لو١: ٣٥، ٢: ٣٤) " .

وفضلاً عن ذلك، فإن حياة يسوع وتعاليمه تُبرِز حقيقة أن الزواج والأسرة تتراجعان للخلف بالنسبة للإعلان العالمي لخلاص الله وعن "أسرة أولى" جديدة — شركة تشمل العالم كله لبناء الملكوت، العَضَوية فيها لا تعتمد على النسب بل على الإيمان بالمسيح. ويُلاحظ أنه على الرغم من تأكيده بشكل أساسي على قيمة المرأة،

إلا أنه هو نفسه ظل بدون زواج ليكمل رسالته بشكل أفضل. وعلى الرغم من أنه أكّد قصد الله من ناحية الزواج من واحدة، بل وعمل أولى معجزاته في وليمة عُرس، فقد أعلن أن الحالة النهائية الأبدية للإنسان لن تنضمن رابطة الزواج (مر١٢: ٢٥). علاوة على ذلك فقد طلب من تلاميذه أن يضعوا الزواج والولاء للعائلة في المرتبة الثانية بعد الولاء له. " إن كان أحد يأتي إليّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدّر أن يكون لي تلميذاً " (لو١٤: ٢٦).

وليس في هذا مبرر يلجأ إليه المسيحيون للتخفيف من حدية الزواج. وعلى الرغم من أن التلاميذ تركوا "كل شيء" ليتبعوه، فإنه لا يوجد دليل في أي موضع يفيد أن هذا يعني حرفياً أن يكرهوا أو يهجروا زوجاتهم. والواقع أنه، بعد دعوة بطرس مباشرة، توجَّه يسوع إلى بيته وشفى حماته. وفي وقت لاحق، بعد قيامة يسوع وصعوده، عرفنا أن بطرس ورسلاً آخرين عديدين أخذوا معهم زوجاتهم في رحلاتهم التبشيرية. وما قصده يسوع فعلاً بتعليمه بالنسبة للنساء والرجال، هو أن الولاء للمسيح وملكوته له الأولوية على أي التزام آخر. وقد قال بروميلي : الخطأ الجوهري للجنس البشري هو أنه وضَع الله في المرتبة الثانية أو الثالثة أو الأخيرة .... حيث أعطى قيمة أعلى لأهداف أخرى مما أعطاه لقصد الله. ومما يدعو للسخرية، أن الناس بعملهم هذا فقدوا الوسائل التي بواسطتها يمكن أن تصبح هذه الأهداف الأخرى، ومن بينها الزواج والعائلة أهدافاً مرضية بشكل تام. لأنه من خلال جعل ملكوت الله موضع الالتزام الأول للبشرية، يمكن للبشر أن يتجنبوا عبادة "المخلوق دون الخالق". وهذه وصفة أكيدة لعلاج خيبة الأمل في النهاية.

فالمشكلة إذاً، مع إضفاء المسيحيين الطابع الرومانسي على العائلة "التقليدية"، لا تكمن بصفة أساسية في أن ذلك يُشكل محاولة لتجميد مجموعة معينة من أدوار

الذكورة والأنوثة إن عاجلاً أم آجلاً (ولو أنه من المؤكد أن هذه مشكلة) أو حتى الاستخفاف بالخطية والعنف اللذين يمكن أن يقبعا في العائلة (على الرغم من أن هذه أيضاً مشكلة). لب المشكلة يتمثل في الوثنية الزاحفة ــ وهي إعطاء المنزلة الأولى لشيء يمكن في أفضل الحالات أن يأتي في المرتبة الثانية. لنرجع ونلقي نظرة على اقتباساتي السابقة من الكتابات المسيحية الشعبية في موضوع العائلة. هل نحن نحصل على الأمن، وعلى إحساس بالخير والانتماء، من خلال العائلة فقط. السؤال الأول لكتاب "التعليم المسيحي" لهايدلبرج Heidelberg Catechism هو : "ما هو عزاؤك الوحيد في الحياة والموت ؟". الإجابة : "أني لست ملك نفسي (ولا ملك عائلتي، بحسب المعنى الضمني) بل أنتمي، جسداً وروحاً، في الحياة والموت، لمُخلصي الأمين يسوع المسيح". هل العائلة آخر معقل لنا ضد إهدار شخصيتنا وإذلالنا ؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن عائلة الله ـ الكنيسة على مستوى العالم ـ تكون في صورة سيئة، ولا تكون في سبيل تحقيق وظيفتها الجوهرية الخاصة ببناء الملكوت. هل العائلة هي المؤسسة الرئيسية التي ترتكز عليها أمور الحياة الأخرى، كلا، ليس هذا في أي فصل من القصة الكتابية. فعهد الله مع الإنسانية، أولاً في الخلق، ثم في الخلاص، هو الأساس الذي يبني عليه المسيحيون كل شيء آخر.

الأدوار في مقابل الأولويات :

ليس شيء من هذا قُصد به أن يُلمح إلى أن الكنيسة كهيكل تنظيمي، من المحتمل

أن تكون أكثر تحرراً من العائلة بالنسبة للفساد وعبادة الذات. والعهد الجديد لم يقل إن ملكوت الله هو الكنيسة ذاتها، بل يتمثل في دورها أن تستعيد سيطرة الله على كل شيء. وهكذا فإن العائلات الفاسدة الدكتاتورية كتلك السابق الإشارة إليها آنفاً كثيراً ما تجد طريقها إلى الكنائس التي يسهم فيها أسلوب القيادة

إلى تعضيد أمور سوية بسيطة في حياتهم العائلية، بل ولست أحاول الإشارة إلى أن العائلات بذاتها ليست لها أهمية ـ سواء من الناحية السيكولوجية أو في نظام ملكوت الله. ولذلك فإني على قناعة تامة بأهمية العائلة لنمو الأطفال، حتى إني أبذل كل ما في وسعي من أجل زيادة انخراط الآباء في تربية الأطفال (انظر الفصل الثامن). إلا أني سأكون في غاية الحزن إذا أساء أحد فهم مقصدي بالنسبة لمشاركة الأب والأم لاتخاذها ذريعة للعزلة، وتقوقع العائلة حول نفسها ـ كما جاء في كلمات أغنية بوب العاطفية الشعبية القديمة: "مولي وأنا والطفل نكون ثلاثة". والموضوع، بحسب كلمات "رودني كلاب" Rodney Clapp هو ببساطة ما يلي : "بالنسبة للمسيحي، تُعد الكنيسة "العائلة الأولى". والعائلة البيولوجية، على الرغم من أنها ما تزال لها قيمتها وتقديرها، هي "العائلة الثانية". فأول شيء وأكثر الأمور أهمية هو أن الأزواج، الزوجات، الأبناء، البنات هم إخوة وأخوات في الكنيسة ـ والأمر الثاني أنهم أزواج، آباء، أو أقارب بعضهم بعضاً.

ويواصل "كلاب" كلامه ليشير إلى أن "كنيسة العهد الجديد تتصرف تماماً كعائلة". إنها تقدم كرمها لسلسلة عريضة من المسيحيين وغيرهم. وسرها الأساسي يُشبه وجبة عائلية. والعائلتان "الأولى" و"الثانية" في أفضل أحوالهما تشبهان مغنطيساً لغير المؤمنين الذين ينجذبون إلى المحبة التي يشارك فيها المؤمنون داخل حدودهما وخارجهما. والواقع أنه في الزواج حتى الأعضاء الجنسية يجب وضعها في السياق الأكبر لخدمة الملكوت :

" وضع النشاط الجنسي في خدمة الملكوت ... يُحرر بشكل جوهري من احتمالاته المدمرة ويحرر كذلك من الاتصال الجنسي غير المشروع والانحلال، أو مذهب اللذة التافه، وبدلاً من ذلك تربط الشخص بالآخرين، بالمحبة والالتزام المستمرين. فمن ناحية يكون النشاط الجنسي في الزواج هو ببساطة التمتع بخليقة

ا لله الرائعة من قِبل الرجال والنساء. ومن ناحية أخرى، فإنه أساس البيت المستقر الذي منه نخدم المجتمع المسيحي الأكبر "

ويجب أن نلاحظ أيضاً أنه بإعادة العائلة إلى مرتبتها الثانية التي حددها الكتاب المقدس، نكون قد قطعنا شوطاً كبيراً في طريق استعادة الاحترام الكتابي للعزوبية. لأنه على الرغم من حقيقة أن المسيحيين يتملقون بالقول بأنهم يعطون نفس التقدير للمتزوجين والعزّاب، إلا أن حبهم الأعمى الذي يكاد يشبه الوثنية هو للعائلة على مدى القرن الماضي مما جعل العُزّاب المسيحيين يشعرون في أفضل الأحوال وكأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، أو أنهم فاشلون أخلاقياً في اسوأ تقدير. ولكن حين تُقدّر الحالتان على ضوء اعتبارات الملكوت فإن وظائف كل منهما تستحق الثناء. فإن العائلة المسيحية المستقرة قد تكون لها ميزة من ناحية الكرازة بأن تُقدّم كرم الضيافة. لكن الشخص الأعزب، الذي لا ينوء تحت الواجبات العائلية، كثيراً ما تكون له ميزة الحركة في الخدمة الكرازية. وكلاهما حيوي لانتشار الكنيسة.

ولذلك فالموضوع الأساسي ليس في جوهره أدوار "صحيحة" للذكورة والأنوثة بالنسبة للأزواج والزوجات، إذا كنا نقصد بعبارة "أدوار صحيحة للذكورة والأنوثة" طريقة تاريخية محددة لإقامة اقتصاد العائلة، والأعمال المنزلية وتربية الأطفال. فيصبح السؤال الجوهري يتعلق بالأولويات، كيف يمكن لعائلة مسيحية معينة، بما تتمتع به من مجموعة المواهب الخاصة، ومحدودياتها واحتياجاتها أن تُقيّم نفسها بشكل يُمكِنها من الإسهام في تقدم ملكوت الله على الأرض؟ وكما قالت إحدى السيدات رداً على مقالة "كلاب" : لعل أفضل بيئة للأطفال ليست هي تلك التي تلازم فيها الأم البيت، بل هي البيئة التي يخرج فيها كل أفراد الأسرة ـ كجزء من عائلة الله الكبيرة ـ لكي يسددوا احتياجات الآخرين. أما كيف

يمكن لعائلة بمفردها أن تنجز هذا في مراحل مختلفة من الحياة العائلية، فهذا أمر يتعلّق بالحرية المسيحية المسئولة. ولا توجد إجابة واحدة تُعدّ "أفضل" إجابة تتناسب مع كل حالة.

وحين أتأمل في موقفي، وحقيقة أنني وزوجي من الأكاديميين المسيحيين، يخامرني شعور في أن الله دعانا لكي نجمع بين كل من استراتيجيتي "الكرم والضيافة" و"الحركة". ولأن وَلَدَينا مازالا صغيرين، فإنه من الأيسر لنا أن نُقدّم الضيافة في البيت من أن نسافر إلى أماكن متباعدة. ومع ذلك، فقد سافر كلانا ـ لإلقاء محاضرات، لننشر كلمة الله، ولنستوفي بعض الأبحاث، والأعمال الخاصة بمجلس الإدارة للمنظمات المسيحية والتعليمية. وهذا معناه أن كل واحد منا كان يقوم محل الآخر بواجبه الأبوي في بعض الأوقات. وعلاوة على ذلك، فحقيقة أننا لسنا عائلة "تقليدية" أضافت ـ الأمر الذي أدهشنا ـ لنا خدمة كرم الضيافة، لأن هناك الكثيرين من المعوقين الهامشيين داخل الكنيسة وخارجها الذين لا يشعرون دائماً بالراحة في البيوت "التقليدية"، مهما كانت صحية. وليس بمقدوري القول إننا خططنا عن عمد ليكون الأمر هكذا. إلا أننا إذا استحضرنا أحداث الماضي بوسعنا أن نرى كيف أن موهبتنا وخياراتنا معاً أدت بنا إلى هيكل عائلي معين، من شأنه، كما أثق أن يتكامل الآخرين في تقدم ملكوت الله.

الخياطة كنشاط مخرّب :

إن موضوع أولويات الملكوت وليس أدوار العائلة هو الموضوع الذي جاءني ملحاً حين شرعت أكتب هذا الفصل. ذلك أن زوجة أحد الزملاء اتصلت بي تليفونياً كي تسألني ما إذا كنت أحب أن أقابل ضيفة من جنوب أفريقيا، والتي كان زوجها ـ وهو مُفكّر لاهوتي ألماني من الكالفينيين ـ في جولة لإلقاء بعض المحاضرات في أمريكا. وهذه المرأة، كما شرحت لي، كانت تعمل لأكثر من اثنتي

عشرة ساعة لتحسين وضع العمال السود المحليين في جنوب أفريقيا، وأرادت ــ إذا كان ممكناً، أن تجمع بعض المساعدات لهذا العمل من أمريكا. ولقد سعدتُ بقبول هذه الدعوة، لأني كنت أعرف من مصادر أخرى كيف أنه أمر نادر بالنسبة للنساء المسيحيات من طائفة الإفريقيين البيض أن تشككن في الوضع الراهن في جنوب أفريقيا. وقد كتبت امرأة أكاديمية من تلك البلاد تقول : "ما آل إليه الوضع هو أن النساء قد تعوَّدن تماماً على فكرة تولّي الرجال القيادة حتى أنهن لم يتعلّمن إطلاقاً أن يُفكرن في أنفسهن. وفي مجتمع واع بالكتاب المقدس، تعلّمن أن هذا أمر كتابي. وعلى وجه العموم، فإني لا أعتقد أن المرأة الإفريقية من أصل أبيض تفهم تداعيات التفرقة العنصرية أو تفكّر في هذا الموضوع كثيراً. لقد أنتجنا نوعاً من النساء تضعن على أعينهن غمامات.

والمرأة التي تقابلت معها من المؤكَّد أنها لم تكن سياسية راديكالية بارزة. بل إنها من نواح كثيرة كانت تتسم بسمات زوجة الراعي الذي ينتمي للطبقة المتوسطة، معتنية بثيابها، هادئة الطباع (وبحسب قولها) "ليستُ مفكِّرة لاهوتية، مجرد ربة بيت ـ كلا، أعني أني أولاً مسيحية، وبعد ذلك ربة بيت". غير أن وصفها المعبِّر هذا لشخصها هيأ المسرح لما هو آت. وعلى مدى عقد مضى، تمكنت هي ومجموعة من زميلاتها من سيدات الكنيسة البيض من إيجاد وسيلة لتحسين استقلالية واحترام الذات لدى كثيرات من النساء السود الوطنيات التي كُن يعملن في بيوت البيض في مدينتهن. إلا أنه، إذ كن هن أنفسهن ربات بيوت ليس لهن مرتبات، فما الذي بوسعهن عمله لتحقيق هذه الأهداف ؟ وسرعان ما جاءت الإجابة هي أنه بوسعهن إقامة مدرسة لتعليم الخياطة وصناعة الملابس، تستطيع النساء المجيء إليها في أوقات فراغهن.

ومما تجدر ملاحظته أنه حتى في بلد صناعية مثل جنوب أفريقية ما زالت الملابس الراقية مكلفة جداً. وعلى ذلك فحينما يكتسب الناس مهارات الخياطة سيصبح بوسعهم على الأقل توفير نفقات ملابسهم وملابس عائلاتهم. علاوة على ذلك، ربما تكون لهم مهارات تسويقية لعمل الملابس للآخرين. ولكن هذا عرّض الكنيسة المحلية لأمور ضمنية مدمرة نتيجة لهذا الاقتراح، ورفضه كثيرون من أعضائها. فهذا لن يعني خلط عنصرين في سمات الكنيسة فقط (أمر لم يُسمع به في ذلك الحين)، بل قد يعطي أيضاً "أفكاراً" للنساء السود الوطنيات عن "الارتفاع فوق مستواهن". ومع ذلك، أُعطي تصريح بتجفظ لبدء المشروع، ولكن بدعم مالي ضئيل مع استعمال صالة الكنيسة. غير أن ربات البيوت من البيض، وبدون خوف اعتمدن إلى مواردهن الخاصة بالخياطة، لجأن إلى تجار الأقمشة للحصول على بواقي الأقمشة، وأقنعن صُنّاع آلات الخياطة أن يتبرعوا بالمعدات. وقد بدأن الفصول بتقديم دروس على مستويات مختلفة من مهارات الخياطة، وكن دائماً تنهين الدرس بفترة تعبدية تتضمن حصة لدراسة الكتاب المقدس.

وفي كل هذا شُجعت النساء السود على أن تنمين مهارات قيادية واكتساب خبرة في الخياطة. والواقع أنهن كن مضطرات إلى ذلك، لأن الطالبات جئن من مجموعات تتكلم لغات مختلفة، كل منها تحتاج إلى أشخاص ناطقين باسمها لمساعدة الآخرين على فهم التوجيهات ولتنظيم المدرسة وهي تنمو. والآن، وبعد مرور اثنتي عشرة سنة، فما بين ألف وألفين من السيدات اكتسبن المهارات الأساسية أو المستوى الأعلى من مهارات الخياطة. وما زلن تعمَلن في إطار مباني الكنيسة، والتي لا تزال تُدار برأس مال بسيط بواسطة نساء هن "مسيحيات أولاً، وربات بيوت ثانياً". ولقد حقق المشروع نجاحاً كبيراً حتى أن المدرسة قد تتعاقد قريباً على صناعة الزي المدرسي.

وإدارة مثل هذا المشروع أمر يبعث على الرضا، إلا أنـه أبعـد مـن أن يكـون عملاً رومانسياً، طبقاً لما تقوله محدثتي. وبسبب المضايقات بل والبيروقراطيـة الظالمـة لنظام التفرقة العنصرية، كثيراً ما كانت المُدرسات تُستَدعَين للدفـاع عـن طالبـاتهن خارج حجرات الدراسة. وكثيراً ما كن تشعرن أن جهودهن مـا هـي إلا نقطـة في محيط، وإذا ما أخذنا في الاعتبار ما يجب عمله في هذه البلاد المضطربة. ولكنهـن في ثبـاتهن كـن يشـجعن قضيـة المصالحـة العنصريـة، حتـى وهـن يشـاركن في التعليـم المسيحي، وفي مهارات اقتصادية قيمّـة. ومـن الواضـح أن هويتهـن كربـات بيـوت كانت كامنة في دورهن الأكبر كسفراء عن المسيح.

الحياة المنزلية والصحة الذهنية :

آمل أن تكون الفقرة السابقة قد طمأنت القراء بأني لسـت أحـاول الـترويج للمزيج الخاص بعملي وعـائلتي علـى أنـه النمـوذج الكتـابي "الصحيـح". وإذا كنـا أحراراً في المسيح، وإذا كان قد جاء ليعطينا، ليس أقل، بل أكثر من الحيـاة الوافـرة، إذاً يمكن استخدام تشكيلة من نماذج أدوار العائلة لبناء ملكوت الله في إطار الزواج الأمين. إلا أنه بسبب النزعة المسيحية التي تميل إلى إضفاء الطـابع الرومانسـي، إن لم تكن "عبادة" العائلة التقليدية، فإننا في حاجة أيضاً إلى أن تنظر إلى العلاقة بـين هـذا النمط العائلي والصحة الفكرية لأعضائها. وبالنظر إلى أننا استعرضنا بعض التأثيرات على البنات والأولاد في الفصول السابقة، فلسوف نركـز الآن بـالأكثر علـى نتـائج تتعلق بوالديهم. وحين نفعل ذلك، نجد ما أطلقـت عليـه عالِمـة الاجتمـاع جيسـي برنارد Jessie Bernard "تناقض ظاهري مزدوج"، أحدهما يتعلـق بـالأزواج والآخـر بالزوجات.

وتقول الحكمة الشائعة إن الرجال ينظرون إلى الزواج على أنه مصيـدة لهـم، وأنه مكافأة لزوجاتهم (تذكر شعار "الباحثين عن الذهب" في العدد الأول من مجلـة

بلاي بوي). بيد أنه إذا تكلمنا من الناحية الإحصائية، فإن الزواج التقليدي، أمر طيب بالنسبة للرجال، من النواحي البدنية والاجتماعية والنفسية. وهذا هو التناقض الظاهري الأول. وعلى العكس من ذلك، فكل النساء تقريباً ترغبن الزواج، ومعظمهن ترغبن في أن تكن أمهات. إلا أنه عادة ما تكون الزيجات التي بدون أطفال (بما في ذلك الحالات التي كبر فيها الأولاد وذهبوا إلى حال سبيلهم) أسعد من تلك التي لديها أطفال. زد على ذلك أن النساء في الزيجات التقليدية تظهر علامة من المحنة البدنية والذهنية بأكثر مما تظهره النساء غير المتزوجات، على الرغم من الوصمة الاجتماعية التي جرت العادة على وصم غير المتزوجين بها، وهذا هو التناقض الظاهري الثاني.

الزواج بالنسبة له ولها :

قبل نهاية القرن لاحظ رائد علم الاجتماع إميل دوركايم Emile Durkheim أن "التعليمات التي تُفرض على النساء عند الزواج دائماً تكون قاسية ... فهي تخسر الكثير وتكسب القليل (بخلاف زوجها) من هذا العرف. وحين تتم المقارنة بين الرجال المتزوجين وغيرهم من غير المتزوجين من ناحية الصحة البدنية والذهنية، فالمتزوجون كمجموعة، دائماً يُسجّلون درجات أعلى. وهذه النتيجة لا تقوم إلا على المعلومات المستمدة من التقارير، ولذلك فإن اتجاه السببية غير واضح. ويمكن، على سبيل المثال المجادلة بالقول إن الرجال الأصحاء فقط هم الذين يحاولون في المقام الأول أن يجذبوا زوجات (وليس اكتساب الزوجات أمر مفيد لصحتهم). غير أنه إذا كان الأمر كذلك، كيف لنا أن نفسر النتيجة العكسية فيما يتعلق بالنساء في الزيجات التقليدية - وأعني بها، أنهن يسجلن بصفة دائمة درجات في المؤشرات الصحية والبدنية والذهنية أقل مما تسجله النساء غير المتزوجات ؟ ويصعب تصديق

الأمر الذي يبين أن الزواج، كعُرف اجتماعي، يُحَابى انتقائياً أكثر الرجال صحة، وأنه في ذات الوقت يقدم أنواع التسلية لأقل النساء صحة.

والواقع أن دراسة النساء في مراحل مختلفة من حياتهن الزوجية تشير بقوة إلى أن الزواج بالذات هو المسئول عن انخفاض درجة حالتهن الصحية. والنساء المتزوجات حديثاً لا يختلفن على وجه العموم عن أقرانهن من النساء غير المتزوجات من ناحية المؤشرات الصحية، ولكن كلما طالت مدة زواجهن زادت الفجوة اتساعاً. وهذه كلها تشير بقوة إلى أن الزواج التقليدي على وجه العموم يُشكل تجربة إيجابية للرجال بأكثر منه بالنسبة للنساء. ومع هذا، فحين يُطلَب من الزوجين اللذين تزوجا بالطريقة التقليدية أن يُقدما تقريراً شاملاً عن سعادتهما، نكاد لا نجد فروقات بين التقارير التي قدمها الأزواج وتلك التي قدمتها زوجاتهم. ولماذا يجب أن يكون الأمر هكذا ؟ بوسعنا التخمين ـــ كما فعل فرويد ــ أن النساء تتلذذن أساساً بالتعذيب والاضطهاد. غير أنه يوجد تفسير بديل ومقبول بنفس القدر، بحسب ما يقول برنارد : ألا يمكن أن تميل النساء (المتزوجات تقليدياً) إلى القول بأنهن سعيدات لأنهن اجتماعيات أكثر من اللازم، أو أنهن انسجمن تماماً مع معايير مجتمعنا ؟ ... فإلى عهد قريب كانت النساء قد تشرَّبن فكرة أن سعادتهن تكمن في تكريس حياتهن لأزواجهن وأطفالهن، إلا إذا كان تناغم النساء المتزوجات وتقبلهن لمتطلبات الزواج على هذا النحو مهما كلفهن الأمر، هو السبب في أنهن يحكمن على أنفسهن بأنهن سعيدات ؟ ألا يخلطن بهذا بين السعادة والتكيف مع الأوضاع ؟.

الحاجة إلى الإصلاح :

ويضيف برنارد، عن حق، قوله : "التكيف" لا يكون دائماً علامة على السيكوباتية (الاضطراب العقلي). ولو لم تكن هناك سوى أساليب قليلة جداً فقط

ممكنة للحياة، فإن "السعادة كتكيف" يمكن أن تكون أسلوباً صحياً يمكن تبنيه، بغض النظر عن نوعية الجنس. فالأصحاء يتوافقون بالفعل مع الأمور التي لا يمكن تغييرها. وأجدادنا الرواد من كلا الجنسين جاهدوا ليجعلوا من الحدود العازلة التي تفصل بين كلا الجنسين مجالاً لأجيال المستقبل يمكن معايشته، وكانوا بكل تأكيد يجرون تعديلاتهم، ولكنهم كانوا ينحون جانباً أحلام ثقافة مدنية وفرص تعليمية في هذه العملية. ولكن، وكما ذكرت في الفصل الأول من هذا الكتاب، كان مجتمعنا ولمدة طويلة يُعلِّم الرجال والنساء بقدر متساو، على الأقل من خلال المدرسة الثانوية، وفي الدراسة المتوسطة التي بعد المدرسة الثانوية أيضاً. ونحن بشكل ضمني عاملنا التعليم كنافذة أو فرصة للرجال من ناحية احتمالات العمل الذي يتيحها لهم. وفي ذات الوقت افترضنا أن التعليم بالنسبة للنساء هو وسيلة أساسية لمقابلة .شريكات زواج مناسبات بالأكثر، وبدرجة ثانوية تطريق للتدريب على الوظيفة، في حالة (لا قَدَّر الله) "فشل" المرأة في أن تتزوج.

وهذه الرسالة المزدوجة للنساء (" تعلَّمن، ولكن لا تأخذن الأمر بجدية كبيرة) كان مقدراً لها في النهاية أن تعطي نتيجة عكسية. وإذا ما أخذنا في الاعتبار ظروف العمل لربة البيت المتفرغة التقليدية، فربما تكون معجزة أنها لم تنفجر قبل ذلك. وكثير من عمل البيت متكرر، ممل، ولا يتطلب مهارة، ويُعمل إلى حد كبير .بمعزل عن البالغين الآخرين. ولا يوجد معيار واضح للعمل المنزلي "الجيد"، ومع ذلك يبدو أنه لاتوجد نهاية للعمل الخاص بمواجهة الطلبات البدنية والعاطفية للآخرين. (عمل الرجال يستغرقهم من الشروق للغروب، غير أن عمل النساء لا ينتهي أبداً"، كما يقول مثل قديم). وعلاوة على ذلك، فإن كتابات كثيرة جداً عن أدوار الذكورة والأنوثة المتكررة كشفت عن أن معظم السمات "الأنثوية" التي نتوقعها من النساء الصالحات للزواج، هي أيضاً نفس السمات التي نعتبرها بصفة

عامة غير مرغوب فيها في أفضل الحالات من الناحية الاجتماعية، وفي أسوأ الحالات نعتبرها غيرناضجة من الناحية التحليلية. وإلى عهد قريب كان الناس العاديون والمحلّلون المتخصصون يتفقون على أن المرأة "النموذجية" (من بين أمور أخرى) تكون غير طموحة، تتكل على زوجها، عاطفية، خاضعة، ساذجة، غير حاسمة، غير منطقية، سلبية، غير واثقة في نفسها، وملتزمة ببيتها. إلا أنه عندما طُلِب من المحلّلين أن يحكموا على هذه الصفات في إطار بعيد عن أدوار الذكورة والأنوثة، وافقوا على أن هذه المجموعة من السمات هي على النقيض تماماً من تلك التي تكوّن شخصاً "بالغاً" سوياً.

وإذا ما أخذنا كل هذا في الحسبان، هل هناك ما يدعو للدهشة أن ربات البيت التقليديات ـ على الرغم من تقاريرهن عن أنفسهن بأنهن سعيدات ـ إلا أنهن يُظهِرن علامات متزايدة تُشير إلى محنة نفسية عندما يستمر الزواج ؟ ولكن هذا لا يعني أنه لا توجد ربات بيوت متمتعات بصحة جيدة وسعيدات حقاً : والنتائج المذكورة سابقاً قامت على أساس النسبة في المتوسط فقط. غير أن هناك بحثاً آخر يشير إلى أنه لكي تتوافر السعادة والصحة الجيدة الشاملة لربة البيت المتفرغة، فهناك شروط أخرى معيَّنة يجب توافرها. ومن أهمها الاتصال المنظَّم ببالغين آخرين (مثل الأقارب، الأصدقاء، الزملاء في المؤسسات)، والاحترام، والتأييد، والمعاونة من أعضاء العائلة بصفة عامة والزوج بصفة خاصة. ونأمل بالطبع، أن تكون هذه الحالة الروتينية في العائلات المسيحية. غير أنه، وكما رأينا، أن هذه ليست بأي حال نتيجة أصبحت في طي الماضي. بل إن أفضل الزيجات الصحية التقليدية لا تزال تواجه المشكلة المزمنة الخاصة بغياب الأب عن العملية اليومية الروتينية الخاصة بتربية الأطفال. ورأينا في الفصول السابقة أن غياب الأب بهذه الدرجة الكبيرة (مهما كان مخلصاً من ناحية أن ذلك نتيجة سعيه لكسب الرزق ونفقات المعيشة) يُشكِّل

مخاطرة من ناحية أن يشب الأولاد كارهين للنساء، والبنات إلى عدم إنجاز طموحاتهن.

ومع ذلك، فالأمر يتطلب شيئاً آخر على المدى الطويل، فليس بكاف أن تلقى التأييد والمعاونة في دورها كربة بيت إذا كان المجتمع الذي يساعد الإنسان على استمراريته ظالماً وبشكل صارخ. فمجتمعات الجنوب الأمريكي قبل الحرب الأهلية، وألمانيا النازية، والمجتمع الحالي في جنوب أفريقيا ــ كلها دعمت، بل وبجدت دور النساء كربات بيوت، وكناقلات للقيم للجيل التالي. غير أنه قد فُهم في هذه المجتمعات كلها أن النساء ليس من حقهن التساؤل حول الحالة المجتمعية الراهنة. وإذا أقدمن على ذلك، كان هذا يُعد بمثابة عض اليد التي أطعمتهن، وانتهاكاً للأفكار المقبولة الخاصة بسلطة الذكور.

وفي كل من هذه المجتمعات كان من شأن الراحة والخصوصية التي نعمت بها الحياة العائلية "التقليدية" في المجموعة المسيطرة أن ساعدت على تأخير الإصلاحات المجتمعية التي يحتاج الأمر إليها بشدة. وشكراً لله، على أنه في كل منها كانت هناك نساء ممن أصرَّت على أن تكُنّ "مسيحيات أولاً وربات بيوت ثانياً"، كما كان هناك رجال يؤيدونهن في هذه الرؤية. ولقد ساعدن على إدارة خطوط مترو الأنفاق أثناء الحرب الأهلية الأمريكية، وكن تخفين اليهود في أوربا التي كانت تحت الاحتلال النازي، وكن يُعارِضن الإجهاض الإرادي، وتعملن من بين أمور أخرى من أجل إصلاح نظام القضاء الجنائي. ونعود للقول إن الأولويات وليس الأدوار هي التي لها الأهمية.

دروس من المزرعة :

وفيما نحن بصدد الانتهاء من هذا الفصل الخاص بالزواج والعائلـة، فلسوف نتأمل مجموعة أخرى من النتائج التي قد تساعدنا على أن نستعيد بعض المرونـة في تفكيرنا عن أدوار الزواج والعائلة، ومن السخرية أن كثيرين ممن يَدعَمون معايير عائلات الطبقة المتوسطة التي تحيا في المدن والتي ليس لها سوى عائل واحد يقوم بالعمل ليعولها، هم أناس لم يكن آباؤهم أو أجدادهم من الفئات السابق ذكرها. وهناك مثال واضح بصفة خاصة عن رجل من كاليفورنيا أمضى السنوات يعارض علانية حقيقة أن امرأة فُضلت عليه في وظيفة "موزِّعة" في الشارع الرئيسي من المدينة. وأن درجات اختبارها وخبرتها السابقة ترجحانها، ولا يمكن أن يكون نداً لها على الإطلاق. إلى جانب أنها أرملة تعول أربعة أطفال تشفع لها عنده. ولقد أصرّ على قوله أن العمل بالطريق عمل يدوي صعب، وأن الرجال وليس النساء هم الذين يجب أن يحصلوا على أجر كي يعولوا عائلاتهم. ومع ذلك، فإن أُمه شخصياً، كانت تساعد في إدارة مزرعة كبيرة، كانت تقوم بقيادة الجرارات، وتكوِّم القش بعد أن تحزمه حزماً، بل واستطاعت أن تدير المزرعة بعد أن توفي زوجها أثناء فترة الكساد. وقد اعترف ابنها قائلاً : " أعتقد أنها كانت امرأة قوية للغاية"، ولم يكن يدري أن تاريخ عائلته بالذات يناقض حجته بشأن "مكان المرأة الطبيعي " .

والفلاحون كمجموعة تم تجاهلهم إلى حد كبير من قِبل علماء الاجتماع في أمريكا الشمالية، أما نساء المزارع، فلعلهن أكثر مجموعة مُهمَلَة على الإطلاق. ولم تُجرَ أية دراسة عن عمل النساء في المزارع والحياة العائلية قبل بداية الثمانينات، حيث استندت إلى لقاءات تمت مع ٢٥٠٠ من النساء العاملات في المزارع، وعينة مقارنة من خمسمائة شخص ممن يعملون بها. وتعطينا النتائج صورة عن الحياة العائلية أكثر اتحاداً من الناحية العضوية عن تلك الخاصة بالعائلة التقليدية في البيئة

المدنية الصناعية. والمزرعة هي عمل عائلي ينشط فيه كل من الزوج والزوجة على قدم المساواة. وأدوار الذكورة والأنوثة موجودة بالفعل. وعلى سبيل المثال : نجد أن الأزواج في العادة أكثر انخراطاً من الزوجات بالنسبة للقرارات الخاصة بالتسويق، أما الزوجات فهن أكثر انشغالاً من الأزواج في حسابات المزرعة. إلا أنه يوجد مع ذلك مرونة في أدوار الذكورة والأنوثة بأكثر مما هو حاصل في حالة الزيجات "التقليدية" المدنية، حيث الزوجات أكثر انخراطاً في عمل المزرعة، والآباء أكثر تواجداً بالنسبة لرعاية الأطفال بين نوبات العمل.

إضافة إلى ذلك، تُقلّل تربية الأطفال من مساهمة النساء في عمل المزرعة وذلك في حالة ما إذا كان الأطفال لم يصلوا إلى سن المدرسة. وما أن يكبر الأطفال بحيث تصبح لهم القدرة على المعاونة في هذه العملية (يتحملون درجة من المسئولية نادراً ما نجد لها مثيلاً بين أطفال المدينة الذين هم من نفس السن)، إلا ونجد أمهاتهم وقد أصبحن في الواقع أكثر انشغالاً، وليس أقل، في جميع أوجه العمل في المزرعة. زد على ذلك أن نتائج التقارير تؤكد بل وتُجدد مثلاً قديماً يقول : "إذا أردت أن يُنجز أمر ما، اطلب ذلك من امرأة عاملة". وأكثر نساء المزارع اللواتي من المحتمل أن يشاركن في المنظمات التطوعية، والعمل السياسي، وأنشطة الكنيسة، كانت أولئك اللواتي عندهن مزارع كبيرة، حيث تحصلن على وظيفة خارج المزرعة، وبعيداً عن الأطفال الذين بلغوا سن المدرسة. ولعل أفضل اختبار عن مشاركتهن دور الآباء في العملية هو قبول أكثر من نصف عينات السيدات (وموافقة معظم الرجال) على أن الزوجة بمقدورها أن تدير المزرعة إذا ما توفي الزوج أو في حالة عجزه.

تركيب تقليدي للعائلة ؟ على الرغم من أنه تركيب تتذكره عائلات المدينة المفرطة في التقليدية، من تاريخ العائلة بكل فخر وإعزاز. ومن الطبيعي أنه ليس

بوسعنا أن نُعيد التفصيلات الدقيقة لأسلوب الحياة هذا والذي كان في المدينة. غير أن فعاليته الأساسية، هي قدر أكبر من المساهمة في المسئوليات الاقتصادية وتربية الأطفال من قِبل الوالدين، وإسناد مسئوليات حقيقية للأطفال حين تصبح لهم القدرة على توليها. وهذا أمر متوفر لمعظم العائلات التي تهتم بشكل كاف بتنظيم حياتها، وأولوياتها على ضوء ذلك. وليس هناك شيء غير كتابي بالنسبة لأدوار العائلة التقليدية، شريطة أن تكون العائلة سليمةمن نواح أخرى. ولكن ليست العائلة التقليدية هي السبيل الوحيد (أو الأفضل دائماً) لتنظيم مثل هذه الأدوار من أجل الصحة المتعلقة بالزواج، والقيام بالدور الأبوي بشكل كاف وخدمة الملكوت. ولذلك دعنا بالنسبة لهذه الدعوة أو غيرها، أن نكون مستعدين أن نمارس حرية مسيحية مسئولة، وأن نتيح للآخرين أيضاً أن يعملوا هكذا.

الباب الرابع

الإنجاز والجاذبية

الفصل العاشر:

أدوار الذكورة والأنوثة
والعمل والدعوة المسيحية.

ما الذي يحدث حين يظهر المطالبون بالمساواة بين الجنسين إلى جانب كل من طرفي القضية في المحكمة ؟ كان هذا هو عنوان مقالة ظهرت في المجلات في منتصف الثمانينيات. وكان الأمر يتعلق بقضية تمييز جنسي رفعتها لجنة فرص العمالة المتساوية في الولايات المتحدة (EEOC) ضد شركة شيرز، ريوبك. وقد كشف فحص لسجلات الشركة على مدى عشرة أعوام أن نساء أكثر "نسبياً" من الرجال بدأن وواصلن العمل في وظائف المبيعات بما في ذلك بيع السلع الصغيرة بدون أية عمولة مقابل ذلك (الملابس، المجوهرات، بطاقات التحية). وعلى العكس من ذلك، فإن نسبة مئوية أكبر من الرجال وصلوا إلى بيع السلع ذات الأثمان الباهظة ـ مثل الأجهزة الكبيرة، والأدوات الكهربية أو إطارات السيارات ـ الأمر الذي يُحقّق لهم عمولات ضخمة علاوة على أجورهم الأساسية. وبالنظر إلى أنه حتى أفراد المبيعات بالنسبة لعمولة السنة الأولى حققوا مكاسب متوسطة تبلغ ضعف كل ما يتقاضاه العاملون الذين لا يتقاضون عمولات، فقد أعلنت لجنة فرص العمل المتساوية، أن شركة شيرز مذنبة في اتباع "نظام أو نهج" من التفرقة الجنسية وبشكل منتظم.

وإلى هنا، بدا الأمر كما لو كان يتعلق بقضية روتينية ضد التمييز، مشابهة لقضايا أخرى رُفعت ضد مؤسسات مثل شركة جنرال موتورز، وجنرال إليكتريك وغيرها. وكل هذه تم تسويقها خارج المحكمة، بعد الموافقة على تقديم ملايين الدولارات كأجور بأثر رجعي للمجموعات التي واجهت التمييز الجنسي، أو إقامة برامج عمل لإثبات الذات تجعل سياسة المرتبات والترقيات عادلة. أما الذي تتفرد به قضية شيرز ليس مجرد أن الشركة قررت النضال في المحكمة فقط، بل إن الأخبار الجديرة بالذكر كانت "شهادات الخبراء" الذين أحضرتهم شركة شيرز ولجنة فرص العمل المتكافئة، وعن كل قضية كان يحضر أستاذ معروف بتاريخه في المطالبة بالمساواة بين الجنسين وذلك من جامعة شرقية لها مكانتها. وعلى الرغم من أن حججهم كانت تاريخية، إلا أن الموضوعات التي كانت وراءها كانت أيضاً موضوعات نفسية. وقد أشاروا إلى أسئلة تتعلق باختلاف الأولويات بين الرجال والنساء، سواء كانت متأصلة بالأكثر في الطبيعة أو في الثقافة، وما قد تعنيه (أو تسمح به) في محل العمل.

ولقد احتج محامو شيرز بأن النقص النسبي لعدد النساء في المبيعات ذات الأثمان المرتفعة لا يعكس تمييزاً بشكل منتظم أو حتى نقصاً في التشجيع من جانب الشركة. ولقد أثبتت التقارير أن معظم النساء لا يردن الضغط والمنافسة والمسئولية الإضافية المرتبطة بهذه الوظائف. أما روزالند روزنبرج Rosalind Rosenberg وهي من جامعة كولومبيا، فقد شهدت دفاعاً عن الشركة فقالت : "من الناحية التاريخية، الرجال والنساء لهم اهتمامات وأهداف وتطلعات مختلفة بالنسبة للعمل. وبالنظر إلى أن عمل البيت والاهتمام بالطفل يُؤثران في مساهمة النساء في القوى العاملة حتى في أيامنا هذه، فإن نساء كثيرات اخترن أعمالاً تكمل التزاماتهن العائلية وفضلنها عن الأعمال التي قد تزيد أو تُعزِّز قدرتهن على الكسب. ومن

الطبيعي أن يكون للرجال والنساء أولويات مختلفة. ويبدو أن روزنبرج كانت تقول إن هذه تنعكس في نماذج مختلفة من الوظائف، التي ليست في غالبيتها، نتيجة تفرقة من جانب الإدارة.

ولقد شهدت من أجل "لجنة فرص العمالة المتساوية" عالِمة اجتماعية أخرى هي أليس كيسلر هاريس Alice Kessler Haris، وهي من جامعة هوفسترا، فقالت إن تبرير سياسة التمييز الجنسي بين العمال باللجوء إلى خيارات النساء "الطبيعية" لاستمرار سياسة التفرقة إنما هو عذر بلى عليه الزمن. والواقع أن خيارات "النساء" لا يمكن فهمها إلاّ في إطار فرصة متاحة. فأفكارنا عن عمل "مناسب" للنساء تتغير كما تتغير احتياجاتنا المجتمعية. وفي هذه البلاد - على سبيل المثال - كانت النساء تلقين التشجيع تارة والتثبيط تارة أخرى من ناحية قبول وظائف البنوك، وكان هذا يعتمد على مُعدّل البطالة بين الرجال. وحين كان الرجال يرفضون أن يكونوا صرّافين في البنوك، كان يُقال للنساء إنهن "ماهرات في الأرقام" وكان يُرحب بهن في البنوك، وحين بدأ الرجال يحتاجون إلى هذه الوظائف (أثناء فترة الكساد، مثلاً)، كانت البنوك تتوقف عن استخدام النساء "لأنهن ضعيفات في استخدام الأرقام". واختتمت أليس كيسلر هاريس Alice Kessler Harris مرافعتها بقولها : الحجة القائلة بأن النساء لا تقبلن وظائف معينة، هي ستار لممارسة التفرقة، التي تُحجب بذكاء، أو بغير ذكاء على هذا النحو بالدعاية السلبية وظروف العمل. وإذا رفضت النساء ظروف العمل هذه، يُقال إنهن "اخترن" أن يتركن العمل استجابة لسمة داخلية في الشخصية المؤنثة، في حين أن الحقيقة هي أن هذا الاتجاه عمل من أجله الذكور للمحافظة على مصالحهم.

تصنيف الموضوعات :

هذه القضية تُبرز موضوعات هامة بالنسبة للنساء والرجال والعمل. وقد لّمحت

روزنبرج إلى أن نماذج العمل الخاصة بالذكور والإناث مردها الاختلافات في الشخصية بين النساء والرجال : فالنساء "من الطبيعي تماماً" أن يُكيفن حياتهن في العمل حول العناية بالبيت والأطفال، والرجال "من الطبيعي تماماً" أن يتعاملن مع ضغوط ومنافسة العمولة على المبيعات بأفضل مما تتعامل معها النساء. ولقد ردت كسلر هاريس قائلة بأن قوى المجتمع، وليست الشخصية، هي التي تفسر لنا بشكل أفضل لماذا ينتهي الرجال والنساء إلى العمل في وظائف مختلفة مقابل أجور مختلفة. وهل بمقدورنا أن نفاضل بين هذين التفسيرين ؟ وهل هناك عوامل أخرى نحتاج إلى أن نعرض لها أيضاً ؟.

وللإجابة على هذه الأسئلة نحتاج إلى توضيح ما هو المقصود بكلمة "عمل". وإلى هنا كنتُ قد استخدمتُ بطريقة عشوائية تعبيرات مثل "القوة العاملة"، و"مكان العمل" دون أن أشير حتى إلى المقصود بكلمة عمل. وتكلمت أيضاً عن العمل مدفوع الأجر (مثل وظائف المبيعات) والعمل غير مدفوع الأجر (مثل القيام بدور الوالدين) ولّمحت إلى الفرق بين العمل البدني (مثل العناية بالبيت)، والعمل الذهني (مثل كتابة التاريخ). وما الذي يهم كعمل، على أي حال، وما الموقف الذي يجب على المسيحي أن يتخذه قبله ؟ وإذا كان لنا ـ كما في فصول سابقة ـ أن نتأمل هذا الموضوع في إطار وجهة نظر كتابية عالمية، هنا نصبح في حاجة إلى أن نبدأ بفكر لاهوتي عن العمل. ولسوف نفعل هذا بالاطلاع على الآراء المسيحية، والآراء السابقة على المسيحية بالنسبة للعمل ومكانه في حياة البشر. وبعد أن سبق لنا أن رأينا في الفصل الثامن كيف أن العائلات تستفيد من انخراط الرجال بشكل

أكبر في عمل تربية الأطفال، فلسوف نتأمل في بحث عن انخراط النساء فيما يُسمى عمل الرجال.

العمل في المنظور التاريخي والفكر اللاهوتي :

أُعطيت للعمل معان مختلفة، ومن ثم قيم متباينة على مر التاريخ. والعمل عند الإغريق القدماء هو ما يجب عمله لحفظ جسم الإنسان ـ إطعامه، تنظيفه، إيواؤه، وحمايته. وبالنظر إلى أن الحيوانات نفعل أيضاً هذه الأشياء، فقد استخلص أرسطو من ذلك، أنه ليس هناك شيء يتفرد به الإنسان بالنسبة لهذا الكدح، وأنه يجب تجنبه حينما يكون ذلك ممكناً. ويقول أرسطو إن البشر يكونون متفردين وعلى صورة الله طالما كانوا منطقيين. ولذلك فإن الحياة الفكرية للفيلسوف هي التي يجب أن يُقدِّرها الشخص ويشتهيها أكثر من أي شيء. وقد وافق أفلاطون على ذلك. والجسم بالنسبة له عائق يسحب مع الأسف العقل أو الروح من حالته الأبدية، الروحية، وحالته قبل الولادة حيث كانت المعرفة الأساسية واضحة وتامة. والكفاح للرجوع إلى مثل هذه الحالة، وأن يصبح مهيئاً لها تماماً بعد الموت، يتطلب إنكار الملذات الجسدية والتهذيب المستمر للذهن من خلال الممارسات الفلسفية.

بيد أنه حتى الفلاسفة في حاجة إلى أن يأكلوا. واليونانيون ـ على غرار العبرانيين الكتابيين ـ اعتقدوا أن البشر بالطبيعة اجتماعيون ويتكلون كلٌ على الآخر. ولكنهم كانوا يعتقدون أيضاً في تقسيم "طبيعي" للعمل قائم على ذكاء الناس النسبي. والفلاسفة، وهم أكثر الناس كداً من ناحية السعي وراء الحق الأخلاقي والفكري، كان يُنظَر إليهم على أنهم أفضل الناس لحكم المجتمع. وهم بالطبع، يُفضلون العمل بالفلسفة، ولكن حساسياتهم الأخلاقية المرتفعة ستؤدي بهم

إلى أن يأخذوا على عاتقهم مسئوليات سياسية أيضاً. وبحسب خطة أفلاطون، يلي طبقة الحكام الفلاسفة، طبقة "الاحتياطيين" ـ الذين يعملون كرجال شرطة، وجنود، وموظفين حكوميين، وذلك استجابة لتوجيهات الحاكم. وفي قاع السلم يأتي العمال الذين ينتجون الضروريات المادية اللازمة للحياة ـ الفلاحون، الصناع، التجار وما إلى ذلك. وفي "*الجمهورية*" التي تنهج هذه النظرية الاجتماعية، يدَّعي أفلاطون أنه لا يحابي أية طائفة من الشعب على حساب الأخرى (على أي حال، حتى الفلاسفة عليهم أن يتحملوا واجبات كانوا يفضلون لو أنهم تجنبوها). لقد كان أفلاطون يعمل من أجل تعزيز صالح المجتمع كله، وكان على قناعة بأن هذا يعتمد على معرفة كل طبقة لموقعها، ورغبتها في البقاء فيه.

وفي "*السياسة*" لأرسطو، كانت هناك أيضاً طبقة من "العبيد الطبيعيين" ـ وهم أقل الناس من ناحية القدرات العقلية. وكتب أرسطو يقول : "هؤلاء الأشخاص، كانوا مهيئين بالطبيعة للقيام "بعمل الصيانة" الأمر الذي يُفسح المجال لأسيادهم الأكثر منهم ذكاء لأن ينخرطوا في النشاط السياسي أو الفلسفي. ولكن أين الموقع المناسب للنساء في هذه الخطة ؟ وطبقاً لما يقوله أرسطو، قدرات النساء العقلية أقل من قدرات الرجال، وعلى ذلك، فالذكر بالطبيعة هو الأسمى والأنثى هي الأدنى، الأول يحكم، والثانية تُحكَم. ويمكن للنساء أن ينتمين إلى أي مستوى في المجتمع، بفضل دورهن في حمل الأطفال لأزواجهن (على الرغم من أنه حتى هنا، لم تُعتبر أرحام النساء سوى أنها مجرد التربة التي تنمو فيها بذرة الرجل، فهي لا تسهم في حياة البشر، بل تغذيها فقط). وكان بوسعهم تحديد السلطة المنزلية على العبيد والعمال، إذا كانوا محظوظين بأن يتزوجوا زيجة طيبة. بيد أن الحياة المدنية والفلسفة كانتا موصدتين أمامهن، لأن كلاً منهما يعتمد على مستوى من النمو الفكري كان يفترض أن النساء يفتقرن إليه.

آراء العصور الوسطى، وعصر النهضة في العمل :

كُرز بالإنجيل المسيحي أولاً في وسط ثقافي وفكري إغريقي. وكان من شأن ذلك أن طوَّر آباء الكنيسة وأحفادهم في العصور الوسطى ما يتضمنه الإنجيل على ضوء إطار الفلسفة اليونانية التي تدربوا في ظلها. ومثلما رأى اليونانيون في حياة الذهن أسمى أنشطة الإنسان هكذا أيضاً لاهوتيو العصور الوسطى مثل توما الإكويني، اعتبروا التأمل في الله يسمو من الناحية الدينية على العمل البدني الخاص بالاهتمام باحتياجات الإنسان الجسدية ـ أو حتى احتياجات الآخرين. وقد قيل إن هذه الحالة لا تساعد إلا على المحافظة فقط على ما سوف ينتهي بالموت، في حين أن الصلاة، والدراسة الدينية، باعتبارها أنشطة للعقل الخالد، سوف تظل إلى الأبد.

ومن هنا جاء تفريق العصور الوسطى بين الحياة "النشيطة" وحياة "التأمل". والحياة النشيطة تتضمن كل ما نسبه أفلاطون إلى العمال والمساعدين ــ وأقصد بذلك، العمل الخاص بتدبير الاحتياجات الجسدية والمجتمعية. فلكي تكون فلاحاً، أو والداً، أو تاجراً، أو فارساً، أو موظفاً حكومياً ــ كانت هذه أموراً "طيبة" في نظام الخلاص في العصور الوسطى، وإذا ما أخذنا في الاعتبار الطبيعة المادية للحياة على الأرض، فلابد وأن يقوم شخص ما بعمل هذه الأشياء. غير أنه بدءاً من آباء الكنيسة الأولى وحتى العصور الوسطى (وبحسب التفكير الكاثوليكي إلى عهد قريب جداً) كانت الرسالة واضحة. فالحياة النشيطة ما هي إلا حياة مؤقتة، في حين أن التأمل في الله يستمر إلى الأبد، وبناء على ذلك فإن حياة التأمل هي "أفضل" من الناحية الدينية. والواقع أن هذه الأخيرة فقط هي التي أُشير إليها على أنها "نداءً" أو "دعوةً" من الله. وقد يكون للعمل قيمة سلبية في تقويم الجسد لحالة أكثر ملاءمة للتأمل، إلا أنه فيما عدا ذلك، كان ضرورة يؤسف لها.

ومن الطبيعي، أن كنيسة العصور الوسطى كانت تختلف عن اليونانيين في السماح لكل من النساء والرجال أن يختاروا بين الحياة النشيطة وحياة التأمل. وعلى الرغم من أن النساء من الناحية النظرية تُعد أكثر من الرجال شراً وأقل منهن عقلانية (وهكذا لا يمكن أن تصبحن كاهنات)، إلا أن الأمور في الواقع كثيراً ما تكون مختلفة عن ذلك. فالنساء المتعلمات سليلات الأسر الكبيرة تحملن معهن عندما يذهبن إلى الأديرة شعورهن بالامتياز والسلطة. وكثيراً ما تصبحن مديرات قويات للناس والممتلكات. وعلى الرغم من تنامي بيروقراطية الكنيسة، فقد احتفظت شعوب العصور الوسطى بالشعور الذي يقول بأنه كما في المسيح نفسه كانت قوة الله تظهر غالباً في الأشخاص الضعفاء. فهكذا يكون توَحد النساء وتصوفهن، ونزوعهن إلى حياة التقشف، وادعاؤهن بأنهن يتلقين رؤى مباشرة من الله، أحياناً ما يتيح لهن دوراً نبوياً يجعلهن موضع ثقة بل ومستشارات حتى للملوك ولرؤساء أساقفة. وعلى الرغم من الوضع الديني المتدني للتجار والصُنّاع والفلاحين، فإن نساء هذه الطبقات، تراهن على قدم المساواة تقريباً مع الرجال من ناحية الأعمال. وهذا العمل كان ضرورياً لنجاح مشروع العائلة، والقانون يحمي حقوقهن في الوراثة، والزيجات المفروضة فرضاً، كانت نادرة. وكان للأرامل بصفة خاصة استقلالية كبيرة، ولاسيما إذا ترك لهن أزواجهن ضيعات كبيرة، وهناك سجلات عن نساء عزبات مستقلات، ونساء متزوجات كان لهن دور كبير في شئون العائلة.

ومع ذلك، فالعمل الإنتاجي والتناسلي، كان يُنظر إليهما على أنهما من الناحية الدينية أقل قدراً من حياة الصلاة والتأمل. ولم يبدأ هذا الوضع في التغيير إلا مع عصر النهضة في القرن الخامس عشر. في ذلك الحين، استُبدل الفكر الذي ساد لمدة طويلة بأن الله عقل منفرد مكتف بذاته، بتأكيد على أن الله خالق نشيط، وهو

الذي يحفظ الكون. وفي هذا الفكر أصبح البشر مثل الله، ليس من ناحية التفكير فحسب، بل بنشاطه الإنتاجي الذي قلّل من شأنه في الماضي. ويلخص الفيلسوف لي هاردي Lee Hardy هذا الفكر الجديد بقوله : "أن تُخلق على صورة الله لا يعني فقط أنك تمتلك عقلاً، بل ويَدَين أيضاً". ولقد خلق الله الطبيعة من لا شيء. والبشر يخلقون الآن عالَماً من الطبيعة، وبذلك يصبحون أنصاف آلهة. والإنسان المثالي لم يعد الفيلسوف أو الراهب الذي يتأمل فحسب، بل الفنان الذي يتأمل الفكرة كما يتأمل الأشكال والمواد التي يُعبر عنها.

أشرنا في الفصل الثاني إلى أن السلطان والناحية الاجتماعية هي جوانب من صورة الله في كل الناس. وما من شك في أن مفكري عصر النهضة كانوا يستعيدون الاحترام لهاتين الناحيتين في تأكيدهم على الله، والأشخاص باعتبار أن كلا منهم "خالق". وفي نفس الوقت يُشدد بعض الفلاسفة بالأكثر على إبداعية البشر، حتى أنهم حرروا الناس تماماً من اتكالهم على الله. والواقع أنه بعد ذلك بثلاثة قرون، كان كارل ماركس Karl Marx يكتب باستفاضة عن هذا التقليد. فالعمال في ظل الرأسمالية كانوا يشعرون بالاغتراب عن عملهم، غير أنه بعد الثورة الصناعية كانوا يشتركون معاً في كل وسائل الإنتاج، ويسيطرون بحرية على عالَم من صنعهم وحدهم. ومن وجهة نظر اليونانيين، ومفكري العصور الوسطى كان العمل ضرورة بغيضة، وبدأ فكر النهضة يُنظَر إليه على أنه ذروة الاستقلالية، وتعبير البشرية عن ذاتها. والمصلحون البروتستانت هم الذين حاولوا أن يضعوا خطاً واضحاً بين هذين الفكرين المتطرفين غير الكتابيين. وفي هذه العملية استعادوا وطَوروا معنى العمل على ضوء قصة الإنجيل. غير أنهم في الوقت نفسه حدَّدوا أدوار الذكورة والأنوثة بطريقة تتوقع انفصال المجالين العام والخاص اللذين سيأتيان

مع الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر. وكانت النتائج بركة مشتركة للنساء والرجال.

الإصلاح : تراث مختلط :

ولب رسالة الإصلاح البروتستانتي هو أنه لا الحياة النشيطة ولا التأملية بوسعها أن تُخلِّصنا. بل إننا نلنا الخلاص بنعمة الله، وليس نتيجة لأعمالنا، دينية كانت أم علمانية. والواقع أن المُصلحين تجاهلوا التمييز الذي ساد العصور الوسطى بين المُقدَّس والدنيوي، حيث جعلوا تعريف الدعوة الدينية يشمل أي نشاط يمكن للشخص بواسطته أن يخدم جيرانه في إطار المحبة المسيحية. وكان كلٌّ من لوثر وكالفن ينظران إلى عمل الإنسان على أنه إسهام في جميع أعمال القصة الكتابية. وهما لم يُنكِرا أن العمل كثيراً ما يكون شاقاً وبغيضاً نتيجة السقوط، إلا أنهما كانا يُصِرَّان على أن عملية السقوط لم تكن بدايته أو نهايته في عيني الله. وقدرتنا على العمل تشكِّل جزءاً من نظام الخليقة، ناظرين ليس إلى سيادة الله وإبداعه فقط، بل وإلى الوسيلة الرئيسية التي بواسطتها يواصل رعايته لنا. "وإذ شكَّل الله عالماً عامِراً بالموارد والإمكانات، فقد رأى أن يواصل نشاطه الخلاَّق من خلال عمل أيدي الإنسان. ومن خلال عملنا، على الرغم من تواضعه، يؤتي بالناس إلى عناية الله. وفيما نصلي كل صباح من أجل خبزنا اليومي، نجد الناس بالفعل يعملون في المخابز.

وعلى أساس وجهة النظر هذه، يمتد العمل ليشمل نشاط الله من ناحية الفداء في المسيح. وعلى الرغم من أنه لدينا اليقين الكتابي عن نتيجته النهائية، إلا أن المعركة الكونية بين الخير والشر، لا يزال يقع فيها ضحايا كثيرون. غير أننا نحارب الشر بقوة الله وليس بترك النشاط الدنيوي لحياة دينية وتأملية خالصة. ودون أن نهمل الصلاة والعبادة، علينا أن نُنمّي ثمار الروح بأن نقبل النواحي المختلفة للعمل ـ

اللطيفة منها والبغيضة ـ كخدمتنا للآخرين. وأي عمل يخدم قريبنا يُنظر إليه على هذا الأساس ـ سواء كان بأجر أو بدون أجر، منزلي أو عام، ذهني أو بدني ـ يمكن أن يكون دعوة مصطبغة بالكرامة الإلهية. وعلى ضوء هذا، وإذا استعملنا عبارة إصلاحية أكثر حداثة : "الحياة بكاملها ديانة".

كل شيء حسن حتى الآن. وطبقاً لما يقوله أعضاء حركة الإصلاح الديني، فالعمل لا يتدنى بنا إلى مستوى البهائم، ولا يرفعنا إلى مرتبة الآلهة. ومن خلال العمل، نشارك أعمال عناية الله بخليقته، ونسير على نهج المسيح في عمله الفدائي حيث تألم نيابة عن الصغير، والفقير، والمضطهد حيث أخذ مكانهم. وعلاوة على ذلك، فإنه في القرن الماضي أو نحو ذلك، كان هناك تحول كبير في الفكر الكاثوليكي والبروتستانتي بالنسبة لطبيعة العمل ومعناه. وإنه من المهم أن يكون لدى المسيحيين فكر لاهوتي واضح عن العمل، لأننا نعيش في زمن تشوه معناه بدرجة كبيرة. لأنه بالنسبة للكثيرين جداً من الطبقة العاملة، أصبح العمل تكراراً غبياً لمهام في إنتاج السلع والخدمة المشكوك في قيمتها. أما بالنسبة للكثيرين من الطبقة المتوسطة وما فوقها، أصبح العمل هو السعي وراء الثروة والقوة، بغض النظر عن نتائج ذلك على العائلة، الصداقة، البيئة، أو صالح المجتمع على المدى البعيد. وبالنسبة لنا جميعاً أصبحنا نُغالي في تعريفه بأنه الحصول على أجر ــ إلى درجة أن بعض المسيحيين، وبعض المُطالبين بالمساواة بين الجنسين (من مسيحيين وغيرهم) ما زالوا يُفرِّقون بين "النساء العاملات" و"ربات البيوت" ـ كما لو أن الاهتمام بالبيت ليس من بين الأعمال التي تتطلب عناية فائقة.

أدوار الذكورة والأنوثة والإصلاح الديني :

هل تحسَّن وضع النساء نتيجة للإصلاح الديني ؟ يُلاحظ أن البروتستانت والكاثوليك يعطون إجابات عكسية لهذا السؤال. فالمؤرخون البروتستانت يشيرون

إلى إصرار المصلحين على أن جميع الأعمال ـ وعلى قدر متساو ـ تشكل جزءاً من عمل ملكوت الله، ومن ثم يضعون الزواج والحياة العائلية على مستوى روحي مساو لما يُدعى الدعوات الدينية. وعلى صعيد آخر، يشير الكاثوليك إلى أن حركة الإصلاح الديني نّحت النساء عن كل الوظائف الدينية التي أوجدتها لهم كنيسة العصور الوسطى دون إقامة أي بدائل معترف بها. وهذا ــ كما يقولون ــ ترك النساء البروتستانتيات في نوع من النسيان الكنسي مازلن يتخبطن فيه حتى يومنا هذا.

وكل من هذه الآراء يتضمن قدراً من الصحة. وفكرة المصلحين أن الحياة كلها ديانة، من المؤكد أنها جعلت من الممكن النظر إلى الزواج ودور الآباء كطرق لخدمة الله ليست أقل أهمية من كون الإنسان راهباً (أو راهبة). وتشديدهم على كهنوت كل المؤمنين، معناه ـ من الناحية النظرية ــ أن أقل الناس (من رجال ونساء) مكانة من الناحية الاجتماعية يمكنه أن يتقدم ويُنصِت إلى الله بشكل مباشر، دون وساطة الكنيسة. وبالنظر إلى أن المصلحين ينظرون إلى الكتاب المقدس كالمصدر الوحيد للسلطة المتعلقة بالعقيدة، فقد كان لهم مُبرر قوي لتشجيع معرفة القراءة والكتابة بالنسبة لكافة المؤمنين، لأنه عن طريق فهم كلمة الله فقط يستطيع كل المؤمنين ــ باعتبارهم كهنة متساويين في الدرجة ــ أن يفهموا طرق الله ومشيئته.

أما بالنسبة للنساء فإن هذه المبادىء الإصلاحية قد احتُرمت من ناحية خرقها لا حفظها. إنها لحقيقة أن لوتر قد انتقد بشدة الافتراض اليوناني / الذي برز في العصور الوسطى بأن المرأة أكثر شراً من الرجل وأقل منه من ناحية صورة الله. ومع ذلك، فقد كتب يقول : "إنها مجرد امرأة فقط. وكما أن الشمس أكثر من القمر بهاء (على الرغم من أن للقمر بهاءه أيضاً)، هكذا خُلقت المرأة أقل منزلة من

الرجل من ناحية المجد والكرامة، على الرغم من أنها أيضاً عمل رائع جداً من أعمال الله. وعلى الرغم من أن المُصلِح الألماني كان له رأي متقدم جداً عن التعليم النسائي (على النقيض من كالفن، الذي كان يعتقد أن التعليم الشفهي للعقيدة الدينية كان كافياً بالنسبة للنساء) فقد أنكر لوثر على المرأة حق الوعظ أو ممارسة الأسرار المقدسة سوى في حالات الطوارىء، مثل عماد المولودين حديثاً في حالة الاحتضار وذلك بواسطة القابلات ـ وهذا أمر مأخوذ من كاثوليكية العصور الوسطى. وما يدعى كهنوت جميع المؤمنين ظل ـ من ناحية وظائف الكنيسة ـ كهنوتاً للمؤمنين الذكور فقط.

وثمة غموض مماثل ساد مواقف مصلحين آخرين. وفي كل من تفسيراته وتعاليمه وصل جون كالفن John Calvin إلى نتيجة ـ وكانت أمراً يدعو إلى الدهشة في زمانه ـ مفادها أن القيود التي وضعها.بولس على النساء، لم تكن في مجال الناموس الأبدي، ولكنه موضوع لا يتعلق سوى بالسيادة البشرية. وكتب يقول : إن الكتاب المقدس لم يمنع أو يطلب من النساء أن يسهمن في وظائف الكنيسة. ولكن.بما أن القضية هكذا، لم يكن كالفن على وشك أن يصبح رائداً من ناحية دمج هذه الوظائف. ولأنه يعتبر الانتفاضة الاجتماعية أمراً مضاداً للكتاب المقدس، وبالنظر إلى أن توسيع أدوار النساء في الكنيسة من المؤكد أنه سيكون موضوعاً مثيراً للشقاق، فقد ترك كالفن النساء على حافة نظام كنيسة جنيف. وعلى الرغم من أن القائلين بتجديد العماد، مثل أسلافهم في العصور الوسطى، كانو يحترمون الروحانيين من الذكور والإناث، إلا أنهم في العادة كانوا يتمسكون بآراء تقليدية جداً تتعلق بالنساء وذلك بالنسبة للزواج والخدمة. ويُعلق كاتب سيرة مينو سيمونز Menno Simons قائلاً إن عمله الجوهري الخاص بالعلاقات بين أدوار الذكورة والأنوثة هو إنكار حق الزوج في ضرب زوجته، وثمة قائد آخر من طائفة القائلين بتجديد العماد، في القرن السادس عشر، جادل في الواقع مطالباً بإعادة نموذج العهد

القديم الخاص بتعدد الزوجات. وكتب يقول : لقد لبست النساء السروال (البنطلون) مدة أطول من اللازم، وأفضل طريقة لتأكيد سلطان الرجل لما رسمه الله إنما سيكون من خلال ممارسة تعدد الزوجات.

الانزلاق إلى مجالات متفرقة :

وعلى الرغم من أن موضع النساء في الكنيسة من الموضوعات التي يناقشها المسيحيون بصفة دائمة (وهو موضوع سنعود إليه في الفصل الثاني عشر)، إلا أننا سنعود الآن إلى آراء المصلحين عن مجالات عمل المرأة والرجل خارج الكنيسة التنظيمية. وربما كان للوثر فكرة طيبة عن الزواج والحياة العائلية، غير أنه لم يكن دائماً يُبدي احتراماً عظيماً للنساء حتى في إطار هذا النطاق، و لم يكن يعتقد أنهن يصلُحن لشيء فيما عدا ذلك. فقد كتب يقول : "يتعين على النساء أن يلزمن البيت"، فالأسلوب الذي خُلقن به يشير إلى هذا، لأن لهن أردافاً ومؤخرة عريضة لتجلسن عليها، وتعتنين بالبيت، وتحملن الأطفال وتربيهن. وفي موضع آخر علّق قائلاً : " أبعد النساء عن إلا أن يكُن ربات بيوت فستجد أنهن لا يصلحن لشيء آخر. وإذا كانت النساء قد تتعبن وتَمتُن من حمل الأطفال، فلا ضرر في ذلك، دعهن يَمُتن طالما يحملن، لقد خُلِقن لأجل ذلك ". أما مينو سيمونز المُصلِح الذي ينتمي للقائلين بتجديد العماد، فكان مصراً على قوله بأنه على النساء أن يبقين منعزلات في البيت، بالشكل الذي كانت عليه الراهبات في أديرتهن : "عليكن بالبقاء في بيوتكن خلف الأبواب، ما لم يكن هناك شيء هام مطلوب تنظيمه، مثل شراء الحاجيات، وتدبير الاحتياجات الزمنية، أو لسماع كلمة الرب، أو من أجل الأسرار المقدسة...إلخ. الزموا مهمتكن بكل أمانة بالنسبة لأطفالكن، وبيتكُن وعائلتكُن".

ولكي نكون عادلين، يجب أن نعرف أن حصر النساء في عملهن كربات بيوت كان دافعه ـ بشكل جزئي ـ الاهتمام بحفظ الكنيسة البروتستانتية الناشئة من اتهامها بأنها تحيا حياة خليعة. ومثل هذه القيود ربما لم تكن على هذا القدر من الجدية لو كانت البيوت قد ظلت أماكن يشترك فيها النساء والرجال في تربية الأطفال وفي عمل عائلي. وفي ظل ظروف كهذه ظل على المرأة جزءاً محدداً بوضوح من قِبَل الاقتصاد المنتج، وعلى الرغم من أن النساء ربما لم تكنّ قد غامرن بالانطلاق إلى العالم طالما أن أزواجهن، الذين يشكلون العالم المحلي قد جاءوا إليهن، وبهذا يُقللون من مخاطرة العزلة الاجتماعية. وفي ظل ترتيب اجتماعي كهذا، ظلت أدوار الذكورة والأنوثة مرنة من الناحية العملية، وإن لم تكن كذلك من الناحية النظرية. ويتاح للأطفال من كلا الجنسين وبقدر متساو، الوصول إلى نماذج لدور البالغين من كلا الجنسين، واحترام الذات بالنسبة لكل من النساء والرجال يجيء نتيجة أن كلاً منهما أصبح له دور واضح في الناحية الاقتصادية.

إلا أن معظم البيوت بالطبع لم تبق على هذه الحال، ففي القرن التاسع عشر، إذ اتسع نظام المصنع، نجد رجالاً كثيرين تركوا عائلاتهم في البيوت وذهبوا ليكسبوا ما افترض أن يكون "رزق العائلة". والبيت، الذي كان في السابق وحدة إنتاج، أصبح الآن مجرد وحدة استهلاك لأشياء أُنتجت في مكان آخر، وتدنى دور النساء من الناحية الاقتصادية وأصبح يقتصر على اختيار السلع والخدمات التي تنفق العائلة عليها نقودها. وعوض المشاركة في الإنتاجية مع أزواجهن اقتصادياً، أصبحن مستهلكات بدون أجر، ووكيلات لتصريف شئون البيت. وبدلاً من مشاركة العمل في تربية الأولاد مع أزواجهن وأعضاء العائلة الآخرين، انتهى بهن الأمر إلى أن يقمن بهذا وحدهن إلى حد كبير. أما السخرية الكبرى (كما رأينا في الفصل التاسع) فتتمثل فيما يدّعيه كثيرون من المسيحيين من أن هذا هو النموذج "الكتابي"

الوحيد والصحيح للحياة العائلية، أكثر منه نموزج المجتمع الصناعي المثالي للطبقة المتوسطة والذي يُعدان كلاهما حديثان من الناحية التاريخية. وبالنسبة للوالدين والعائلات الوحيدة غير القادرة على العيش اعتماداً على مرتب واحد، فإن هذا يُعد أسلوب حياة لا يمكن تحقيقه بأي حال.

وكثيراً ما كنت أتساءل، كيف يمكن تبرير هذا من ناحية الفكر اللاهوتي. ومعظم المسيحيين سيوافقون على أن السلطان في إطار من المسئولية والعلاقات الاجتماعية يُشكل جزءاً من صورة الله في الأشخاص. ولكن أشك في أن مسيحيين كثيرين ممن يتمسكون دون وعي بمعايير ثقافية خالصة سوف يقدمون على تجزئة هذه المعايير. وهم يقولون بأن الرجال ـ في الحقيقة ـ هم الذين خُلِقوا في معظمهم من أجل السيادة (الأمر الذي ساووه بالعمل مقابل الأجر، بغض النظر عن مدى افتقاره إلى الإبداع والمسئولية)، وأن النساء هن اللوتي خُلِقن في معظمهن للنواحي الاجتماعية (والتي قيل إنها تربية الأطفال بغض النظر عن مدى دعم ذلك للاستقلال الاقتصادي، وأن ذلك يعزلهن عن البالغين الآخرين). وفي نفس الموضوع انتهوا أيضاً إلى أنه ليس ضرورياً بالنسبة للرجال أن ينخرطوا بشكل وثيق في تربية الأطفال، وأنه أمر "غير كتابي" بالنسبة للنساء أن يتطلعن بجدية إلى شيء آخر.

غير أننا رأينا في الفصل السابع أن العزل الصارم بين المجالين المنزلي والعام كانت له عواقب سيئة للآباء والأطفال من كلا الجنسين. وعرفنا في الفصل الثامن بعضاً من النتائج الإيجابية التي تحدث حين يتعلم الرجال من جديد دور الآباء. ولكن ماذا بشأن النساء اللواتي تعملن بأجر ؟ كيف سيصبح حالهن ؟ وللإجابة على هذا السؤال، دعنا نتأمل نوعين من الأبحاث التي تتناول أقلية تزددن ظهوراً، وهما النساء المهنيات والمديرات.

العمل في ظل المعوقات : النساء كمهنيات ومديرات :

لا يزال هناك عدد قليل نسبياً من النساء تعملـن في وظـائف الإدارة والوظـائف المهنية، وكما عرفنا من بداية هذا الفصل، هناك تفسيران لهذه الندرة. الأول هو تفسير "الشخصية المتمركزة حول نفسها" والتي تقول بأن النساء بسبب الطبيعة أو التنشئة أو كليهما معـاً، فشـلن في أن تكـون لهـن سمـات الشـخصية المطلوبـة للنجـاح في العمـل الإداري أو المهني. ولعلهـن يخشـين مـن أن النجـاح يسـلبهن أنوثتهـن، وأن متطلبـات الوظيفة ستجعلهن أمهات رديئات، أو أن المنافسة مع زملاء العمل مجهدة للغاية. وثمـة بحث حديث يقول بأن الرجال يتعلمون المهارات الإداريـة اللازمـة ــ مثـل اسـتراتيجية التخطيط، التعاون والمنافسة ـ من الفرق الرياضية في شبابهم، والتي يقتصر دور معظـم النساء فيها على مجرد المشاهدة. وما يربط بين كل هذه التفسيرات هو المفهوم الضمني بأن تستحق النساء إلى حد ما الوضع المتدني الذي هن عليه، وأجوراً متدنية لأعمالهن. وما لم تكن منتميات إلى أقلية صغيرة من النساء اللواتـي يتنـاغمن بـالأكثر مـع صـورة شخصية الذكـر ذات النمـط المتكـرر، فـإنهن يحـاولن الوصـول إلى مـا هـو أبعـد مـن متناولهن إذا ما تطلّعن إلى وظيفة تُبشـر بمستقبل وظيفـي عـال. ولقـد قيـل إن معظـم النساء تدركن هذا، وأنهن لا يتطلعن إلى أية ترقية.

وعلى النقيض من ذلك، فإن هناك التفسير الذى "يركـز علـى الوضـع القـائم"، حيث يؤكد على الدور الذي لعبته المنظمة كي تحافظ على تأخر النساء. وتجادل هـذه النظرية في أن ممارسات الترقية والتوظيف التي تجرى في ظل المفاضلة، وإبعاد النساء عن شبكات المعلومات غير الرسمية، والافتقار إلى المرشدين ونماذج أدوار الوظـائف العُليـا، والتحرش الجنسي الماكر أو المباشر، كانت من العوائق الخارجية التي وُضعت في طريـق النسـاء لتصعـب عمليـة ترقيتهـن وتجعلهـا بمجـرد جاذبيـة مشـكوك

فيها. فهل هناك طريقة يمكن بواسطتها اختبار هذه النظريـات المتنافسـة ؟ والواقـع، أنه توجد بالفعل، على أن يُصَاحب ذلك حجم كبير من الدراسات.

مفاهيم المنافسة : لا وظائف للسيدات

تتذكر من الفصول السابقة مـا أطلقنـا عليـه اسـتراتيجية بحـث "الطفـل س"، والذي يُبيِّن أن معظم الناس يتعاملون مع الطفل الذي يرتدي ملابس محايدة مـن أي من الجنسين طبقاً للقوالب التي في ذهنهم عن جنسه المفترض. ولاختبار وجود تميـيز ضد النساء في الوظائف المهنية والإدارية اخترع علمـاء النفـس مـا يمكـن أن نسـميه استراتيجية "المنتج س". ونهجه على النحو التالي : منتج معين، مثـل : رسـم، ورقـة عليها كتابة، طلب أحد الخريجين، أو الملخص الوظيفي لشخص، تم توزيعـه لتقييمـه (مثلاً : بين أصحاب عمل، أو محكمين على الأعمـال الفنيـة، أو المختصـين بقبـول الالتحاق بمدرسة الخريجين). وفي نصف الحالات قيل إن "المنتج" هو عمل رجل مـا ("جون ماك كاي")، وفي النصف الآخر قيل أن المُنتَج من عمل امرأة ("جوان مـاك كاي"). وقد وُزع نفس المُنتَج على عينة الحكام كلهم باسـتثناء وحيـد هـو حـذف هذا التصنيف المتعلّق بالجنس.

فهل حُكم نفس المنتج بشكل مختلف، اعتماداً علـى مـا اُعتقـد مـن أنـه يمثـل رجلاً أو امرأة ؟ الإجابة مع الأسف هي "نعم" مُدَوية. فنتائج ما يقرب مـن أربعـين دراسة، استخدمت منتجات مختلفة، ومقيمين مختلفين في أجـزء متباينـة مـن أمريكـا الشمالية، تُبيِّن أنه في معظم الحالات ساد الاعتقاد بـأن المنتَـج، الطلـب، أو التـاريخ الوظيفي كان لامرأة حين جاء الحكم بمزيد من السلبية بأكثر مما كان عليه الحال لو كان الاعتقاد بأنه لرجل. بل وما كان هذا التحيز ضد النساء قاصراً علـى المحكمـين الذكور، ففي بعض الدراسات كانت المحكمات من النساء وكان تقديرهن أيضاً أن المنتَج "النسائي" أقل قدراً من المنتَـج "الذكـري". ومـع ذلـك هنـاك بعـض العوامـل

المعتدلة. فعلى سبيل المثال، من المحتمل جداً أن يتحامل الناس على إنجازات النساء حين لا تتوافر لهم إلا معلومات أقل تفصيلاً عن طبيعة تلك الإنجازات. وفي مواقف كهذه يبدو أن المحكمين كانوا يعودون إلى العادة الأسهل والخاصة التي تصنع أدوار الذكورة والأنوثة في قوالب. ولكن إذا ما توافرت معلومات مُفصَّلة يستندون إليها - إذا قيل إن الرسم قد فاز بجائزة، أو إن المرأة المتقدمة عملت لدى شركة على صلة وثيقة بالمحكِّم - هنا يمكن ألا يُحكَم على المنتج على أساس وضعه الجنسي. وإضافة إلى ذلك، فإن أُناساً من كلا الجنسين ممن يتمسكون بأدوار نمطية متكررة، للذكورة والأنوثة أكثر تقليدية، يكونون ميالين بالأكثر إلى التحامل على المنتجات التي تُنسَب إلى المرأة. كذلك يميل المُحكِّمون الخبراء (على الأعمال الفنية مثلاً) إلى أن يكونوا أكثر تحيزاً من المحكمين غير الخبراء.

وفيما أن هذه كلها معلومات مفيدة للعالِم الاجتماعي، إلا أنها بالكاد تكون مريحة للنساء اللاتي تحاولن اقتحام الوظائف غير التقليدية. لأن في هذه المواقف عينها من المحتمل أن يكون إختبارهن على يد خبراء وليس عن طريق رؤساء، أو بواسطة أناس أكبر سناً يتمسكون بأدوار ذكورةوأنوثة نمطية أكثر تقليدية (ولا سيما في مجال الأعمال) وعلى أساس معلومات غير كاملة (بدون أية ملاحظات من مصدر مباشر عن الأداء الحقيقي). والواقع، أن بعض الدراسات قد بينت أن صاحب العمل يُفضِّل أن يستخدم رجلاً من الواضح أنه أقل كفاءة من أن يستخدم امرأة أكثر كفاءة لنفس الوظيفة.

وعلاوة على ذلك، هناك مجموعة أكبر من دراسات أخرى تُبيِّن أنه حتى حين تُظهِر النساء والرجال بكل جلاء قدراً متساوياً من الكفاءة في عمل ما، فإن المراقبين من كلا الجنسين يميلون إلى تخمين تفسيرات مختلفة لنجاحهم. وعادة ما يُرجعون نجاح الرجال إلى أنه وليد القدرة والمجهود، وإلى عوامل داخلية ثابتة توحي

بحسن الأداء بصفة مستمرة في المستقبل. أما نجاح النساء فيُفسَّر دائماً بأنه راجع إلى "الحظ" أو إلى "سهولة المهمة"، وهي عوامل غير قابلة للتنبؤ بها، ومن المؤكد أنها غير مضمونة. وحين يُطلب من الناس أن يخمنوا السبب في فشل امرأة أو رجل في مهمة ما، يبرز دائماً النموذج العكسي. يُنسب فشل الرجال إلى عوامل وقتية، مثل "كان يوماً سيئاً بالنسبة لهم"، أو أنهم أُعطوا مهمة ليس لها علاقة بأوصاف عملهم، في حين أن فشل النساء يُنسب إلى افتقار متأصل للقدرة أو الحافز، سمات من المحتمل أن تصاحبهن في أعمال مختلفة. والنساء ـ سواء نجحن أو رسبن في عمل ما ـ دائماً ما يُحكم عليهن بمعايير أقسى من تلك التي يُعامل لها الرجال.

ومن الطبيعي أن بعض النساء قد يُجاوبن على ذلك بالقول إن معظم النساء ليس لديهن أية ثقة في أنفسهن، وإن كان كذلك، لماذا يتوقعن من أصحاب الأعمال أن يشعروا خلاف ذلك ؟ غير أن الدراسات التي تقارن بين تفسيرات الرجال والنساء لنجاحهم أو فشلهم تُبيِّن في الواقع حداً أدنى من الاختلافات الجنسية. إن ما يعزوه إليهم الآخرون هو الذي يكشف عن هذه التناقضات. وكما في كثير من الجوانب التي فحصناها، فإن الاختلافات المتعلقة بالجنس نجدها في واقع الحياة أقل مما هي عليه في عين المشاهد. وليس معنى هذا أن العوامل المتمركزة في شخصية الإنسان ليس لها تأثير على الإطلاق في افتقار المرأة كفرد (أو الرجل) إلى قابلية التحرك اللازمة للعمل. ولكن عليك أن تتذكر المثال الذي ذكرناه عن المهندسات في نهاية الفصل الرابع. فقد أشرنا هناك إلى أنه ـ بحسابات رياضية دقيقة ـ حتى إذا كانت القدرة مرتبطة تماماً بنوعية الجنس، علينا مع ذلك توقع أن ثلث عدد المهندسين سيكون من النساء، مع أنه في الحقيقة نجد أن ٣٪ تقريباً فقط من النساء هن كذلك. وعلى غرار ذلك، فإن نتائج "المنتج س" ودراسات نسبة الأسباب إلى النتائج تشير إلى أن التفسيرات التي تركز على الموقع يرجع إليها السبب

الأكبر في ندرة السيدات في الوظائف المهنية والإدارية عنه بالنسبة للأسباب المتمركزة حول الشخص.

ودراسة نسبة الأسباب إلى النتائج والتي وصفتها للتو، محدودة من ناحية أن معظمها دراسات معملية، أُسِيء فبها عن عمد استغلال المعلومات المقدمة عن النجاح والفشل، وعمل المشاركون في أعمال مصطنعة. ودراسات "المنتج س" حددت بجلاء التحيز على أساس الجنس في القبول في الوظيفة والمدرسة، ولكن ليس في تقييم الوظيفة بعد أن يكون الشخص قد التحق بالعمل فعلاً. ومع ذلك، فنتائج كلتا النوعيتين من الدراسات تتفق مع كمية كبيرة من الكتابات التي تناولت تقييم الأداء الفعلي للمديرين التنفيذيين (من ذكور وإناث) بمعرفة نظرائهم ورؤسائهم، بل وبمعرفتهم هم أنفسهم.

عرفنا من فصل سابق أن الرجال والنساء يتناولون بعض نواحي مهامهم كآباء بشكل مختلف، وكثيراً ما قيل إن نفس الشيء ينطبق على الرجال والنساء الذين يشغلون وظائف الإدارة العليا. وهذه حجة يمكن استخدامها إما لإبعاد النساء عن مثل هذه الوظائف، على أساس أنه لا تتوافر فيهن متطلباتها، أو للسماح لهن بتوليها على أساس أنهن سيكمِلن أسلوب الرجال ويوجِدنَ توازناً في المؤسسة. غير أنه على الرغم من أن الحجة الأخيرة هي الآن حجة حديثة جداً، إلا أنها لم تلقَ التأييد من أي من الدراسات النظامية المتعلقة بالأسلوب التنفيذي، والتي تُبيِّن في الواقع أن المديرين التنفيذيين من رجال ونساء يختلفون بدرجة بسيطة من ناحية الشخصية، أو حاصل الذكاء، أو السلوك في مجموعات حل المشكلة. بل ولا تظهر التقديرات التي تتم بواسطة مساعديهم أو أقرانهم أو رؤسائهم أي فروقات بسبب الجنس في أساليب الإدارة التنفيذية. وبدلاً من ذلك تُظهِر أن المديرين التنفيذيين من كلا الجنسين يتشاركون في صفات هي من السمات ذات الأنماط المتكررة للذكور

والإناث. علـى سبيل المثـال، التعـاطف الوجدانـي العميـق، النواحـي الاجتماعيـة، اللباقة، واهتمام الشخص بصورته (ومن المفـترض أنهـا سمـات أنثويـة)، والسـيطرة، والعقلانية، وضبط النفس، والقدرة على التعامل مع المستويات العليـا مـن الضغـوط (من المفترض أنها سمات ذكورية).

لكن حين يتعلق الأمر بتقدم في العمل (بالتقابل مـع أسلوب الوظيفـة في أي مستوى من السُلّم الوظيفي) فإن المديرات التنفيذيات عليهـن أن يتعـاملن مـع عـدد أكبر من العوائق المفروضة. وحين تُسأل جماعة قوية "من داخـل شـركة" ـ أولئـك الذين بمقدورهم أن يصنعوا أو ينهوا عمل مساعديهم ـ عن العنـاصر الـتي لابـد مـن توافرها لتقدم المسئول التنفيذي، تراهم يُدرِجون متطلبات يجـب توافرهـا في النسـاء تكون عادة ضعف ما يطلبونه بالنسبة للرجال. فبالإضافة إلى ضرورة توافر المهارات التي تُطلب بصفة تقليدية من المسئولين التنفيذيين من الرجال، فإنـه علـى النسـاء إلى جانب ذلك أن تبدين "في أنوثـة مناسـبة"، ودونمـا تهديـد للذكـور. وإذا أخذنـا في الاعتبار الطبيعة التنافسية للعمل المشترك، فإن هذا يتطلب عملاً بارعاً لإيجاد التوازن المطلوب. والواقع أنه طبقاً لإحدى مجموعات الباحثين، فإنه على النساء التنفيذيـات التي تواجهن المشاكل أن تتوافر فيهن متطلبات متناقضة : تتحملن المخـاطر، ولكـن غير عنيدات، وتكن طموحات ولكن دون أن تنتظرن معاملـة متسـاوية، وتتحملـن المسئولية، مع اتباع نصيحة الآخرين.

والمسئولات التنفيذيات دائماً مـا يكُـنّ تحـت مراقبـة دقيقـة مـن قِبـل الإدارة العليا، ومن الزملاء من الذكور، ومن نسـاء مـن مسـتويات أدنـى، ومـن أقـاربهن، صيادي الرؤوس (الذين كثيراً ما يكونون ضد المساواة بين الجنسين ويتلهفـون علـى رؤية النساء وهم يفشلن في محل العمل)، ومن وسائل الإعلام وهكـذا. وكـل هـذا من شأنه أن يزيد الضغط علـى تقـدم العمـل. وكمـا نعـرف مـن دراسـات ميزانيـة

الوقت التي عرضنا لها في الفصل التامن، فالمديرة التنفيذية المتزوجة ليس من المحتمل أن تجد راحة في بيتها، لأن الزوج في العادة ما زال لا يتحمل إلا القليل جداً من مسئولية البيت ورعاية الأطفال حين تدخل زوجته مجال العمل لقاء أجر. وإذا أخذنا في الاعتبار كل هذه العقبات الخارجية المفروضة فرضاً، فلعلنا ندهش حين لا نجد عدداً أقل من النساء في الوظائف العليا. وهناك لوحة ظريفة عن المرأة تقول : "يجب على المرأة أن تكون في ضِعف كفاءة الرجل لمجرد أن تصل إلى هذا الحد. زمن حسن الطالع أن هذا ليس بالأمر الصعب". ويبدو أن الجزء الأول من هذا القول صادق إلى أقصى حد. أما الجزء الثاني ـ إذا ما أُخذ على أنه يشير إلى عوائق خارجية لا داخلية ـ نجده أبعد ما يكون عن الحقيقة. "فمجرد الوصول إلى هذا الحد" لا يزال يشكل معركة عسيرة وفي غاية الصعوبة بالنسبة لمعظم النساء.

نحو فكر لاهوتي للعمل فيما يتعلق بالذكر والأنثى :

هناك بالطبع مسيحيون، لا يبدون رد فعل إيجابي لهذا البحث السابق. فهم يعتقدون بأنه لكي تجد المرأة مكاناً في القوى العاملة لابد وأن تكون غير متزوجة. ومدى كفاءتها لا يُحدِث أي فرق. وفي جوهر هذا الصراع، سواء كان عن وعي أو لا وعي، نجد عادة فكراً لاهوتياً يفترض ثبات نمط معين من الأدوار الاجتماعية. ومثل هؤلاء الأشخاص يعتقدون مع لوتر وكالفن (والفلاسفة الإغريق) أن هناك "نظاماً للخليقة" ثابت لا يتغير وصفه الله للمجتمع ككل، وأن الخروج عنه ـ إلا في حالات الضرورة القصوى ـ يشكّل تمرداً ضد الله. وطبقاً لنمط هذا الاعتقاد، فإن عمل الإنسان في الوضع الذي كُلِف به، مهما كان عالياً أو وضيعاً إنما هو في الواقع دعوة إلهية مبجلة. غير أن الرغبة في تغيير أو توسيع مجال عمل الإنسان، ولاسيما إذا كان نتيجة اضطراب اجتماعي، أو حتى مجرد تغيير اجتماعي، يُنظَر إليه

في أفضل الحالات على أنه أنانيـة، وفي أسوأها علـى أنـه مضـاد للكتـاب المقـدس. وعلى كل من الرجال والنساء بكل بساطة "أن يزهروا حيث غرسوا".

وهكـذا فـإن الكنيسـة والبيـت والحيـاة السياسية عنـد لوثـر كـانت "نظمـاً للخليقة" متساوية، دُعي إليهـا المسيحيون للمشـاركة فيهـا، ولكـن ليـس الجميـع متساويين من ناحية الوصول لكل من هـذه الأنظمـة. ويـأخذ لوثـر الأمـر كقضيـة مُسلّم بها وهو أنه ليس للأمراء أن يتحملوا إطلاقاً ثورة الفلاحـين وضيعـي الأصـل (بغض النظر عن قوانينهم وضرائبهـم المرهقـة). وكـان يُسـلّم بأنـه يجـب ألا تتـولى النساء أية وظائف سياسـية أو كنسـية، بـل عليهـن أن يدركـن أن دعوتهـن الإلهيـة تُلزِمهن، في الغالب بالمكوث في البيت. وعلى غرار ذلك نجد أن كالفن، على الرغم من أنه بدا كما لو أنه لم يعارض سيامة النساء على أسس لاهوتية إلا أنه من المؤكد أنه كان يعارض ذلك على أسس اجتماعية: فالانشقاق الاجتماعي أمر يتعارض مـع هـدف الخليقـة. وعلـى ذلـك، فـإن العـداوة والانقسـام اللذيـن مـن المؤكـد أنهمـا سيصاحبان دخول المرأة إلى وظائف الكنيسة يجب تجنبهما.

والآن تراني مؤيدة تماماً لفكر لاهوتـي قـوي بالنسـبة للخليقـة، والحقيقـة أن فكري الخاص بي والذي يرمي إلى تأسيس علم لاهوت يعيد صياغة الخليقـة داخلنـا هو الذي دفعني إلى الرغبة في تفسير المقصود بعبارة : "خُلِق على صـورة الله"، ومـا الذي يعنيه أن تكون إنساناً ذا جنس معين (ذكراً أو أنثـى). علـى أنـي أجـادل مـن أجل التغيير وبكل دقة على أساس الفكـر اللاهوتـي الكـامن وراء الخليقـة. لأنـه إذا كان كل من الرجال والنساء قد خُلِقـوا مـن أجـل النشـاط الاجتمـاعي والسـلطان المسئول، فإن أي فكر لاهوتي، كما هو الحال، يدافع عن انفصال، مُبالَغ فيـه، بـين مجالات الذكر والأنثـى، وأن "التفويـض المنزلي" قـاصر بكـل فعاليـة علـى النسـاء، "والتفويض الثقافي" قاصر على الرجال، وهذا لا يشكل فكراً لاهوتياً كافياً بالنسـبة

للخليقة على الإطلاق. إنه بالأحرى تكيُّف مع تلك القوى الاجتماعية التي بكل إهمال مزقت الوحدة العضوية للبيوت والمجتمعات وحولتنا إلى مجتمع من العمال المأجورين (في معظمه من الرجال) وربات البيوت منعزلة (من النساء).

بديل بعد الثورة الصناعية :

من بين نتائج فصل مجالات الذكور والإناث، استغلال النساء بشكل مبَالغ فيه في البيوت وكذلك الأطفال، واستغلال الرجال بشكل مفرط في أماكن العمل. وأحد الطرق التي نواجه بها هذا الوضع، الأمر الذي لُمح إليه في الصفحات السابقة، هو أن ننقل النساء إلى مجالات العمل بأجر، وبطريقة تتيح لهن نفس الفرصة المتاحة للرجال. ولكن هل يجب على مجال العمل العام لكسب الأجر أن يظل دائماً منفصلاً من الناحية الجغرافية عن المجال المنزلي الخاص ؟ وهذه صفقة فاوستية (نسبة إلى فاوست) مع الثورة الصناعية التي بدأنا ندرك ثمنها الكامل. فقد بادلنا مسوى عال من الحياة المادية المتقدمة نظير علاقات هشة وعاطفية زاخرة بالمشاكل بين الجنسين والأجيال. وكما أقمنا اقتصاداً صناعياً حول نموذج الأب الذي يرحل سعياً وراء الرزق، ضاعفنا أيضاً من مشاكلنا البيئية : عدد أكبر من العربات، ونسخ أكثر من اللازم من الأماكن التي نقوم بتدفئتها والأخرى التي نقوم بتبريدها، ونركز تركيزاً أكثر من اللازم على استخدام الطاقة أثناء أيام العمل من التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساءً يومياً.

ولمواجهة هذا، نجد الآن ميلاً كبيراً للعودة ثانية إلى العمل المنزلي لقاء أجر بالنسبة لكل من الرجال والنساء. وطبقاً لمكتب إحصائيات العمل التابع للولايات المتحدة، هناك ما يقرب من ١٨ مليوناً من البالغين يؤدون أعمالهم التي يحصلون عنها على أجور في بيوتهم، وخلال سنوات قليلة ستكون ١٥٪ أو ٢٠٪ من مجموع القوى العاملة من هؤلاء الذين يعملون في بيوتهم، ويرجع هذا النظام في

غالبيته إلى التطوير الذي حدث في تكنولوجية الكمبيوتر وأجهزة الفاكس. ولتسهيل هذا الاتجاه، بدأت الدولة والحكومات المحلية في إلغاء الحظر على العمل الذي يتخذ من المنزل قاعدة له، ويجري التفكير في تخفيض الضرائب على الأجهزة الخاصة بأماكن العمل والتي تتضاعف كمساكن، وكذلك للذين تعولهم الحكومة حيث يلزمون البيت، ولاسيما الأطفال في سن ما قبل المدرسة وللمسنين. وكل هذه الميزات تنعكس كبديل مسيحي للفصل بين العمل والحياة المنزلية، ولاسيما بالنسبة للرجال. وكان أمراً مُسَلَّماً به في الماضي أن الشابات المسيحيات تفضلن العمل المدفوع الأجر الذي يكمل الحياة العائلية. ولم نطلب نفس الشيء من الرجال، ولكننا بكل بساطة افترضنا أن غياب الأب عن البيت هو الطريق الوحيد لدعم العائلة مادياً.

وبالطبع فإنه بالنسبة للأكاديميين مثل زوجي ومثلي، فإن الكتابة وتجهيز المادة الدراسية في البيت كانت طريقة واضحة للمشاركة في مسئولية البيت ـ وهذا، كما هو معترف به، ليس من الأمور المتاحة لكل شخص. وإذا حاولنا بوعي أن نساوي بين كسب الأجر ومسئوليات البيت بيننا، فلربما لم نكن نحصل على قدر من المال والمكانة اللذين توفرا لنا، لو كنا قد قررنا أن واحداً منا فقط هو الذي عليه أن "يذهب بحثاً عن الذهب". لكننا قنعنا بأن ولدينا قد كبرا في ظل تنشئة اشترك فيها الأب والأم، وأن عبء تدبير الاحتياجات المادية لم تتركز على فرد واحد من العائلة، وأن كلاً منا يستجيب لدعوة الله بأن يكون من المفكرين المسيحيين ومن الوالدين المسيحيين أيضاً. وفي مجال العمل هناك أيضاً مساحة كبيرة للحرية المسيحية. وإذا استطعنا الاتفاق من حيث المبدأ على أن مجالات النساء والرجال تحتاج بدرجة كبيرة إلى إلغاء الفصل بينهما، ستكون هناك إذاً أكثر من طريق لتحقيق التقدم في هذه الناحية.

الفصل الحادي عشر:

القيم الجنسية في عالم دنيوي

هل كتبتِهِ، أقصد الفصل الذي يتحدث عن العُزَّاب والأفراد المشتغلين بالمتعة الجنسية ـ تلك "الأقليات غير المرئية" في الكنيسة ؟ بالكاد انقضى شهر في السنة الماضية لم أتلقَ فيه هذا السؤال، عن طريق التليفون أو بواسطة البريد، من صديقة لديها مبرر قوي لاختبار ما أنوصل إليه من نتائج حول هذه الموضوعات. كانت هي مسيحية غير متزوجة، ومن فتيات اللهو، لكن منذ أن إرتدت عن الإيمان في الخمسينيات، أصبحت مصابة بشذوذ جنسي، وكانت تقوم بخدمة عامة وبهدوء لأقرانها من أفراد اللهو. ثم إنها كانت كاتبة زميلة، وهكذا تابعت تقدمي في كتابة هذا الكتاب منذ أن كان مجرد مخطط لدى الناشر. وقد خططت لأخصص هذا الفصل بكل وضوح للموضوعات المتعلقة بالعزوبية وممارسات الجنس المتعلقة بذات النوع "شذوذ جنسي"، وهي من الموضوعات التي لم توليها الكنيسة أي اهتمام، أو ربما اهتماماً كبيراً على أنها النوعية الخطأ. ولكن كلما زدت من قراءاتي وتفكيري في هذه الموضوعات، ازددت اقتناعاً، أن الأمر يحتاج إلى شي آخر، شيء أكثر أهمية.

قال لي أحد الزملاء من المستشارين النفسيين : إن معظم المسيحيين يفتقرون إلى شجاعة الحديث صراحة عن حالتهم الجنسية، وحتى أولئك الذين لديهم

الصراحة يفتقرون إلى المفردات اللُغوية التي يستعملونها، "فالتكوين الجنسي" يقصد منه أكثر من الوظائف البيولوجية التي سبق أن ناقشتها في أجزاء أخرى من هذا الكتاب. أكثر من مجرد بيولوجية الجنس التي يعرفها معظمنا الآن وعلى نحو جيد. فمعظمنا يعرف أين عنق الرحم (أو غدة البروستات، أو المبيضين) ويمكنه التحدث عن هذه الأمور في سياق طبي أو صحي دون حرج كبير. وما قصده زميلي بالنشاط الجنسي (وما أقصده بها في هذا الفصل) هو تلك المشاعر والأفكار والسلوكيات التي تُشكِّل الجاذبية الجنسية أو الإثارة الجنسية في كل منا، منذ أول نشاطها وحتى انصرافها الأخير.

من الكبت إلى الاستحواذ :

يحتاج مجتمعنا الحالي إلى إطار أخلاقي وسيكولوجي يضع فيه المشاعر والأفكار والسلوكيات الجنسية. وفي غضون عقود قليلة انتقلنا من وضع رسمي للكبت الجنسي إلى وضع التعددية والتحرر، وبالكاد لم نعطِ أنفسنا وقتاً لالتقاط الأنفاس بين الوضعين. وقد افتُرض أن هذا تغيير للأفضل. ومثل حقنا الدستوري في حرية التعبير عن الرأي، فإن حرية موافقة البالغين على أن يفعلوا ما يريدون جنسياً يتزايد قبولها كأمر مُسلَّم به. والمذاق في الجنس، مثل المذاق في الطعام نُظر إليه كموضوع خاص تم عزله عن سلطان الأخلاق العامة. وبحسب كلمات رئيس دولة غربية (أشيع أنه هو نفسه مُخنَّث) : "الدولة لا شأن لها بما يحدث في غرف نوم الأمة". وعلى هذا الأساس، فإن الأخلاقيات المسيحية الخاصة باشتهاء الجنس الآخر والزواج الأحادي وحالة العزوبة والتفرد هي في أفضل حالاتها أشياء في غير زمانها الصحيح، وفي أسوأ الحالات إنما هي قضية مجموعة واحدة تريد أن تفرض أخلاقياتها الخاصة الاستبدادية على كل شخص آخر.

وإني أوافق على أن تنظيم الحكومة للأخلاقيات الجنسية للبالغين أمر غير مناسب إلى حد كبير، ويكفي أنها لم تنجح في ذلك (أو، عوضاً عن ذلك، تَطلَّب نجاحها كبت كثير من الحريات الأخرى).

يجب على المسيحيين أن يُواجهوا النشاط الجنسي مثل : نوع الجنس، أدوار الذكورة والأنونة، في إطار ما تُحدده قصة الكتاب المقدس، لكن لابد أن يكون هدفهم الأساسي هو بذل قصارى جهدهم لتطبيق النتائج تمشياً مع سلوكهم. وليس من بين هذا ما يضمن قبولاً بين غير المسيحيين، لكنها قد تساعد المسيحيين على الوصول إلى فهم أفضل والتعامل مع التوترات القائمة بين ما هو متعلق بالخليقة، والسقوط والفداء، وذلك في إطار الفاعلية الجنسية، مع ذلك، ولأن قصة الكتاب المقدس هي قصة تُعد أساساً لنا يُنظِّم تصرفات الجنس البشري (سواء اعترفوا بذلك أم لا) إلا أنه إذا أحدثنا معالجة طفيفة لهذه التفاعلات الجنسية في إطار رؤية عالمية قد تجد استجابة حتى مع غير المسيحيين، وقد تحدث تلك الاستجابة كذلك مع القُرَّاء الذين وجدوا في الثورة الجنسية مرارة لأسباب لم يفهموها وإن كانوا يريدون فهمها.

ولسوف أبدأ الفصل بتحليل كتابي للناحية الجنسية. وبعد ذلك سأتوسع في ذلك مع بعض الاعتبارات النفسية، ولسوف أستغل المفاهيم التي قدمتها في الفصول السابقة. ومثل هذه المعالجة ـ لموضوع يستحق في حد ذاته عدة كتب ـ لابد وأن تكون تمهيدية وغير كاملة، غير أنه بالكاد يستطيع أحد أن ينهي كتاباً عن الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة دون أن يحاول على الأقل أن يعرض للموضوعات المُتعلقة بالشعور والنشاط والتوجه الجنسي. وما ستفتقر إليه معالجتي لهذا الموضوع ستُثريه المراجع التي سنشير إليها.

الجنس وقصة الكتاب المقدس :

مسز ستانلي بولدوين Stanley Baldwin - هي زوجة أحد رؤساء الوزراء بعد العصر الفكتوري - طلبت من بناتها أن تغلقن أعينهن وتفكرن في انجلترا كأفضل طريقة لتحمّل عملية الاتصال الجنسي. وطبقاً لأخلاقيات الطبقة الوسطى في ذلك الحين، فإن الرغبة في الاتصال الجنسي كانت تُعد أمراً حسناً، تفتقر إليه السيدات التقيات. وقد كان ذلك جزءاً من سقوط طبيعة الذكر، وإنه لمما يُؤسَف له، يُعدّ السبيل الوحيد لإنجاب الأطفال. وبحسب هذه المعايير، فإن أكثر النساء حظاً هن اللواتي لم يكن أزواجهن يلحون عليهن كثيراً. والواقع، أنه في بعض بيوت الطبقة المتوسطة والأرستقراطية كان أمراً مقبولاً أن يكون هناك معيار مزدوج للسلوك الجنسي. وكان بوسع الرجال أن يذهبوا لنساء مُن طبقات أدنى للاتصال بهن جنسياً بطريقة روتينية، ليقللوا من معاشرة زوجاتهم - ولعلهم لم يكونوا يعاشرونهن جنسياً إلا من أجل أن يلدن لهم ورثة شرعيين. وفي ذات الوقت تظل السيدات الحقيقيات أمينات لأزواجهن، سواء لطبيعة تربيتهن أو لقناعتهن الأخلاقية.

وليس ما يدعو إلى الدهشة أنه في جو كهذا، كانت الموضوعات الإيجابية التي يتحدث عنها الكتاب المقدس والمتعلقة بالجنس، تلقى التجاهل أو يُعاد تفسيرها. والواقع أن القول بأن العاطفة الجنسية قد جاءت نتيجة السقوط وليس في عملية الخلق تعود على الأقل إلى أغسطينوس، الذي رفض نفس الفكرة القائلة بأنه ربما كانت هناك "إثارة غير منتظمة" في جنة عدن. وسفر نشيد الأنشاد، والذي يعتبره كل شخص كتاباً جنسياً، كان معظم اللاهوتيين ينظرون إليه كتشبيه مجازي لمحبة المسيح الروحية لكنيسته، وليس احتفالاً بشهوة جمعت حبيبين، أيدهما الله. ويمكن بالطبع أن تنطبق هاتان الناحيتان على هذا السفر : فالتشبيهات المجازية بالتودد والزواج كثيراً ما استُعملت لتشبيه علاقة الله بشعبه. بيد أنه حتى لو كان

الأمر كذلك، فإن الأمور تبقى على ما رمزت إليه بعد أن أُضيفت القيمة الرمزية. وبحسب كلمات رودني كلاب :

" المحبة الجسدية قد ترمز إلى المحبة الروحية، مثلما يمكن أن يرمز العكاز الخشبي إلى الاتكال على الله. إلا أنه يجب في الواقع أن يسند أولاً ثقل الشخص المقعد حين يستند إليه". وهكذا أيضاً كثيراً ما ترمز لغة الحب الجنسي في الكتاب المقدس إلى محبة الله القوية لإسرائيل. بيد أنها لن تُستخدم بمثل هذه الطريقة الإيجابية ما لم تكن المحبة الجنسية أساساً جزءاً من خليقة الله الصالحة.

النواحي الجنسية والخليقة :

يقترح المفكر اللاهوتي لويس سميدس Lewis Smedes ثلاثة أسباب توجب علينا أن ننظر إلى النواحي الجنسية أولاً وقبل كل شيء كأمر صالح خلقه الله. السبب الأول يتعلق بقصد الله من أنه خلقنا أشخاصاً ذوي أجساد. ويشير سميدس إلى أنه في قصة الخلق : "لم يُصور الله وهو يخلق نفساً تم يلفها بجسد. والنفس لا تقود الجسد كما تشاء مثلما يقود أحد سيارة".والقصة الكتابية لا تتناول خلق نفس يتقلها عبء الجسد : إنها تتحدث "**عن جسد يجيء حياً إلى الله**". فنحن البشر جزء وثيق من خليقة مادية وعضوية، أعلن الله عنها كلها بأن ذلك "حسن" على النحو الذي خلقها عليه. ومعظمنا لا يجد مشقة في قبول فرح تناول الطعام كجزء من خطة الله في الخليقة ـ ونحن نُسلّم بأن علاقتنا بالطعام قد تصبح مشوهة، إدمانية، ومحوطة بالخوف. غير أن القليلين منا يوافقون على أن الروحانيين في العصور الوسطى الذين كانوا في الواقع يعملون على أن يتضوروا جوعاً، كانوا بهذا يقتربون من حالة ما قبل السقوط التي أرادها الله لهم. ونظامهم الأساسي ربما حقق شيئاً لملكوت الله.

السبب الثاني الذي يجعلنا ننظر إلى الناحية الجنسية كأمر طيب في الخليقة يرجع إلى السمة الاجتماعية التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من صورة الله فينا. وكما أن السمة الاجتماعية هي من سمات الله الجوهرية، هكذا أيضاً المخلوقات التي خُلقت على صورة الله. وليس بمقدورنا أن نصبح أو نظل بشراً كاملين من تلقاء أنفسنا، فنحن نحتاج إلى الآخرين في جميع مراحل حياتنا. فحتى نساك القرون الوسطى كانوا يتحدَّثون مع بعضهم البعض في صلواتهم (هم أصلاً نشأوا في جماعات). ولكن هناك المزيد وراء العبارة الموحية بالتناقضات الواردة في تكوين ١: ٢٧ "فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم".

جنس بشري واحد، صورة متحدة لله، ولكن جسدين متميزان من الناحية الجنسية، ولكن الأمر لا يقتصر على أن البشر يحتاجون إلى أناس آخرين بصفة عامة فحسب، بل يحتاجون إلى شعور بأن يكمل كل منهما الآخر الأنثى / الذكر ليكونوا كاملين وليمثلوا صورة الله بشكل تام. واعتقد المفكر اللاهوتي كارل بارت أن هذه التكاملية الجنسية كانت صورة الله الكاملة في البشر. ولعل هذا إفراط في التبسيط. وذكوريتنا / أنوثتنا مرتبطة بسلطان مسئول، وميل اجتماعي متزايد، والثلاثة معاً يشكلون موضوعات لصورة الله في الكتاب المقدس. ولكن اعتقاد بارت، والذي جاء عقب الكبت الجنسي، في العصر الفكتوري، من المؤكد أنه كان تصحيحاً. كان الأمر يتطلب ـ وبحسب كلمات سميدس : "ليس لحثنا على أن نأخذ هذه العبارة البسيطة (تك١: ٢٧) بجدية فقط، بل لتدفعنا لإعادة فحص مشاعرنا بالنسبة لمكانة الجوانب الجنسية في حياتنا".

ويواصل سميدس كلامه قائلاً : "الكيان الجنسي كجزء من صورة الله، هو الباعث الإنساني نحو شركة وثيقة". أكثر من مجرد التهاب جسدي يتطلب الاحتكاك، بل إنها تحثنا على أن نختبر الآخر، وأن نثق فيه، وأن نكون موضع ثقة

(ذلك الشخص الآخر)، وأن ندخل حياة الآخر، بدخولنا العناق الحيوي لجسده أو جسدها. وهذا الحث نحو ثقة متبادلة وكشف النفس أمر موجود أيضاً في الصداقات والعلاقات العائلية في أفضل حالاتها. ولكن مع الحث على الاتصال الجنسي، يأتي البعد المضاف والخاص بالعاطفة، والنشوة، والتخلي عن الكبت. وهكذا فإن قوة العلاقة الجنسية كانت في السابق تتضمن أقسى درجة من المخاطرة (إذا ما ساءت الأمور) وأقصى وعد بالشركة (إذا ما سارت الأمور على نحو حسن).

وهذا يأتي بنا إلى السبب الأخير للنظر إلى الناحية الجنسية كأمر إيجابي حَسَن في الخليقة، وأعني مكانه في إطار الزواج. ومن الواضح أن الاتصال الجنسي ليس كل ما يعنيه الزواج. بل ولا يضطر الناس إلى الزواج لكي يختبروا التكامل الجنسي الطيب. والواقع، أن طلبات الزواج يوماً بعد الآخر تُشكل المخاطرة بفقدان الإثارة الجنسية، التي تصبح أحياناً أسهل بالنسبة للأزواج أن يشعروا بتلك الإثارة تجاه أناس لم يسبق لهم إطلاقاً أن ناموا معهم (تذكر الأغنية القديمة "شيكاغو، مدينتي المفضلة ؟" في هذه المدينة التي تُعد من أغرب المدن، يكتب صاحب الأغنية : رأيت رجلاً يرقص مع زوجته !). ومع ذلك، فالزواج لا يُعد زواجاً دون الرغبة في الاتصال الجنسي. وكما قال سي. إس. لويس ذات مرة : الجاذبية الجنسية هي الشرارة التي لابد منها والتي تجعل آلة الزواج تدور، حتى إذا كان حباً هادئاً ثابتاً من أجل المحبة التي تغذيه على المدى الطويل فحسب. ويقر المفكرون اللاهوتيون الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء أن النشاط الجنسي ليس مجرد "مكافأة" الله فحسب للمتزوجين من أجل الألم وعدم الراحة الناجمين عن وجود أطفال، وإذ يتحدث سميدس Smedes من فكر لاهوتي قوي للخليقة فقد وضع الأمر على هذا النحو : أن نجعل عملية التناسل جوهر العملية الجنسية وهدفها الرئيسي يُعد إقلالاً من شأن

خليقة الله. بيد أن الرابطة بين الاتحاد الجنسي والحياة يُبين كيف أن عمل الجنس متأصل في البشرية (فالجنس والإنجاب) هما أفضل خليط يمكن تصوره، ولكن ليس معنى ذلك أن الجنس هو الأداة الوحيدة للإنجاب، وأنه ليس هبة في حد ذاته.

الانقسام في السقوط :

ومعالجتنا للناحية الجنسية لا يمكن بالطبع أن تحتكم إلى الأعمال الأولى والأخيرة فقط من القصة الكتابية. وعلى الرغم من صلاح الخليقة، وعلى الرغم من حقائق الفداء ويوم الخمسين، ووعودهما من أن كل شيء سيصبح جديداً، فلا زلنا نقاوم، مع إرث السقوط، في نواحينا الجنسية كما هو الحال في أي ناحية أخرى من حياتنا. وفي فهمنا لهذه الكفاحات يمكن أن نجد العون في الاعتبارات السيكولوجية كما في الكتابية أيضاً.

ولقد اشرت في الفصل التاسع إلى قائمة الكتاب المقدس الفظة بالمساوىء الجنسية، والتي شملت حتى شعب الله نفسه. وهذه المساوىء ــ بدءاً من قصص الاغتصاب وارتكاب المحارم في إسرائيل إلى الزنا والجنسية المثلية في كورنثوس ــ كانت مناقضة لنظام الله في الخليقة، ومن ثَم وقعت تحت طائلة العقاب. ولكن كان الأمر هكذا بالنسبة لخطايا مثل الإشاعات الكاذبة، الشراهة، السكر، الطمع، السرقة والزنا (انظر على سبيل المثال ١كو٦). إننا نحن البشر الذين نحاول أن نعطي درجات للخطايا طبقاً لترتيبنا للنواحي العاطفية مستخفين بالخطايا التي نميل نحن إليها، ونتشدد على تلك التي لا نستطيع إطلاقاً أن نتخيل أننا نرتكبها. ولكن الله لن يأخذ بشيء من ترتيباتنا هذه. فلا يجب تشبيه الخطية بالحبر في ماء صاف، حيث يستبعد الله من الدينونة كل الذين لم يضيفوا إلا قطرات من "الأصناف الأفضل". وفكرة الله عن الخطية تُشبَّه على وجه أكثر دقة بشخص فاته الأتوبيس أو القطار، سواء فاتني بدقيقة أو بست ساعات، فإنه في الحالتين قد فاتني. إنه تفكير مبني على

النمني لا الواقع، افتراض بأنه نظراً لأنــه فـاتني بوقـت أقـل، أو فيمـا يبـدو لأسباب أفضل من أسباب جاري، فإني لهذا سـألقى تـأكيداً بـأني سـأصل إلى غـايتي. وإنـه بنعمة الله في المسيح فقط سيصل أي منا إلى بيت الحريـة. وهـذا هـو السبب في أن كل برنا، بحسب كلمات إشعياء لا يزيد عن "ثوب عدة" (إش٦٤: ٦).

وهذا أيضاً هو السبب في أننا حين نقابل أشخاصاً بأي شكل غير عادي مـن صور الدافع الجنسي الذي لا يقاوم، فمن الأفضل لنا أن نأخذ نفساً عميقاً ونقول : لولا نعمة الله لكنت أنا هكذا. ولكن هذا ليس معنـاه أن السـلوك الجنسـي لهـؤلاء الناس يجب أن يُنظر إليه كله على أنه شرعي وأنه محايد من الناحيـة الأخلاقيـة. بـل ولا أقصد بأي حال بأن أهوِّن من الأذى الهائل الذي لحق بضحايا الضلال الجنســي من الآخرين، ولا سيما أن معظم هؤلاء الضحايا من النساء والأطفال. ولكـن هـذا يعني بالفعل أننا في حاجة إلى التفريق بين اتجاه رغبـات الشـخص الجنسـية، والتعبـير الإجباري عن هذه الرغبات. وهذا معناه أننا في حاجة إلى أن نفهم كيف أن عمليـة الحصول على هوية جنسية عادية وذخيرة من الرغبات الجنسية إنما هي عملية معقدة ومن السهل تمزيقها. وأخيراً، فهذا يعني أننا في حاجة إلى أن نتوب أفراداً وجماعـات عـن أن نستبعد، ليـس فقـط مـن الشـركة المسيحية، بـل وعـن عضويـة البشـرية، الأشخاص الذين يتعاملون بنجاح مع المعارك الجنسـية الكـبرى. لأننـا بعملنـا هـذا، ننتهك ثاني الوصيتين العظميين، والتي تطلب منا أن نحب قريبنا كأنفسنا.

ومثل هذه التوبة والمحبة لا تأتيان بسهولة. فمسيحيون كثيرون يعتبرونــه أمـراً رومانسياً ونبيلاً أن نمد يد العون لبعـض نوعيـات "الخطـاة الضـالين"، ولكـن بكـل تأكيد ليس لآخرين. والصديقة التي ذكرتها في بداية هذا الفصل بدأت رحلتها نحـو الله ليس كامرأة لديها شذوذ جنسي فقط، بل وكمدمنة خمـر. وكلمـا جـاءت إلى مكتب عملها وعليها العلامات البغيضة التي تخلفها رائحة الخمر، فإذ كانت إحـدى

زميلات العمل المسيحيات تواقة لأن تظهر القبول والمحبة كجزء من شهادتها، كانت تسرع إلى مساعدتها في موازنة حساباتها. ولكن عندما تكتشف نفس الزميلة عن طريق طرف ثالث أنها كانت تتعامل ليس فقط مع شخصية مدمنة للخمر، بل وشاذة جنسياً أيضاً، تُسحب منها كل مساعدة على نحو من السرعة. ومثل هذه العزلة، مع حكمها الخفي بأن الشخص لا يزيد عن كونه مقيداً بدوافعه الجنسية، يدفع الفرد بكل بساطة، وبشكل أعمق "إلى العزلة". وأخيراً، في يأس ووحدة ربما نجد أن نفس هذا الشخص قد انضم إلى إحدى الجماعات الأخرى.

الجنس كمعبود :

كيف انتهى بنا الأمر إلى أن نتصرف على هذا النحو ـ نعامل بعض الخطايا على أنها تستحق الشفقة، ونعامل الأخرى (ولاسيما الجنسية منها) على أنها في متناول رحمة الله أو رحمتنا ؟ أعتقد أن هذا مرجعه الأسلوب الذي تعلمنا أن نتعامل به مع النواحي الجنسية في ثقافتنا الغربية. ومعظمنا تعلّم أن ينظر إلى الجنس في واحدة فقط من طريقتين : لقد عاملناه إما كمعبود إيجابي أو سلبي.

لي صديق من المفكرين اللاهوتيين، يقترح عليّ بين آونة وأخرى أنه يجب علينا أن نفهم الخطية الأساسية بالأكثر في ضوء الوثنية لا الكبرياء. ومن بين أسباب قوله هذا أن الزوجين الأولين من البشر حاولا أن يضعا نفسيهما مكان الله كمصدر مرادهما ومقياس الخير والشر. غير أنه يشير أيضاً إلى أن البشر لا يعبدون دائماً أنفسهم حين يرفضون سيادة الله. وكثيرون، عوض ذلك يركزون على جزء آخر من الخليقة، ولديهم قناعة في أن هذا ما سوف يخلصهم ويضفي على حياتهم معنى. فهذه الأمور المؤلّهة الزائفة والتي إذا وضعت في مكانها الصحيح قد يكون انعكاساً قيماً لنظام خليقة الله، وقد يكون من عمل أيديهم، أو حركة اجتماعية أو فنية أو سياسية، وقد يكون شخصاً آخر، أو اشتهاء لشيء، أو نظاماً لاهوتياً، أو

أسطورة عنصرية أو قومية، والقائمة لا نهاية لهـا. وفضـلاً عـن ذلـك، فالمسـيحيون الملتزمون ليسوا استثناء من أن يكونوا من الناحيـة العمليـة وثنيـين بالنسـبة لأي مـن هذه الأشياء التي ذكرت. فقد أعلن بكلامي أن الله هو مركـز حيـاتي، ولكـن مـع ذلك لا زلت مأخوذاً بوثن ما في خيالاتي أوسلوكي.

والناحية الجنسية ذاتها، إذا أُقتطِعـت مـن نطاقهـا الأكـبر بعيـداً عـن مغزاهـا الإنساني والإلهي، تصبح وثناً تقع ثقافتنا في إغراء عبادته. وقد كتب لويس سميـدس في كتابه "الجنس عند المسيحيين" يقول : من السهل أن تعمل وثناً، ما عليك سوى أن تقطع شريحة من حقيقة مخلوقة، بعيداً عـن الكـل وتتوقـع منهـا المعجـزات. وقـد واصل كلامه قائلاً: لقد صنعنا وثناً فعلياً من الناحية الجنسية، بـأن عزلنـا أولاً أحـد أبعادها ـ الأعضاء التناسلية ـ ثم توقعنا منها كل شـيء نحتـاج إليـه لنكـون سـعداء. وثمة وهم كـاذب وهـو أننـا إذا وجدنـا أن الشـريك الجنسـي الوحيـد قـد خُلِـق في السماء مـن أجلنـا، فـإن اختبارنـا التناسـلي يـأتي لنـا بالسـماء على الأرض. ومـن الطبيعي أن هذا يضع عبئاً على الأعضاء الجنسية لا يمكـن لشـيء أن يتحملـه حتـى أكثر هزات التهيج الجنسـي نشـوة في التـاريخ. كيـف لـك أن تتـأكد أن شـريكك يعطيك كل شيء أنت بالفعل في حاجة إليـه، أو تريـده ؟ أو كيـف لـك أن تكـون متأكداً بأنك تحقق لشريكك (أو شريكتك) توقعاته العظيمة ؟ إن القول الكتابي في عبث الاتكال على الأصنام يُعد تحذيراً مناسباً لأوهام الجنس.

ويشير سميدس إلى أن مشكلة الأوثان، هي أنها ستخذلنا إن آجلاً أم عـاجلاً. لأن الله وحده هو الذي بمقدوره أن يُشبع تطلعنا إلى القصد الأساسـي، وأي شـيء آخر، مهما كان إيجابياً ويمكن استرداده، ما هو إلا خـير نسـبي بمقارنتـه بـه. وحـين نرفع جزءاً من الخليقة ـ خير نسبي، مثل الناحية الجنسية ـ إلى وضـع الكمـال، فمـن المؤكد أن الشيطان هو الذي سيضحك أخيراً. فهو مثل مروج مخدرات ماهر، تـراه

يداوم تغيير عتباتنا إلى أعلى، حتى نحتاج بشكل متصاعد (وكثيراً ما يكون بشكل شاذ) إلى مزيد من الإثارة حتى يعطينا راحة ولو عابرة. وهذه الحقيقة تشكل تحذيراً قوياً للذين وضعوا هاجساً مستبداً جنسياً في مركز حياتهم، سواء كان اشتهاء للمغاير أو اشتهاء للمتل، بالغاً أو طفلاً، محفوظاً في عزلة أو يُتفاخر به علانية. وليس هذا تحذيراً فقط عن المخاطرة الكبيرة المتمثلة في استغلال الآخرين في الوقت الذي يستهدف فيه تحقيق المآرب الشخصية، ولو أن هذا أيضاً أمر بالغ الأهمية. إنه تحذير على أن هذه الدوافع، أياً كانت الطريقة التي جاءت بها، فإنها قد تسد، وبطريقة خطيرة، طريقنا إلى الإله الحي ـ ليس لأنها أسوأ من خطايا أخرى في نظر الله، بل لأنها ـ مثل سائر الأوثان ـ تَعِد بسلام لا تستطيع في النهاية تحقيقه.

ولكن مشاكل الوثنية الجنسية لا تنتهي عند تقديم العبادة علانية عند هيكل إيروس إله الحب. وكما نعرف من الفضائح الحديثة المتعلقة ببعض الوعاظ الأمريكان، فإن بعض الشخصيات الذين أدانوا هذه الوثنية الجنسية كانوا وعاظاً أُمسكوا في وقت لاحق وهم يرتكبون نفس الأعمال التي لا يكفون عن شجبها. ومن بين الأسباب التي يسوقها خبراء علم النفس : آلية الدفاع التي تتولد كرد فعل. فالذهن يميل إلى تحويل البواعث غير المقبولة إلى عكسها، وذلك كما يحدث عندما تتملك الواعظ حالة الافتتان بالصور الخليعة، فتراه يقوم بحملة ضدها. كما أنهم يتهمون آلية الدفاع بالإسقاط، حيث يحاول الذهن أن ينكر بعض البواعث غير المقبولة في النفس وذلك بإلصاقها إلى أناس آخرين، وفي كثير من الحالات لا يكون الأمر صحيحاً بالمرة.

ومن الواضح الآن تماماً أن بعض الدوافع الجنسية ما هي إلا تشويهات لمعايير الله الخاصة بالخليقة، ولذا لا يتعين أن ندهش إذا ما حاولت أذهاننا أن تبعدها عن الوعي بواسطة آليات الدفاع. ولكن المشكلة بالنسبة لحملات الهجوم "المسيحية"

كثيرة الوضوح ضد الخطية الجنسية هي أنه من المحتمل بالأكثر أن يكون دافعها الخوف من الناحية الجنسية نفسها بالتعارض مع هدفها في الخليقة بأكثر مما يكون دافعها رغبة مخلصة لإعادة الناحية الجنسية إلى مكانها الذي خُلقت له في حياة الناس. لأن المعبود يمكنه أن يعمل في اتجاهين : المعجزات التي نتوقعها منه قد تكون موجبة أو سالبة. فإذا كنت أتوقع بركات موجبة من معبودي، فلسوف أحفظ ذلك في مقدمة ذهني، سألعب به، أمجده، أو أتلاعب به بأي طريقة تبدو أنها تحقق إشباعاً حتى لو كان وقتياً. وعلى النقيض من ذلك، إذا كنت أعتقد أن لمعبودي قدرة عظيمة على أذيتي، هنا أفرض عليه عزلاً، أو ربما أرفض حتى مجرد الكلام عن ذلك. ولسوف أخمد أو أستبعد أي اقتراح بنشاطه فيّ، وربما أصبح ذا بر ذاتي بالنسبة لكشف الآخرين، الذين بحسب تقديري، لم يخمدوا هذا المعبود السالب وتركوه في حياتهم. وبحسب كلمات سميدس "لقد جعلنا من الجنس معبوداً (حين) كنا نتوقع منه كل شيء يجعلنا سعداء، أو عندما كنا نخشى أن يؤذينا.

وفضلاً عن ذلك، فالدافع الذي يلزمني بشن الحملات ضد معبودي السالب في حياة أناس آخرين، يمكن في حد ذاته أن يتحول إلى إدمان. وحين يسيطر عليّ مثل هذا المعبود، لن يصبح بمقدوري بعد أن أثق في الله كي يدين أناساً بالخطية الجنسية، وتجدني مجبراً إلى أن أستخرجها من أساسها، نيابة عن الله، ولا أجد مرشدا سوى رؤيتي الخاصة. وفي مثل هذه الحملات الموجهة ضد الجنس فإن الغايات المُبسطة كثيراً ما تبرر الوسائل المشكوك فيها، والناس الذين خُلقوا على صورة الله سرعان ما يصبحون مجرد إحصاءات للمعركة.

النواحي الجنسية، والمسئولية عنها :

حاولت أن أجمع معاً عدة موضوعات عامة في الأجزاء السابقة ـ على سبيل المثال، مفهوم الوثنية الإيجابية والسالبة والاقتراح القائل بأن الوثنية من كلتا النوعيتين

هي الجذر الروحي للإدمان. ولكن وضعت أيضاً قيداً على جانب كبير من الأهمية : فمهما كانت نشأة الوثنية الجنسية فهي لا تزال حالة نحن مسئولون عنها. وقد تكون لها جذور في التربية الخاطئة للأطفال، أو الاستغلال المبكر على أيدي الآخرين، أو حتى ميل بيولوجي. غير أن الحقيقة التي تُبيّن أنها تستطيع أن تؤذي أناساً آخرين تسود كافة نواحي الحياة الأخرى، وتبعد وسائل الله التي من خلالها يجب أن نتوصل إلى تفاهم مع الهواجس الجنسية أو المضادة للجنس والتي تستبد بحياتنا. وهذا أمر صحيح ناهيك عن اتجاهها، وبغض النظر عن مدى تركها عالم الخيال وتحولها إلى سلوك.

ويجب أن نذكر أن الوثنية الجنسية في بعض النواحي تشبه إدمان الخمر. وتوحي الأبحاث الحديثة بقوة أنه ربما تكون هناك نزعة جينية نحو إدمان الخمر لدى بعض الناس. لكن مدمني الخمر الذين يدركون أخيراً خطورة حالتهم لا يبحثون عن أعذار في حالتهم البيولوجية، بل يطلبون العون من السيطرة على تلك التأثيرات البيولوجية، والتي تفاعلت مع العادات المكتسبة للشرب. ومن منظور كتابي، فالسبب في أن مجموعات "الاثني عشرة خطوة" مثل مجموعة "مدمني خمر مجهولين" حققت نجاحاً أيضاً ولكنه كان يُقدَّر بالضعف على الأقل. أولاً : يحتاجون إلى الاعتراف بالحدود الإنسانية بأن الحياة أصبحت صعبة بسبب الإدمان، وأن الأمر يتطلّب العون من "قوة أعلى" لكي تُستعاد سلامة العقل. ثانياً : يطلبون التسليم بالمسئولية الأخلاقية وأنه مهما كان سبب الإدمان، فإن المدمن لا يزال مسئولاً عن الطريقة التي تصرف بها أثناء إدمانه (أو إدمانها) والضرر الذي سببه للآخرين.

ومما يجدر ذكره أن نموذج "الاثني عشرة خطوة" الذي استخدمته أساساً جمعية "المدمنين المجهولين" تم تبنيه الآن للتعامل مع أشكال أخرى من الإدمان: اضطرابات معينة خاصة بالأكل، السلوك الجنسي الإجباري بأنواعه العديدة،

والعلاقة بين الإدمان بمختلف صوره. ولست أعتقد أن هذه ببساطة ظاهرة منحازة. وأحسب أنها تشير إلى اعتراف غير مقصود بأنه لا توجد ناحية في الخليقة، مهما كانت حسنة في موضعها، لا يمكن أن تصبح مشوشة واستبدادية في حياتنا. كما أنها اعتراف أيضاً بأنه ليس بمقدورنا أن ننظر إلى المدمنين بالطريقة التي ننظر بها إلى الألوان، كشيء لا يمكن إلغاؤه قد حدث لنا. وأياً كان القَدر الذي أسهمت به الطبيعة والتنشئة في ظهوره، فمن مسئوليتنا السيطرة على نواحي الإدمان. وعلاوة على ذلك، ولأنه لا يمكن أن نحيا حياة منعزلة، لهذا السبب فمعظمنا لا يستطيع أن يفعل ذلك بمفرده. ولسنا نحتاج فحسب إلى "قوة الله" العُليا في حياتنا، ولكننا نحتاج إلى الحب الواقعي من قِبل الناس الذين يفهمون مشكلتنا من الداخل، والذين بمقدورهم أن يقدموا لنا الدعم العاطفي والمعونة العملية للتغلب عليها. وكثيراً ما يتطلب ذلك مساعدة سيكولوجية طويلة. ولكن حتى مع هذا، فإن الدعم والرجاء اللذين يأتيان من مجموعة من المدمنين الذين تم شفاؤهم والذين هم في سبيلهم إلى ذلك يُعد مساعدة قيمة.

الناحية الجنسية من منظور تطوري :

وقصدي حتى الآن كان مزدوجاً : أن أضع رأياً إبداعياً عن الناحية الجنسية، وأن أشير إلى أنه في أثر السقوط يمكن لكثير من التشويهات الجنسية أن تحدث على شكل وثنية إيجابية أو سالبة. وكل هذه التشويهات تحت دينونة الله، ولا يمكن التغاضي عن أي منها بمجرد اللجوء ببساطة إلى الآليات العنيدة للطبيعة أو التنشئة في حياتنا. ومع ذلك، فإنه إذا كان عليّ أن أحكم أي نوع من الوثنية الجنسية تُلحِق ضرراً أكثر بين المسيحيين في المجتمع الغربي عند هذه النقطة المعينة من التاريخ، فلسوف أشير إلى مبالغات الوثنية السلبية لا الإيجابية. لأن الكثيرين جداً من المسيحيين لديهم إرث من التعليم المضاد للخليقة بالنسبة للجنس (وهكذا أصبحوا

خائفين أن تخرج حياتهم الجنسية عن السيطرة)، وهم كثيراً ما يدينون وعلى نحو من السرعة البالغة أشخاصاً يعانون من مشاكل جنسية. وزيادة على ذلك، فقد بدأ علماء النفس وخبراء الأحياء البشرية في تصنيف التعقيدات التطويرية الناجمة عن الجنس. ولذلك فحتى أكثر الناس العاديين، ذوي النية السليمة لا يعرفون مدى السهولة، ولا عدد النقاط التي يمكن أن تنحرف عندها تنمية الناحية الجنسية العادية. وإذا كان لنا أن نكون معاونين متعاطفين للمشوهين جنسياً أو المدمنين، علينا أن نتعلم المزيد عن هذا.

في الفصل الثالث، عرضنا لبعض التعقيدات الخاصة بالتنمية الجنسية الوالدية. وقد عرفنا أنه بعيداً عن الاختلافات الكروموزومية الخاصة بالجنس، فإن الأجنة الذكرية والأنثوية لا يمكن التمييز بينهما من الناحية البدنية خلال فترة الثلاثة أشهر الأولى من الحمل. وإذا كانت البرمجة الجينية لنسب هرمونات الجنس عملت بشكل عادي أثناء الفترة الباقية من الحمل، فلسوف يكون هناك تناغم تدريجي لكروموزومات الجنس من الغدد الجنسية (مثل المبايض أو الخصيات) مع أعضاء التناسل الداخلية (مثل الرحم أو القنوات المنوية) ومع الأعضاء التناسلية الخارجية. وقد عرضنا في الفصلين الرابع والخامس لبعض الطرق التي يمكن أن ينحرف فيها هذا التناغم الدقيق. والنتائج قد تكون بنات يولدن بأعضاء تناسلية خارجية لها هيئة ذكرية، ولكن بجهاز تناسلي أنثوي، أو أعضاء تناسلية أنثوية خارجية ولكن بدون رحم أو مبايض. وزيادة على ذلك، فحتى عندما يكون الأطفال عاديين تماماً عند الولادة، يجب أن ننتظر حتى فترة المراهقة لتأكيد أن نسب الهرمونات الصحيحة ستعود للظهور ثانية لتنتج سمات جنسية ثانوية وبويضة خصبة ومني.

وكانت الدهشة تتملك طَلبتي دائماً عند معرفتهم مدى تعقيد هذه العمليات التطورية، وأن هناك طرقاً كثيرة لتشويشها. وقد علقوا قائلين يبدو أنها أعجوبة أن

أياً منا وصل إلى سن البلوغ وكل تركيبنا الجنسي والسيكولوجي متناغماً مع جيناتنا الجنسية وتوجهنا الجنسي. ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك. وكما عرفنا من الفصل الخامس فإن نسب هرمونات الجنس تؤثر في المخ الجنيني النامي حتى بعد أن ينمو تركيب الطفل الجنسي ويتشكل بطريقة عادية. وقد تكون من بين النتائج ميول سلوكية قائمة على الجنس، التي تُعزز عندئذ، أو، عوض ذلك، يُعاد توجيهها أثناء تربية الطفل. والتشابه اللغوي أيضاً له نفعه. وكل البشر الذين تشكلوا بشكل عادي مهيئون مسبقاً من الناحية البيولوجية لكي يتعلموا تعقيدات اللغة. ولكن ما إذا كانوا يتعلمون الكلام، وأية لغة يتعلمونها، ومدى إجادتهم لها فهذا يعتمد على لغة المجتمع التي يتعرضون لها أثناء فترة حاسمة بعد الميلاد. وعلى غرار ذلك، يشك الباحثون في الجنس الآن بأن مِخاخ جميع الأطفال الذين تشكلوا بطريقة عادية مهيأة هرمونياً لأن يميلوا هويتهم الجنسية في الاتجاه الذي يتناغم مع جنسهم البيولوجي. غير أنه، كما كان الحال بالنسبة لتعلم اللغة، فإن إكمال هذه العملية (بما في ذلك تطور الخيارات الجنسية) يعتمد على اختبارات فترة حاسمة في السنوات التي بعد الولادة.

وثمة بحث جار يقترح عمليتين، تعملان كل على حدة، أو معاً، ربما تتدخلان في هذا الميل إلى التناغم. **أولاً** : قطع الدورة الهرمونية العادية عن المخ الجنيني في أواخر الحمل قد يعني أن المخ فشل في أن يتناغم مع النموذج الذي سبق أن أقام تركيباً جنسياً عادياً ذكرياً أو أنثوياً. والواقع عندما يعمل عدم التناغم هذا عن عمد في الحيوانات، في ذكر أو أنثى بتركيب عادي يكون سلوكه البالغ الجنسي مثل سلوك ذاك الذي من جنس مغاير. والسلوك البشري بعيد بالطبع عن أن يكون على هذا القدر من الجمود الذي تمليه الناحية البيولوجية.

وهكذا فإن هناك عملية ثانية ـ وهي فترة حاسمة خاطئة من الناحية الاجتماعية ـ تساهم هكذا أو أكثر في هوية جنسية وتوجيه جنسي غير صحيح. فالموضوع إذاً لا يتعلق بالطبيعة أو التنشئة. إنها التنشئة (الكافية أو الخاطئة) التي تُبنى على الطبيعة (عادية أو خاطئة) أثناء فترات حاسمة معينة حين يكون العقل مهيئاً لتحديد نماذج جنسية معينة كما يكون مهيئاً لاكتساب لغة أولى. وكما هو الحال بالنسبة للغة، ففي حين أن المزيد من التعليم أمر ليس مستحيلاً، إلا أن الاختلافات الفردية في البراعة موجودة، ولن تكون على هذا النحو من السهولة مرة ثانية على الإطلاق.

الجنسية المثلية "الشذوذ الجنسي" : دراسة حالة

منذ أسابيع قليلة ماضية انقطع عملي في هذا الفصل لحضوري مؤتمراً شاركت فيه بمادة علمية عن علاقة غياب الأب بنمو هوية جنسية غير آمنة في الأولاد، فضلاً عن كراهيتهم للنساء (انظر الفصل السابع). بعد ذلك اقترب مني أحد الشبان بسؤال يخصه شخصياً : هل أعرف كتاب إليزابيث موبرلي Elizabeth Moberley عن منشأ الجنسية المثلية، وإذا كنت قد قرأته، فما هو رأيي في هذا الكتاب ؟ وطبقاً لما تقوله موبرلي، فإن نشاط الجنسية المثلية هو محاولة دون وعي لاكتساب الوالد الذي من نفس الجنس، الذي لم تكن هناك معه رابطة عاطفية كافية في الطفولة. وكان هذا الشاب عضواً في جماعة "مشتهي المثل المجهولين"، وهي تقليد مسيحي لحركة الخطوات الاثني عشرة، والتي تستخدم نظرية موبرلي لمساعدة الأشخاص الذين يريدون التخلي عن أسلوب حياة من يمارسون الجنسية المثلية. وكان سؤاله منطقياً على ضوء حديثي، لأنه إذا كانت الكمية المعيارية لغياب الأب في ثقافتنا تجعل من الصعوبة بالنسبة للأولاد أن يُكوّنوا هوية ذكرية آمنة، ألا يكون معنى هذا أن غياب الأب لمدد مبالغ فيها (أو وجوده مع كونه من

النوعية المتسلطة) قد يجعل الأمر أكثر صعوبة، أو أنه سيطيح بالهوية الجنسية بعيداً عن الذكورة العادية والتي في حالة وصولها إلى سن البلوغ العادي تُفضِّل النساء ؟

وإجابتي على سؤال هذا الشاب هو أنه في الواقع : "إذا كان الحذاء مقاسك عليك أن تلبسه".وعلى ضوء البحث الذي أوجزته في القسم السابق، فإن الجنسية المثلية قد تنشأ نتيجة عدة أسباب تعمل منفردة أو معاً. وهذا هو السبب (بالإضافة إلى الحرارة السياسية التي أحاطت بهذا الموضوع) في أن الكتابة في موضوع الجنسية المثلية أمر غير قاطع بالمرة. وإذا كان نموذج موبرلي والعلاج المرتبط به بدا أنه يناسب حالته، فقد قلت له : إذاً عليك به ولا تتركه بأي حال، ولاسيما أن جمعية "أتباع الجنسية المثلية المجهولين" والجماعات المماثلة لها مرتبطة برأي مسيحي عالمي وكامنة في شركة مسيحية عاطفية، ومن نوعية يكاد يكون من المستحيل على مشتهى المثل أن يجدوها في مؤسسات الكنيسة. وإلى جانب الإشارة إلى أنه ليست هناك نظرية واحدة يمكنها أن تغطي كل الحالات، فقد عبرت عن تحفظ ثان. وأياً كانت علة منشأها فالتوجه نحو الجنسية المثلية (مثل لغة الإنسان الأولى) تُكتسب في الغالب، بدون إرادة الطفل أو معرفته، في سن صغير تماماً. وكما هو الحال بالنسبة لتعلم لغة ثانية، فكلما طال انتظار الشخص لمحاولة إعادة التوجيه، صعبت العملية وأصبحت النتائج غير مضمونة.

ولا أقول هذا لأُثبِّط من هِمة أي شخص أو حركة من ناحية العمل نحو التغيير، سواء في سلوك الجنسية المثلية أو التوجيه، وتبين الإحصاءات التحليلية نسبة تقع ما بين ٣٠٪ إلى ٦٠٪ من ناحية النجاح في إعادة توجيه البالغين والراغبين بدرجة عالية نحو اشتهاء الجنس الآخر. بل ولست أُشكِّك في قوة الروح القدس لإعطاء قفزات كبيرة في الشفاء الجنسي بنفس الطريقة التي تحدث في بعض الأحيان بالنسبة لحالات الإدمان الكبيرة. وكان تحذيري بكل بساطة مشمولاً بالواقعية

السيكولوجية. إنه نبع من القلق من ناحية أن مشتهي الجنسية المثلية من المسيحيين لا يختبرون توجيهاً كاملاً يُقوِّم سلوكهم ومشاعرهم، بغض النظر عن قيامهم بالصلاة مدة طويلة، أو المجهود الذي يذلوه في محاولتهم، ولا ننتهي إلى أنهم "فشلوا" إلى حد ما أمام الله كبشر، بل وعلى النقيض من ذلك، وبحسب قول سي. إس. لويس C. S. Lewis فإن أولئك "الذين تسمموا بتربية بائسة، وحُملوا دون اختيار منهم ببعض الانحراف الجنسي، هم من بين الفقراء الذين باركهم الله".

" لا تيأس. إنه يعرف كل شيء عنك. وهو يعرف أية آلة بائسة تحاول أن تقودها. عليك المواصلة. اعمل ما تقدر عليه. ففي يوم ما (لعله في عالم آخر، ولكن ربما أقرب من ذلك بكثير)، لسوف يطيح بها إلى كومة سقط المتاع (الخردة) ويعطيك واحدة جديدة. وعندئذ قد تدهشنا جميعاً، بل وستأخذك الدهشة أنت أيضاً : لأنك تعلمت القيادة في مدرسة صعبة " .

"والمدرسة الصعبة" التي يتحدث عنها لويس ليست فقط كفاح الشواذ جنسياً مع نتائج الطبيعة والتنشئة المبكرة. كما إنها بنفس القدر ضد الدعوة المغرية لثقافة المجون من جهة، ورفض الأخلاقيات السائدة في المجتمع من جهة أخرى. لي زميل، بعد أن كتب في موضوعات الإدمان، عرف كيف أنه من الصعوبة على الشواذ جنسياً من المسيحيين أن يكونوا بصفة مستمرة حذرين ضد ميولهم (أو ميولهن). وقد اضطرم سخطه حينما قام، كعالم أخلاقيات مسيحي، وتحدث إلى مندوبين من اليمين المسيحي الجديد الذين أعلنوا أن الأشخاص الأشرار الذين انحرفوا عن عمد، هم فقط الذين سينساقون إلى نزعة الجنسية المثلية. وتحت شعار : "العودة إلى أخلاقيات الوصايا العشر القديمة"، فإن هؤلاء الذين من المزمع أن يكونوا متكلمين باسم المسيحية تجاهلوا حقيقة أن الوصايا العشر، والتي تدين بالفعل الفساد الجنسي، تدين أيضاً الشهادة الزور ضد قريبك. وقد كتب زميلي يقول :

"الصدق أمر عزيز جداً لدى الله. ونحن لا نخدم الله على نحـو حسـن حـين نسيء وصف الناس الذين ننتقدهم".

وقد تعلم المسيحيون ـ وإن كان ذلك ببطء ـ أن يستبدلوا الإدانـة بالمساعدة العملية والدعم العاطفي لمدمني التبغ والخمر، وكثيراً ما يأتى ذلك نتيجة خوفهم من أن يواجهوا مثل هذه المشاكل في عائلاتهم. بيد أن الكنيسة ككـل أبعـد مـا تكـون عن عمل نفس الشيء بالنسبة للشواذ جنسياً. فأمامنا الكثير مما يجب أن نتوب عنه، والكثير مما يتعين تعلمه.

أدوار الذكورة والأنوثة، الجنس والعزوبية :

كل ما سبق ذكره يفترض آن نشـاط الأعضـاء التناسـلية ليـس مطلبـاً مطلقـاً لسعادة الإنسان سواء بالنسبة لنزعة الجنسية المثلية أو اشتهاء الجنس المغاير. وأعتقـد أن هذا ليس بالرغم من، بل بسـبب الفكـر اللاهوتـي القـوي عـن الخليقـة، والـذي بدأت به هذا الفصل وفصول أخرى. وقـد حـاولت طـوال هـذا الكتـاب أن أضـع أساس وجهـة نظـر كتابيـة عـن الأشـخاص تتضمـن بشـكل كـاف الجنـس وأدوار الذكورة والأنوثة، دون أن تنزل بنـا إلى أي مـن هـذه النزعـات. ولقـد ذكـرت أن الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة، تكمن في دعوتنا الأساسية بـأن تكـون لنـا سـيادة مسئولة على الأرض، وأن نعيش في إطار علاقات التعاون المتبادل، وفوق كـل هـذا أن نعبد الله. وأن التكامل بين ذكوريتنا وأنوثتنا يجب، بـل إنـه يعمـل بـالفعل علـى تلاشي الفرق الضئيل بين هذه الأنشطة. ولكن هـذه دعـوة بعيـدة عـن القـول بـأن النشاط الجنسي، الزواج، وتربية الأطفال من الأمور الضرورية للشخصية الكاملة.

والمجتمع، بالطبع، دأب على أن يخبرنا لبعض الوقت أن النشـاط الجنسـي هـو حق وضرورة. ولكن الكنيسة لم تحسن صنعاً بإشارتها، من خلال تنظيماتها، إن لم

يكن من خلال فكرها اللاهوتي، إلى أن الزواج والعائلة هما المعيار، وأن العزّاب (ربما مثل المقعدين) هم جماعة هامشية، وأن "مشاكلهم" لن تؤخذ في الاعتبار إلا إذا توفر وقت وجهد يمكن أن نخصصهما لهم. ولقد قلت (في الفصل التاسع) إنه بالنسبة للمسيحيين فإنه حتى الحياة العائلية يجب أن يُنظر إليها على هذا النحو فإن عبارة "أعزب مسيحي" تُعد تناقضاً. وعلى وجه التحديد، لا يوجد مسيحيون من العزاب (بل ولا يوجد، بهذا المعنى، مقعدون). فنحن ننتمي بعضنا لبعض مدة طويلة قبل، وبعد أن كان للطلبات الخاصة بالزواج والأبوة (والرغبة الجنسية) ما تفرضه علينا في حياتنا. ونحن نستمر في أن نكون أولاً وقبل أي شيء، أعضاء ذوي مواهب مختلفة في "جسد واحد" ـ وهو الكنيسة ـ حتى أثناء السنوات التي نصبح فيها "جسداً واحداً" بالزواج.

العزوبية والصحة الذهنية :

وهناك بالطبع، بعض الناس ممن يظلون ــ على غير رغبتهم ــ دون زواج وذلك بسبب مشاكل شخصية أو اجتماعية يبدو أنهم غير قادرين على التغلب عليها. إلا أنه من ناحية أخرى، يندفع الكثيرون دون روية إلى الزواج لنفس هذه الأسباب، وكثيراً ما ينتهي الأمر بنتائج وخيمة. فكوننا متزوجين لا يُعد ضماناً بأننا وصلنا إلى حالة النضج والكمال، على الرغم من أننا نميل تلقائياً إلى النظر للأمر على هذا النحو. وفضلاً عن ذلك، وكما عرفنا من الفصل التاسع، فإن الزواج التقليدي عادة ما يشكل أهمية للنساء، على الرغم من إنكارهن السعادة. والنساء اللواتي هن على وشك الزواج لا تختلفن عن أقرانهن من الإناث العزبات من ناحية جميع المؤشرات الخاصة بالصحة الذهنية، غير أن الفجوة تتسع كلما بقيت هذه الفئة الأخيرة دون زواج.

والواقع أن الدراسات أظهرت أنه بالنظر إلى غياب علم الأمراض، فإن النساء اللواتي لم تتزوجن إطلاقاً كمجموعة تأتين أولاً، ثم الرجال المتزوجون، ثم النساء المتزوجات ثم الرجال الذين لم يتزوجوا إطلاقاً. وسبب الدرجة البالغة للصحة الذهنية التي متلها الرجال والنساء الذين لم يتزوجوا إطلاقاً شرحتها الإخصائية الاجتماعية جيسي برنارد Jessie Bernard في إطار مجتمعي "منحنى الزواج". وبالنظر إلى أن النساء من الناحية التقليدية يُتوقع أن تتزوجن رجالاً: "كبار"، أغنياء، أذكياء، طوال القامة. فإن النساء اللواتي لم تتزوجن إطلاقاً تجد من بينهن كثيرات من الموهوبات "زبدة المحصول" اللواتي وضعن لأنفسهن سعراً يفوق سوق الزواج بحسب ما هو محدد تقليداً. وعلى النقيض من ذلك، فإن مجموعة الرجال الذين لم يتزوجوا إطلاقاً كثيراً ما نجد بها أولئك الذين حكم عليها المجتمع بأنهم "من قاع البرميل"، من ناحية الكفاية "الذكرية"، وهكذا تجدهم متبلدي الحس، فقراء، تثقلهم المشاكل، ولذا لا يمكن أن يوُصفوا بأنهم "صيد ثمين" بالنسبة لأية امرأة.

ولا يُقصد بنظرية برنارد أن تغطي كل الحالات، سواء بالنسبة للرجال الذين لم يتزوجوا إطلاقاً، أو بالنسبة للنساء اللواتي لم تتزوجن أبداً. وهذا ببساطة تفسير معقول لمتوسط الصحة الذهنية لهذه المجموعات. بل ولا يناسب هذا مجموعة المُطلّقين، الذين تختلف مواقفهم إلى درجة كبيرة حتى إنه لا تتوافر لدينا الآن نظريات كافية لتبريرها. وما أود أن أوضحه بكل بساطة هو : ليس لدينا دليل كتابي أو سيكولوجي لتهميش الأشخاص العذاب، الذين يقدم معظمهم خدمة للملكوت لا تقل عما يقدمه الأشخاص المتزوجون، وفي الغالب بطرق أكثر تنوعاً وما ذلك ببساطة سوى للمرونة الكبيرة التي يتسم بها أسلوب حياتهم. وحين نشجب الوثنية المرتبطة بالجنس أو الزواج هنا فقط سنكون قادرين على أن نقدم

عدالة صحيحة لكافة أبناء الله، بغض النظر عــن توجههــم الجنسـي، أو الحالـة مـن ناحية الزواج.

الفصل الثاني عشر:

الكل قد صار جديداً

من بين الأدوار التي قمت بها ككاتبة، هو قيامي كمستشـارة للتحرير لمجلـة مسيحية واسعة الانتشار. وفي هذه الوظيفة كنت أحياناً أتلقى اقتراحات من الزملاء ومن آخرين ممن يقرأون المجلة ويريدون المساهمة في الارتقاء بها. غير أن ما كان في العادة سيلاً هزيلاً من التعليقات، أصبح منذ عدة أشهر قليلة مضت شيئاً أقـرب مـا يكون إلى الطوفان. والحدث الذي فجـر هـذا كـان ظهـور إعـلان دنفر Danvers. وهذا الإعلان الذي أخذ صفحتين انتشرتا في قلب المجلة نفسها أعلن تكوين جماعـة تُسمى "مجلـس الرجولـة والأنوثـة الكتابيـة"، وقـد أُسس بهـدف دراسـة وتوضيـح التعاليم الكتابية عن العلاقة بين الرجال والنساء، ولاسيما في البيت والكنيسة.

أما السبب المباشر لطوفان الاستفسارات فمـرده فشـل المجلـة (الـذي صُحـح فيما بعد) في بيان أن الصفحتـين كانتـا تشـكلان إعلانـاً، وليـس تصريحـاً يلـتزم بـه المحررون أنفسهم. ومن الجلي أن هذا التصريح قد ولّد مشاعر قوية في أذهـان دعـاة المساواة بين الجنسـين مـن الكتـابيين. وهـؤلاء المسـيحيون ـ مـن كـلا الجنسـين ـ يؤكدون، ليس فقط المساواة الروحية بين الرجال والنسـاء، بـل والمسـاواة في تقلـد وظائف الكنيسة والخضوع المتبادل ـ بدلاً من رئاسة الأزواج ـ في الزواج.

وعلى النقيض من ذلك نجد أن إعلان دنفرز عـن هـذا المجلـس الـذي تكـوّن حديثاً أعلن شديد أسفه بسبب "التشجيع المـتزايد الـذي أولى لحركـة المسـاواة الـتي

ينادي بها المطالبون بالمساواة بين الجنسين". بل وذهبت إلى تأكيد أن "رئاسة" آدم في الزواج أمر أسسه الله قبل السقوط، و لم يتأت نتيجة الخطية .... (وأنه) في الكنيسة، الفداء بالمسيح يعطي الرجال والنساء نصيباً متساوياً في بركات الخلاص، برغم أن بعض الوظائف الرئاسية والتعليمية في الكنيسة مقصورة على الرجال.

رئاسة الذكور : اعتراف

الرجاء في إعلان دنفر أكثر من ذلك بكثير، إلا أن اثنين من موضوعاته المتكررة كانا: أن رئاسة الذكر في الكنيسة وفي الزواج أمر يتبع الكتاب المقدس، واهتمام بأن "رؤية الكتاب المقدس النبيلة عن التكامل الجنسي، على الرغم من ذلك، تكسب عقل الكنيسة وقلبها". و لم يوضح معنى التكامل الجنسي على نحو من التفصيل، ولكنه تضمن (للنساء) تأكيداً قوياً على الأمومة وعلى السمة المهنية لعملية العناية بالبيت. وفي لقاء مع رئيس المجلس، أضاف اعتقاد الجماعة بأن "رعاية الأطفال هي المسئولية الأساسية للزوجة". ولا توجد إشارة واحدة في التصريح إلى مسئوليات الرجال كآباء، على الرغم من وجود إشارات كثيرة إلى "رئاسة الذكور" و"قيادتهم" و"سلطاتهم" في كل من البيت والكنيسة.

وحتى إن لم يكن شيء آخر قد أزعجني بشأن هذه الوثيقة، فإن افتراضها بأن الدور الوالدي هو أساس دور الأمومة، كان كافياً لدق ناقوس الخطر في ذهني. غير أن الناس الذين اتصلوا بي هاتفياً، أو كتبوا إليّ بعد إعلان التصريح لم يعلقوا على هذه النقطة بالذات من التصريح. بل اهتموا بالأكثر بما حواه من افتراضات بشأن الأساس الكتابي لرئاسة الرجل في البيت والكنيسة. غير أن قراءة متأنية لهذه الوثيقة تبين أن هذه الافتراضات وُصفت في الواقع بأنها "تأكيدات" وليست "تعاليم " أو "معتقدات" أو "اعترافات". وهكذا فإن أعضاء المجلس لم يحولوا الاعتقاد في" رئاسة الرجل إلى اختبار لمدى استقامة الرأي المسيحي. والواقع أنهم

كانوا حريصين على الاعتراف بالموقف الإنجبلي الحقيقي لكثيرين ممن لا يتفقون مع كل معتقداتنا".

ولقد أوضح رئيس المجلس أثناء مؤتمر صحفي عقب نشر التصريح مباشرة بأن هناك ميلاً للاعتقاد بأن المساواة الكتابية بين الجنسين تُشكّل الرأي الكتابي الوحيد. إلا أن صياغة ملاحظته نفسها تُفصح عن اعتراف أن الموقف من مناقشة رئاسة الرجل ضد المساواة بين الجنسين لا يمكن أن تتحول إلى اختبار للهوية المسيحية. ومثل المناقشات المتكررة حول معارضة الحرب ضد "الحرب العادلة"، المحافظة الصارمة للسبت، مقابل المرونة في ذلك، اشتراك الثقافة المسيحية، أو الانفصال الثقافي، والمناقشة حول أدوار الذكورة والأنوثة تستمر مشحونة بالغموض وما ذلك ببساطة سوى أن الكتاب المقدس نفسه يتكلم عن هذه الموضوعات بغموض. بل إنه يتحدث بغموض عن الرق، وهو عُرف لم يشكك فيه من ورثوه من المسيحيين المعاصرين إطلاقاً وذلك على أسس كتابية. ومع ذلك فإنه قبل الحرب الأهلية الأمريكية، كان المدافعون المسيحيون عن الرق من أهل الجنوب كثيراً ما يقدمون حججاً تفسيرية قوية ومدهشة لاستمراره، وهي حجج كانت دائماً ستاراً للمصالح الشخصية الاقتصادية.

وبالنظر إلى أن المعتقدات الخاصة بالعلاقات بين أدوار الذكورة والأنوثة لا يمكن تحويلها إلى اختبارات لمدى استقامة الرأي المسيحي، فقد قاومت التعرض لموضوع "الرئاسة" بصفة مباشرة في الفصول الأولى. وقد قاومت هذا على الرغم من أن لي صلة شخصية بالمناقشة لأنني عضوة في كنيسة (الكنيسة المسيحية المُصلحة في شمال أمريكا) لا ترسم النساء في أية وظيفة كنسية تعلو على رتبة "شماس". وفضلاً عن ذلك، فإن مناقشة أدوار الذكورة والأنوثة بين المسيحيين قد حُددت بشكل كبير في الموضوع الخاص بالرئاسة، مع ما يتبعه من إهمال الكتابات

المنتشرة التي تدور حول الجنس وتطور أدوار الذكورة والأنوثة، ودور الأبوة، والاختلافات المعرفية حول الجنس، وموضوعات أخرى سبق أن عرضنا لها في الفصول الأولى من هذا الكتاب. وفيما أنه يجب على المسيحيين أن يُقيّموا هذه الكتابات على أساس الفكر اللاهوتي الكتابي عن البشرية (بما في ذلك فكر لاهوتي عن سلطان البشر) فإنه ليس بوسعهم تنحيتها جانباً بحجة أنها خارجة عن الموضوع دون أن ينكروا تماماً قيمة الوحي العام. وهذا هو السبب في أنني كعالِمة نفس، قد بذلت كل ما في وسعي كي أقدم هذا البحث بطريقة مسيحية نقدية، والتي على الرغم من ذلك تمتدح العلم حين يتطلب الأمر ذلك.

بناء الملكوت كمشروع تعاوني :

على الرغم من القيود السابق ذكرها، فإنه واضح من الفصول السابقة أنني قد اتخذت موقفاً مفهوماً بالنسبة للمناقشة الخاصة برئاسة الذكر ـ مقابل ـ التساوي بين الجنسين، وذلك لصالح التفسير الأخير. و لم أدع أن الكتاب المقدس لم يتعرض، أو أنه غامض تماماً بالنسبة، لهذا الموضوع، بل قلت إنه قصة تتكشف شيئاً فشيئاً، أُتيح فيها خلاص الله لمجموعات كانت تُعد قبلاً أنها هامشية. فالخلاص والمساواة في الحصول على امتيازاته ومسئولياته، ليس قاصراً على اليهود فحسب، بل ولغير اليهود، وليس للأحرار فقط، بل وللعبيد أيضاً، ليس للرجال فقط، بل وللنساء أيضاً ـ وهكذا، تمشياً مع الرسالة التي بعث بها الرسول بولس إلى أهل غلاطية (٣: ٢٨).

وفضلاً عن ذلك، فإن شمولية خلاص الله لم يُقصد بها أن تؤدي إلى منافسة قلقة من أجل مصادر تقل بصفة منتظمة، كما لو كان بناء الملكوت يشبه عملاً غير متغير ليس به سوى أمكنة كثيرة للمسئولين التنفيذيين والمديرين والعمال الذين من مستوى أدنى. فبناء الملكوت الحقيقي، طبقاً لما قاله يسوع، يعمل مثل الخميرة. بدلاً

من أن يحمل كتلة العجين على الانقباض، فإنه يجعلها تتمدد. أو مثل حبة الخردل : فهي أبعد من أن تظل صغيرة مكتفية بذاتها، فإنها إذا ما زُرعت في التربة الصحيحة، تصبح شجرة دائمة النمو. وهذا ليس ما يطلق عليه علماء الاجتماع "لعبة مجموعها صفر" والتي لا يمكن لأحد فيها أن يكسب إلاّ إذا خسر شخص آخر. فهو في أفضل حالاته عمل تعاوني، أو عمل "ليس مجموعه صفر" يفرز فيه بناء الملكوت نمو كل من يحمل صورة الله في داخله، وفي الوقت نفسه نجد أن هؤلاء الأخبرين يقدمون إسهاماتهم الفردية وذبائحهم من أجل الملكوت.

وهكذا، وبحسب ما يقول عالِم العهد الجديد دون وليامز Don Williams : "إذا كان الفداء حقيقياً تنتهي الحرب بين الجنسين. فتنتهي سيطرة الذكر، والأنانية، وسلطة الآباء والأولوية التفضيلية. وفي نفس الوقت ينتهي أيضاً اغتصاب الإناث، والاستغلال، والاستبداد "لأنكم جميعاً واحد في المسيح". أو كما قال الرسول بولس لأهل كورنثوس : "إذاً إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً. ولكن الكل من الله الذي صالحنا لنفسه بيسوع المسيح وأعطانا خدمة المصالحة" (٢كو٥: ١٧-١٨).

تفسيرات كتابية : أين تقع الاختلافات الحقيقية :

ولكنني إذا كنت قد اعترفت من قبل بغموض الكتاب المقدس في موضوع الرئاسة، كيف لي أن أُبرر تقتي الشخصية في أن اتجاهه الرئيسي إنما يندفع نحو تسوية وليس التمسك بمبدأ التفرقة الجنسية؟ هنا ندخل المجال التفسيري ــ النظام المتعلق بمبادىء تفسير النصوص، ولاسيما التفسير الكتابي. وحول الموضوع التفسيري، وليس موضوع عصمة الكتاب المقدس نفسه يختلف فعلاً الخضوعيون (الذين يؤمنون برئاسة الذكر) والتحرريون (الذين يؤمنون بالتساوي بين الجنسين).

وبالنسبة للأسئلة التفسيرية، كما لخصها المفكر اللاهوتي : ويلارد سوارتلي Willard Swartley، فإنها تتضمن الآتي :-

١- كيف ينتمي العهدان كل للآخر ؟

٢- كيف أن سلطان يسوع متعلّق بالكتاب المقدس كله ؟

٣- ما هي العلاقة بين الإعلان الإلهي والبيئة الثقافية التي أُعطي فيها الإعلان وتم قبوله ؟

٤- هل الكتاب المقدس يُفوِّض، يُنظِّم، أو يتحدى ممارسات معينة كتلك المرتبطة بالرق،

والحرب، ورسامة النساء ؟

٥- هل يذكر الكتاب المقدس شيئاً واحداً بالنسبة لموضوع معين، أم أنه يُظهِر أحياناً

وجهات نظر مختلفة بل ومتعارضة ؟

٦ - ماذا يعني تفسير الكتاب المقدس حرفياً ؟ هل هذه رذيلة أم فضيلة ؟ وهل كلمة

"حرفياً" تعني المعنى الذي قصده الكاتب أم المعنى الذي يبدو لنا طبيعياً ؟

٧- إلى أي مدى يكون اتجاه المفسر المسبق لنزعة ما أو حتى لأيديولوجية مثل (النظام

الأبوي، أم من دعاة المساواة بين الجنسين) مؤثراً في مهمته التحليلية ؟

وهذه "الأسئلة هي وراء السؤال" المُتعلق برئاسة الذكر في مقابل المساواة بين الجنسين، وهي التي تفصل بين الخضوعيين والتحرريين. ويكفي لكل جانب منهما أن يقول : "أنا أؤمن بالكتاب المقدّس" أو "يقول الكتاب المقدس ...". والكتاب المقدس يتكون من مجموعة تبلغ ستة وستون سفراً منفصلاً، جُمعت على مَدى

آلاف السنين، وانتهى إلى شكله الراهن القانوني منذ أجيال كثيرة مضت. وهو إعلان إلهي متجسد، بمعنى أنه يتعامل بجدية مع الناس، في العصر والمكان الذي أُرسل له كل سفر من أسفاره. ومن المؤكد أن كتبته حاولوا أن يصوروا الجانب الآخر الجوهري لله، وللشعب الذي يدعوه. وهذا هو ما أطلق عليه أحد العلماء "مبدأ السائح" في الكتاب المقدس. وهذا يشكل تذكرة دائمة بأن شعب الله، بغض النظر عن الثقافة أو الحقبة التي يعيشون فيها هم شعب غريب، دائماً يكونون في نزاع مع العالم من حوله، ودائماً سيحكمون عليه بمعايير السموات الجديدة والأرض الجديدة التي هم مسافرون إليها.

غير أن "مبدأ السائح" هذا في الكتاب المقدس تراه في توتر دائم وخلاق مع ما يُطلِق عليه سوارتلي "مبدأه التبشيري" ـ تكييف الكتاب المقدس دائماً لرسالته لأشخاص حقيقيين، في مواقف حقيقية مختلفة الثقافة.وهذا التنوع قوة للإعلان الكتابي، وليس ضعفاً. وهذا ما يتناغم مع طبيعة الله كالواحد الذي نقابله في جوهر التاريخ البشري سواء على شكل فردي أو جماعي. وتنوع الكتاب المقدس : هو النتيجة الطبيعية للإله الحقيقي وحده الذي برحمته أقام علاقة مع البشر، وقد جذب البشر إلى علاقة تتطلب استجابة حرة وانشغالاً تاماً .... والحق الكتابي ملموس، عادة ما تشكله سياقات واحتياجات وفرص واضحة. والتفسير يجب أن يؤكد ويعلن هذه السمة من الإعلان الإلهي، الذي وصل إلينا على يد كتبة كثيرين مختلفين، في لغات وثقافات وبيئات سياسية مختلفة. والتنوع نفسه أصبح كتاب المُرسَل لأن النص الكتابي يتكلم بكلمة الله في أوضاع ثقافية واقتصادية وسياسية واجتماعية متباينة.

وما يؤكده "المبدأ التبشيري" هو أنه من أجل تقدم ملكوت الله في زمن ومكان معينين، فإن التنازلات المؤقتة يمكن بل يجب أن تُعمل بالنسبة للحالة المجتمعية

القائمة. وعلى سبيل المثال، قال يسوع للفريسيين (مت١٩: ٣-١٠) : إن موسى سمح للرجال أن يُطلّقوا زوجاتهم "من أجل قساوة " قلوبهم. وكان هذا حلاً وسطاً استمر معمولاً به لقرون كثيرة. وقد واصل يسوع كلامه قائلاً : أما الآن فقد جاء الوقت لاستعادة المعيار الأساسي الذي وضعه الله للزواج منذ بدء الخليقة وهو أن الزوج وامرأته جسداً واحداً، وأي رجل يطلق امرأته إلا بسبب الزنا، يعتبر هو نفسه زانياً إذا تزوج بأخرى. وقال يسوع إنه ليس بكاف أن تذكر ناموس موسى، بل عليك أن تعرف أين يتحرك الخط الفدائي / التاريخي وأن تكون مستعداً لأن تتحرك معه في الوقت المناسب، حتى وإن كان هذا يعني طريقة غير مألوفة في إقامة العلاقات الإنسانية.

وهكذا فإن المبدأ التبشيري الذي بواسطته يتم التناغم بين الكتاب المقدس والوضع الثقافي للشعوب المختلفة التي يخاطبها، دائماً ما يتزايد نتيجة مبدأ السائح، الذي يطلب من نفس هؤلاء الأشخاص بأن يكونوا أكثر مما كانوا عليه ذات مرة، فيما هم يتحركون صوب رؤية ملكوت الله الآتي. والواقع أن إلغاء يسوع للمعيار الجنسي المزدوج كان موضع دهشة تلاميذه حتى إنهم توصلوا إلى أنه من الأسلم ألاّ يتزوج الإنسان إطلاقاً. كانوا يعتقدون أن لعبة الزواج مربوطة لهم في حرفية تخدم الذات وغير قابلة للتغيير. ومع ذلك فإنه بمجيء الفادي لم تسترجع المعايير الأصلية للزواج فحسب، بل وجُعلت نسبية. فقد أعلن يسوع أنه في السماء حتى "الجسد الواحد" للزواج سوف يسمو (مر١٢: ٢٥، انظر ايضاً الفصل الحادي عشر).

التشابه مع الرق :

بالنظر إلى التنوع الاستراتيجي للكتاب المقدس (المبدأ التبشيري) وكذلك تحركه للأمام صوب ملكوت الله الختامي الذي يسوده السلام الكامل والعدل

(مبدأ السائح) فلا يمكن ببساطة أن نعامله على أنه "كتاب سطحي"، كل رأي فيه بالنسبة لموضوع معين يُعد ساري المفعول في جميع الأزمنة. وبعبارة أخرى، ليس لنا أن نستخدم الكتاب المقدس لكي نلعب ما تسميه إحدى زميلاتي "لعبة بوكر كتجربة". والواقع أنه حتى الخضوعيين الذين حاولوا بالفعل اختصار الكتاب المقدس إلى مجموعة من "القضايا" الأبدية المتساوية السلطة، لم يعاملوا في النهاية كل أجزائه على قدر من المساواة. لأنهم لو فعلوا ذلك لوجب ألاّ يقل اهتمامهم بزوال الرق عن اهتمامهم بزوال رئاسة الذكر.

وقد ذكر الرسول بولس في (١تي٦: ١-٦) أن تعليمه الخاص بالمحافظة على الرق قائم على "كلمات ربنا يسوع المسيح". والواقع إنه يقول : "إن كان أحد يُعلّم تعليماً آخر ولا يوافق كلمات ربنا يسوع المسيح ... فقد تصلّف وهو لا يفهم شيئاً بل هو متعلل بمباحثات ومماحكات الكلام". وفي موضع آخر يذكر الرسول بطرس إعلاناً أقوى بقوله إنه على العبيد ليس أن يطيعوا السادة "الصالحين المترفقين فقط" بل "والعنفاء أيضاً" (١بط٢: ١٨-٢١). ولقد استُخدم هذان النصان فيما قبل الحرب الأهلية الأمريكية في الجنوب تأييداً لبقاء الرق. وقد جادلوا بالقول بأنه على الرغم من أن نظام الرق لم يكن موجوداً مع بداية الخليقة، فحقيقة أن بولس استند في بقائه على إعلان من يسوع نفسه معناها أن أي واحد يرغب في إلغاء الرق (أو حتى تحسين ظروف عمل العبيد) فإنه بذلك يتحدى المعايير الكتابية الدائمة للمجتمع. وقد كتب ألبرت بيلدوس Albert Bledsoe - وهو أستاذ في جامعة فيرجينيا - ما يأتي سنة ١٨٦٠ : "تاريخ التفسير لا يقدم لنا أمثلة عن تحريفات تتميز ضلالاً وعنفاً للنص المقدس بأكثر مما نجده في كتابات الذين يريدون إبطال شيء، مثل إبطال الرق. ويبدو أنهم يعتبرون أنفسهم فوق الكتاب المقدس، وحين يضعون

أنفسهم فوق ناموس الله، فإنه ليس مما يدعو للدهشة أنهم لا يضعون اعتباراً لقوانين البشر".

وفضلاً عن ذلك، فإن الكتّاب المؤيدين للعبودية يدعمون حججهم بمقارنة خضوع العبيد بخضوع النساء. ولقد استحدثوا ما يُطلق عليه "نظرية الدومينو" وحذروا من أنه في حالة إلغاء العبيد، فسرعان ما "تترك النساء عزلتهن في الحياة المنزلية ... ويأتين في حرية الرجال، ليكُنَّ وكيلاتنا، ومحاضيراتنا العموميات، وعضوات اللجان، وحاكماتنا، في تحد متعمد لسلطان الله". والواقع أنه قيل : "نحن في هذه البلاد نؤمن أن الخير العام يتطلب منا أن نُحرِّم الجنس النسائي كله من حق الحكم الذاتي. وليس لهن صوت في تكوين القوانين التي تتعلق بأشخاصهن وممتلكاتهن. واحتجوا بالقول إنه إذا كانت القيود على حقوق النساء تُعد حاجة كتابية واجتماعية، فإنه أمر متضارب وغير كتابي أيضاً أن تطالبوا بحرية العبيد".

ومن الطبيعي، أن الرجال والنساء المنضمين لحركة إلغاء الرق قد لاحظوا هذا التماثل أيضاً، والواقع أن كثيرين انتهوا إلى أنه لكي يكون الأمر متناغماً وكتابياً عليهم أن يضغطوا من أجل تحرير العبيد والنساء. والواقع أن ما يطلقون عليه الموجة الأولى من الحركة الأمريكية للمطالبة بالمساواة بين الجنسين إنما جاءت وليدة حركة المطالبة بإلغاء الرق والتي ظهرت في القرن التاسع عشر، والتي تبعتها موجة أخرى في العشرينات من القرن الحالي (حين وصلت النساء أخيراً إلى حق الاقتراع) وتبعتها موجة ثالثة في الستينيات، والتي استمر تأثيرها حتى الآن. والمسيحيون من حركة إبطال الرق أقاموا حجتهم التفسيرية على فقرات متفصلة من الكتاب المقدس أُخذت بعيداً عن سياقها، تقول بحسب مفاهيمهم إلى أين يتجه الإعلان الكتابي بجملته. وبحسب قول المفكر اللاهوتي كورنيليوس بلانتينجا Cornelius : "على الرغم مما قاله الرسول بولس للعبيد عن الطاعة، وبرغم ما قاله

الرسول بطرس عن طاعة السادة حتى العنفاء منهم، إلا أن الخط التاريخي ـ الفدائـي الأكبر للكتاب المقدس يخبرنا أن الناس خُلقوا على صورة الله ومـن ثـم لا يسـتطيع أحد أن يمتلكهم سوى خالقهم، وأنه يجب أن نحب أقرباءنا كأنفسنا، وأنه ينبغي أن نصنع مع الآخرين ما نحب أن يصنعوه بنـا، ولاسيما وأن يسـوع قـد جـاء ليحـرر المضطهدين".

وهكذا فإن الكنيسـة الأولى، حتـى وهـي تتحمـل العبوديـة مـن أجـل المبـدأ النبشيري، إشارة إلى رؤية للعدل المسيحي والمجتمع من شأنها أن تترك الرق وراءها. وهكذا أيضاً يجادل المسيحيون المطالبون بالمساواة بين الجنسين : هل يشـير الكتـاب المقـدس إلى أبعـد مـن النظـام الأبـوي الـذي تم تحملـه، ومـع ذلـك خُفـف بشـكل تصـاعدي، طـوال تـاريخ الخـلاص إلى رؤيـة مـن العواطـف المتبادلـة بـين الإخـــوة والأخوات في المسيح في الزواج والكنيسة والمجتمع.

صوت الأعمال أعلى من صوت الكلام :

حرصت في بداية هذا الفصل على القول بـأن موقـف الإنسـان مـن موضـوع الرئاسة ـ سواء إذا كـان مـن الخضوعيـين أو مـن التحرريـين ـ لا يجـب اسـتخدامه كاختيار لتحديد هوية العقيدة المسيحية. و لم أقل هذا لأنني أؤمـن بـه فحسـب، بـل لأنني أيضاً أود بإخلاص قيام حوار بين المسيحيين المطالبين بالمسـاواة بـين الجنسـين، وأولئك الذين يلتزمون بقراءة أكثر "تقليدية" للعلاقات بين أدوار الذكورة والأنوثة. أما وأن يقوم أي جانب برفض اهتمامات الجانب الآخر أو السـخرية منهـا، فهـذا ليس انتهاكاً للوحدة المسيحية فحسب، بل ويُشكل أيضاً شهادة سيئة للعالم ككل. ومع ذلك، فإني أود الآن أن أؤكد على أنه حتـى أولئـك الذيـن يتمسـكون نظريـاً بنموذج تقليدي يجدون صعوبة بالغة في ممارسته بشكل ثابت. وعدم ثباتهم في حـد ذاته يوحي بأنه على الرغم من الولاء الكاذب الذي يبدونه لمبدأ رياسـة الذكـر، إلا

أنهم في سبيلهم إلى تأكيد حالة المساواة بين الجنسين والتي تتمشى بالأكثر مع النمط الفدائي / التاريخي للإعلان الكتابي.

سبق مع بداية هذا الفصل أن ذكرت التشابه الذي كان قائماً في القرن التاسع عشر بين الرق وخضوع النساء. والمسيحيون في ذلك الحين اعتبروه أمراً طبيعياً يتفق مع الكتاب المقدس وهو أنه لا النساء ولا العبيد يجب أن يكون لهم رأي في تشكيل القوانين التي تُنظم ما يتعلق بأشخاصهم أو ممتلكاتهم. حيث إن تقلد المرأة لوظيفة مدنية كان أمراً بعيداً تماماً عن تفكيرهم، وأفضل ما كانت تستطيع أن تأمله هو أن تُعامَل على أيدي الرجال معاملة تخدم مصالحها وبالشكل الذي يحدده الرجال. أما وأن يكون للمرأة أية سلطة من أية نوعية على الرجل ــ سواء في الكنيسة، أو البيت، أو المجتمع بصفة عامة ـ فقد كان ذلك يُعد (وكما سبق الإشارة إليه) إهانة مُتعمَّدة ضد سلطان الله. ولقد افترض بكل بساطة أنه أمر يتفق والكتاب المقدس أن تكون للرجال "رئاسة شاملة" ـ أو رئاسة في كافة نواحي الحياة ـ على النساء.

وهناك طوائف مسيحية كاملة لا تزال تتبنى رسمياً مبدأ رئاسة الذكر الشاملة. ولكني لا أعرف طائفة تستطيع ممارسة ذلك بشكل دائم. والواقع أنه بظهور مرجريت ثاتشر على ساحة السياسة البريطانية، أصبح هذا أمراً من الصعب التمسك به ـ لأنه ـ بغض النظر عن تركيبها التشريحي، أصبحت مسز ثاتشر في نظر كثيرين من السياسيين المحافظين الإنجيليين المثال الذي يجب أن يكون عليه رئيس دولة محافظة (والمسيحي الملتزم). بل وما نما إلى علمي عن قيام أتباع "حركة الرئاسة الشاملة" بحملات لخلع كورازون أكينو الرومانية الكاثوليكية من رئاسة الفلبين على أساس أنه لا يجب لأية امرأة مسيحية أن تتبوأ مثل هذا المركز الذي يتمتع بهذه السلطة السياسية. وكما سبق وأن أشرنا في فصل سابق، هناك أيضاً في

الوقت الحاضر رؤساء دول من النساء في باكستان، وأيسلندة، والهند وإسرائيل (أيام جولدا مائير). ومع ذلك، وعلى قدر علمي، فإنه حتى أصحاب الفكر الأصولي (الذين يُعطون مكاناً حيوياً للذكور ولدولة إسرائيل في تاريخ الخلاص) لم يتذمروا من رئاسة جولدا مائير هناك.

علاوة على ذلك، فإن مبدأ الرئاسة الشاملة المستديمة لن يسمح للنساء أن يشغلن مراكز السلطة على الرجال في أي مجال للعمل. ومنذ عقود قليلة مضت، فَهِم المسيحيون هذا على أن الأزواج فقط هم الذين يتعين عليهم كسب ما تحتاج إليه العائلة في معيشتها، وأنه لا يسمح للنساء بالانخراط في عمل لقاء أجر إلا إذا لم يكن لهن أزواج يعولهن، وهنا، عليهن أن يعملن كمساعدات لقاء أجور منخفضة تحت رئاسة الرجال. ونادراً ما يُفترض هذا اليوم أنه أمر كتابي ثابت لا يتغير. ولعل المسيحيين المعاصرين ما زالوا يجادلون حول توقيت دخول المرأة في قوة العمالة نظير أجر، ولاسيما إذا كان لديها أطفال صغار. ولكن ما أن تلتحق بالعمالة، إلا ويتعين أن يُدفع لها نفس الأجر الذي يتقاضاه أي رجل له نفس تدريبها وخبرتها، وتكون لها السلطة المتعلقة بالوظيفة بغض النظر عن جنس من هم تحت رئاستها (من ناحية الذكورة والأنوثة).وباختصار، لست أعرف أية مجموعة مسيحية تتبنى مبدأ الرئاسة الشاملة وفي ذات الوقت تكون مستعدة حقاً أن تضع كل النساء تحت سلطة الرجال في جميع جوانب الحياة، حتى لو كانوا من نفس درجاتهم.

ماذا عن رئاسة الرجل في الكنيسة ؟

بيد أنه إذا كان مفهوم رئاسة الرجل الشاملة لم يعد مُطبقاً بعد من الناحية العملية، فمن المؤكد أن المبدأ والممارسة يكونان أكثر ثباتاً حين يتعلّق الأمر برئاسة الرجل في الكنيسة ومؤسساتها. وعلى سبيل المثال، هناك مسيحيون ممن يتمسكون بأنه يجب على النساء ألا يقمن بتعليم العقيدة الكتابية، بالنظر إلى أنهن (هكذا تقوم

حجتهم) على غرار حواء أكثر عرضة للضلال من الرجال. لي زميلة تقوم بالتدريس في معهد لاهوتي مازال يتمسك بهذا المعتقد. وبناء على ذلك، فقد سُمح لها بأن تدرس تاريخ الكنيسة وإعطاء دراسات تستعرض الطوائف الدينية. ولكن لم يُسمح لها بأن تقدم دروساً في العقيدة ـ على سبيل المثال، دروساً تتضمن تفسيرات لرسالة بولس إلى رومية، والتي من الواضح أنها أكثر كتاباته تعرضاً للعقيدة.

غير أن التفكير لدقيقة واحدة يكشف لنا أن هذه الممارسة ليست ثابتة كما تبدو في الظاهر، لأنه لا يمكن تدريس تاريخ الكنيسة دون الإدلاء بملاحظات معيارية عن عقائد الكنيسة السابقة. وعلى أي حال، لماذا كان الإصلاح البروتستانتي طالما أنه لم يكن عن أولوية الكتاب المقدس على الكنيسة والتقليد، وأولوية الإيمان على الأعمال، وكلاهما من الموضوعات العقيدية الخالصة ؟ ثم إنه من غير الممكن أن تُحدد ما الذي يُشكل عبادة ما دون الإشارة إلى ما يشكل السلسلة المعيارية من العقائد في أية كنيسة حقيقية. وعلى هذا، اتضح أن زميلتي تُدرِّس العقيدة على أي وجه. أو، إذا أخذنا مثالاً أكثر شيوعاً، إذا كان على النساء ألاّ يدرسن العقيدة للبالغين، فإنه لا يوجد سبب واضح يفسر السماح لهن بتدريسها للأطفال، الذين من المؤكد أن سنهم غير الناضج وقابليتهم للخداع تضعهم في مخاطرة بالغة تعرضهم للضلال. ومع ذلك فإن نفس الكنائس التي وضعت قيوداً على تدريس النساء للعقيدة، تعتمد بقوة على نفس هؤلاء النساء في العمل بفصول مدارس الأحد.

وفضلاً عن ذلك، فإنه إذا كان لا يجب أن تتولى النساء سلطة تعليم الرجال في الكنيسة المحلية دون وجود سبب واضح، فلماذا، (والواقع أن هذا بصفة خاصة) نجد أنهن في أكثر الكنائس تمسكاً برئاسة الرجل، تشجعن على السفر في إرساليات إلى بلدان أجنبية، حيث كثيراً ما تكون لهن سلطة تعليم واسعة على الذكور

الوطنيين. كيف يمكن تبرير عدم التناغم هذا ؟ ولن يكون من المُجدي أن نفصل من الناحية الفنية بين دور الكارز ودور المعلم، ذلك أنه يمكن المجادلة بالمنطق بأن المتجددين المزمعين، مثل الأطفال الصغار، هم آخر من يجب تعريضهم لخطر تحريف العقيدة بواسطة النساء، بالنظر إلى أنهم لم يحصلوا بعد على المعرفة الكتابية التي تمكنهم من مواجهة ذلك.

بل ولن يفيد القول بأن النساء المرسلات مسئولات أمام سلطات من الرجال. فمعظمنا يعرف أن النساء المرسلات تقضين شهوراً متواصلة في مواقع نائية دون رؤية مباشرة لرئاسة من الرجال. وما تستطعن أن تنجزنه عن طريق نشر البدع في أثناء هذه الفترة الزمنية يجب أن يبث الفزع في قلوب الذين نشأوا على مبادىء الخضوعيين، غير أنه يبدو أن هذا لم يحدث. وتجدني مُعرَّضة لإغراء استنتاج أن خليطاً مُركباً من التفرقة الجنسية القول عن الجنس، والعنصرية، والإقليمية، هو في الواقع ما نجم عنه هذا التضارب. وليست فكرة وجود النساء في السلطة هي عينها التي يُخشى منها، بل الخوف من أن تكون هناك سلطة للنساء على رجال من نفس عرقِهن، أو على الرجال في بيوتهن. وهنا أيضاً يبدو أن عمل الملكوت عومل كأنه لعبة محصلتها صفر، حيث إن حصول مجموعة على السلطة يُنظر إليه تلقائياً على أنه لابد وأن ينجم عنه حرمان جماعة أخرى.

وحتى إذا كان الأمر كذلك، فيبدو أن الممارسة كانت أسبق من النظرية، . ولكن ليس دائماً، لأن هناك تضارباً آخر وهو أن اهتمام الخضوعيين الراهن بإبعاد النساء عن المنبر تولي وظيفة الرعاية هو في الواقع مناقض للممارسة التاريخية لمعظم كنائسهم. فالمؤرخة الكنسية جانيت هاساي Janette Hassey، أوضحت في كتابها : "لا وقت للسكوت" أن الإنجيليين الأمريكيين أبدوا بل وسمحوا بتقلد النساء

مناصب دينية قبل انقضاء القرن وبعده إلى درجة لا نسمع عنها اليوم. وقد أشارت قائلة :

" اعتلت النساء الإنجيليات منابر الوعظ لأن عناصر أساسية من الفكر اللاهوتي الإنجيلي دعمت هذا الاتجاه. ففي معاهد الكتاب المقدس والمؤتمرات التي تجمع بين الطوائف المختلفة التقى إنجيليون كثيرون مع مجموعات مثل جيش الخلاص، وإنجيليين من بين طائفة الكويكرز Quakers، والإخوة المتحدين، ممن يُعزز فكرهم اللاهوتي فكرة مساواة النساء في الخدمة. وإضافة إلى ذلك، فتفاعل كنائس القداسة، بل وحتى بعض جماعات الخمسينيين مع فروع إنجيلية أخرى، كان لها تأثيرها الكبير في الآراء المتعلقة بالنساء. وعلى سبيل المثال، فإن معهد مودي للكتاب المقدس عارض تعليم إيمي سيمبل Aimee Semple الخاص بتعليم الخمسينيين الخاص بالشفاء، ولكن لم يعارضوا حقها في أن تقوم بالوعظ أو تكون راعية "

ودراسة هاسي تضعف حجتين كان يستند إليهما بصفة دائمة أولئك الذين كانوا يعارضون المساواة بين الرجال والنساء في تولي جميع وظائف الكنيسة. أولاً : الحجة القائلة بأن المخلصين الكتابيين وافقوا دائماً على عدم قبول النساء في أدوار الوعظ أو الرعاية. ثانياً : الحجة القائلة بأن حركة المساواة المسيحية بين الجنسين الحالية إنما هي مجرد تنكر مُضلِّل لحركة المساواة بين الجنسين الدنيوية التي ترجع إلى الستينيات. ومن الواضح الآن أن المُخلِصين الكتابيين في أمريكا أعطوا النساء مجالاً أكثر وليس أقل للخدمة وذلك في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وإن كثيراً من حركات المساواة بين الجنسين المسيحية إنما هي محاولة لاستعادة ذلك الميراثالعظيم.

وعلى مدى الستين سنة الماضية فإن النساء الأصوليات اللاتي ينتمين لمبدأ عصمة الكتاب المقدس، والإنجيليات بل وحتى النساء الخمسينيات مُنعن بصفة تدريجية من

مواقع السلطة التي سبق الترحيب بهن فيها. وكثيراً ما يكون الحال هكذا، حتـى إن مؤرخة كنسية أمريكية أخرى قالت لي ذات مـرة إنها لـو لم تكـن قـد بحثـت أولاً أدوار المرأة الإنجيليـة في القـرن التاسع عشر، لوجـدت أن الأمـر مُحـزِن للغايـة أن تدرسها في القرن العشرين. وثمة كنائس كثيرة تحركت ما يعادل ثلاث خطوات إلى الأمام وخطوتين للخلف في مواقفها تجاه خدمات المرأة في الكنيسة في هـذا القـرن. غير أنه بالرغم من هذا، وكما عرفنـا مـن أمثلتنـا الـتي ذكرناهـا أولاً، فـإن نسـاءها ستعملن المزيد. من ناحية الممارسة بأكثر مما هو مسموح به لهن من الناحية النظرية.

الرئاسة مقابل المساواة في الزواج :

سبق أن رأينا كيف أن المسيحيين مختلفون حول مدى رئاسة الرجل. هل هذا الموضوع عالمي في مجاله ؟ هل هو مقصور على مؤسسات الكنيسة والـزواج ؟ هـل هو قاصر على الزواج، أم أنه ليس بالنسـبة للأشـياء السـابق ذكرهـا ؟ ثـم إنهـم لا يستطيعون أن يتفقوا أيضاً حول مصادرها. هل رئاسة الرجل جزء من نظام الخليقـة وعلى هذا لا يمكن تغييره ؟ أم أنه "نظام طوارىء" أُعطِي إثرالسقوط ومن ثَم (وربما مثل النظام السياسي البشري) فهو حاجة وقتيـة لحفـظ السـلام الـذي سـينتهي هـو والزواج في الدهر الآتي ؟ أم إنه (مثل الشوك والحسك والألم عنـد الـولادة) ليس سوى نتيجة مأساوية للسقوط وعلى هذا يجب التغلب عليه بنفس العزم الذي تغلبنا به على الألم المرتبط بـالحصول علـى الطعـام مـن الأرض، والأطفـال مـن الرحـم؟. لاحظ أن هذا يعطينا أربعة آراء متباينـة بالنسبة لمـدى رئاسـة الرجـل، مضروبـة في ثلاثة من الآراء المختلفة حول أصلها. وهذا يعطينا اثني عشر فكـراً لاهوتيـاً محتمـلاً عن أدوار الذكورة والأنوثة، معظمها قُدم في وقت أو آخر على أنه الفكر الكتابي.

وبمقدورنا أن نذهب إلى أبعد مـن ذلـك : فالمسـيحيون في المـاضي والحـاضر اختلفوا حول السمات الفعلية التي يجـب أن تتوافـر في رئاسـة الرجـل، بـالرغم مـن

اتفاقهم على أنها معيارية. وما لم نرفض نهج "النظرة السطحية" في تعاملنا مع الكتاب المقدس، التي تقول إن الآراء الراهنة الخاصة برئاسة الرجل ـ الخادم في المحبة أكثر كتابية من الرأي القديم القائل بأن النساء يجب السيطرة عليهن عن طريق العقاب لأنه بسببهن دخلت الخطية إلى العالم ؟ وهذه نقطة هامة جداً، لأن المسيحيين الذين يؤيدون رئاسة الرجل يميلون إلى الموافقة على أنه وإن لم تطبق في أماكن أخرى في العالم، إلا أنها مطبقة في الزواج. ولكن، وكما رأينا في الفصل التاسع، فإنه يأتي بعد إدمان الخمر والمخدرات، القول بجواز ضرب الزوجة على أنه هو من قبل المتدينين المحافظين الغيورين. ويبدو أن رئاسة الرجل التي تعطيه حق العقاب هي في نظر بعض المسيحيين التعليم المعياري.

ومن هنا، فإن رئاسة الزوج، سواء حُددت كجزء من نظام الخليقة، أم كانت مجرد ضرورة على إثر السقوط، تبدو لكثيرين من المسيحيين المطالبين بالمساواة بين الجنسين مثل وضع الثعلب لحراسة بيت الدجاج. لأنه حتى بالنسبة للمفسرين الذين يفهمون رئاسة الزوج كطريقة مؤقتة لحفظ النظام في عالم ساقط لا يشرحون السبب في أن السلطة الأكبر يجب أن تُعطَى للعضو الذي يميل بالأكثر إلى العنف من بين الزوجين. أيرجع السبب إلى أن الأمور كانت ستصير إلى أسوأ لو لم يكن للزوجة زوج يحميها من اعتداءات الرجال الآخرين ؟ ولكن إذا كان هذا هو السبب المعقول، لكان علينا أن نتوقع من الرجال المسيحيين أن يتأكدوا تماماً من أن كل امرأة مسيحية لابد وأن يكون لها زوج ليحميها، الأمر الذي لا يبدو أن يُشكّل برنامجاً لحاجة مُلِحة بين أتباع رئاسة الزوج. وفضلاً عن ذلك، كان علينا أن نتوقع أيضاً، على الأقل، مُعدلاً منخفضاً لإساءة معاملة الزوجة بين الرجال المسيحيين، الذين ربما يعرفون بكل جلاء وبأكثر مما يعرفه غير المسيحيين كيف أنهم أصبحوا في عالم ساقط، وكم هم في حاجة إلى مساعدة الله لهم ليسيطروا على

عنفهم. ومع ذلك فقد لمسنا أن التدين المقاوم للتغيير، هو ثـاني مؤشـر علـى إسـاءة معاملة الزوجة، وهذا أبعد من أن يكون سبباً لمعاملة أفضل.

تمرد الزوجة أم مسئولية إلهية ؟

ولكن، دعنا نفترض أن مثل هـذه الصعوبـات يمكـن بشـكل مـا أن يفسـرها أولئك الملتزمون برئاسة الزوج في الزواج. ومع ذلك تبقى مشكلة تتسـم بمزيـد مـن الأهمية. ولقد كنت سعيدة إذ لا حظت أنه حتى في الوقت الذي يؤكد فيه رئاسـة الزوج فإن المجلس الخاص بالرجولة والأنوثة أنكر بكل جلاء سـلطان الأزواج علـى دفع زوجاتهم إلى أعمال خاطئة. ويقول تصريح دنفر : في كل الحيـاة، المسـيح هـو السلطة العُليا للرجال والنساء، وعلى ذلك ما من خضوع أرضي - منزلي — ديـني — أو مدني - يشير إطلاقاً إلى تفويض لاتّباع سلطان بشري يجر إلى الخطية. ولكن ثمـة مشكلة هنا : بعيداً عن الانتهاكات الواضحة للوصايا العشـر، مـن الـذي يقـول إن عملاً ما يُعد "خاطئاً" بدرجة كافيـة لتـبرير تمـرد الزوجـة ؟ واعتمـاداً علـى قراءتهـا للكتاب المقدس وقناعاتها عن دعوتها في وقت مُعـين، فـأي عـدد مـن الأشـياء قـد يشكل مبرراً، بحيـث تكـاد تجعـل الحكـم على المجال الفعلي لرئاسـة الـزوج أمـراً مستحيلاً.

وهناك بعض الأمثلة التي قد تجعل المشكلة أكثر وضوحـاً. في محـاضراتي عـن "سيكولوجية النساء" كثيراً ما أعرض فيلمـاً تسـجيلياً عنوانـه "ثمانيـة مـن ويللمـر". وعلى الرغم من أنه لم يُعمل بواسطة المسيحيين أو خصيصاً من أجلهم، إلا أن هـذا الفيلم يتحدث عن ثماني نساء مسيحيات من مدينة محافظة ذات أغلبيـة مسـيحية في الغرب الأوسط، واللاتي في أواخر السـبعينيات قمـن بـأطول إضـراب شـهده أحـد البنوك في تاريخ أمريكا. فقد سـئمن ببسـاطة مـن تدريـب الرجـال علـى مراكـز لم يسمحن لهن إطلاقاً بـأن يشـغلنها هـن بأنفسـهن. بـل و لم ينكـر المصـرف ممارسـته

للتفرقة الجنسية عند تخصيص الوظائف، والواقع أن رئيس المصرف حدد علانية اتجاهاً للفروق بين الجنسين ليدافع عن موقفه. ولذلك استمروا في الإضراب، الأمر الذي أثار غضب معظم مواطنيهن، الذين كانوا ينظرون إلى تغيير الوضع الراهن، وتشكيل النقابات والانخراط في أمور لا تليق بالسيدات مثل الإضراب، على اعتبار أنها الخطايا الكبرى.

ومن بين النساء السبع المتزوجات من المشتركات في الإضراب، كانت ستة نساء منهن تلقين مساندة أزواجهن الذين ساندونهن في الإضراب الذي استمر إلى ما يقرب من عامين، برغم المعارضة الشديدة التي كانوا يلقونها من الأقارب، والقسوس وزملائهن من المواطنين. أما زوج السابعة، التي لم يؤيد زوجها اشتراكها، فشل في أن يصمد في فترة الإضراب، وألمها لانهيار زواجها كان واضحاً حين تم اللقاء معها في الفيلم. وما الذي كان يتعين عليها عمله، طبقاً للمبدأ القائل بأنه عليها أن تكون زوجة خاضعة، ومع ذلك يجب ألاّ تنساق إلى سلوك يُشكل خطية ؟ هل تنحاز إلى زوجها باسم خضوع الزوجة ؟ أن تتبع دعوتها الأساسية كمسيحية وتقاوم (على أن تتحمل عواقب شخصية ومالية كبيرة، كما اتضح بعد ذلك) موقفاً ظالماً مزمناً ؟ لقد أصبح من المتفق عليه الآن بصفة عامة أن إضراب مصرف ويلمر، على الرغم من أنه صغير ومنعزل جغرافياً، كان يشكل خطوة حيوية نحو إلغاء السياسة المصرفية التي كانت قد دأبت على ممارسة التفرقة الجنسية (بين الذكر والأنثى) بالنسبة لوظائف المصرف. ولا يمكن رفض هذه القضية على اعتبار أنها قضية امرأة مسيحية ضعيفة أفسدتها سياسات النقابات المهنية، الأمر الذي قد يود البعض أن ينتهوا إليه. لقد كانت قضية ثماني نساء مسيحيات، يدعمها ستة أزواج مسيحيين، لم يكونوا تقريباً قد انضموا إلى أية نقابات حين بدأ

الإضراب ومعظمهم لم تكن له أية علاقة بالنواحي السياسية في حياتهم سوى الإدلاء بأصواتهم عند الانتخابات.

وإلى يومنا هذا، معظم المسيحيين من سكان ويلمر، يعتبرون هذا الحدث ـ وهؤلاء النساء ـ كوصمة عار لصورة مدينتهم. (ولقد عرفت هذا لأن منطقة ويلمر مُكتظة بالسكان الذين هم أعضاء في طائفتي). وكثيرون من رعاتهم أخبروهم أنهم كانوا يرتكبون الخطأ. وإني لا أنكر أنه بالنسبة للمرأة التي لم تلق تأييد زوجها، كان الأمر يتضمن دعوة إدانة أليمة. ولكن هنا السؤال الحاسم : هل يجب النظر إليها كدعوة إدانة تتضمن حدود سلطة الزوج ؟ أم أنها ببساطة مثال لشخص مسيحي (متعلق بالنوع) عليه بكل ألم أن يُقرر ـ كما يتعين علينا جميعاً في بعض الأوقات في هذا العالم الساقط ـ أن نختار بين أقل الشرين ؟ .

وعلى سبيل التشبيه (وكمثال ثان)، فإن والديّ زوجي قضيا معظم فترة الحرب العالمية الثانية يساعدان الحركة السرية الهولندية في تهريب اليهود إلى خارج هولندا. ويُقدّر الآن أن ١٥٪ فقط من سكان هولندا كانوا مشتركين في الحركة السرية، في حين أن نفس النسبة تقريباً كانوا يتعاونون بنشاط مع المحتلين النازيين. أما بقية السكان (والمسيحيون من بينهم) اتّخذوا طريقاً وسطاً آمناً، وعلى غرار معظم سكان ويلمر، انخرطوا في أعمالهم بأفضل ما بوسعهم حتى انتهت حالة التمزق التي كانوا يعانون منها في حياتهم. وبالطبع كنت سعيدة لأن ينضم والدا زوجي إلى الأقلية التي انخرطت في المقاومة. وإذا كنت أعرف حماتي، فإني أشك في أنها قامت بذلك بدافع معتقداتها عن طاعة الزوجة، حتى لو كانت قد فضلت السبيل الأقل خطورة وهي أن تقضي الوقت في شئونها الخاصة إلى أن تنتهي الحرب. ولكن، لو لم يكن زوجها قد أراد الانضمام إلى حركة المقاومة السرية، في حين أنها هي بدافع من قناعتها المسيحية، قد شعرت أنه من واجبها الانضمام ـ

وكان من شأن ذلك أن هجرها زوجها ـ كيف ستكون والحال هـذه الصـورة الـتي سيتذكرها بهـا أحفادهـا ؟ أولاً : كزوجـة متمـردة، أم بصفـة أساسـية كشـخص مسيحي تصادف أنه امرأة، وأنها في ظل موقف صعب، تحملت مسئوليتها أمام الله بجدية؟.

بعيداً عن الفكر الإيديولوجي : اختبار الخدمة :

إن ما ترمي إليه حجتي ـ وأجزاء أخرى من هـذا الكتـاب ــ هـو أن رئاسـة الرجل لا يمكن اسـتغلالها بواسـطة الرجـال المسيحيين للمحافظـة علـى أوضـاعهم المميزة، أو بواسطة النساء المسـيحيات لتفـادي مسـئوليتهن عـن اختيـاراتهن. ولقـد أشرت في الفصل الثاني إلى أن كُلاً مـن هـاتين الـنزعتين ــ والـتي ثبـت مـن خـلال الكتـاب أنهمـا موجودتـان فعـلاً في الجنـس البشـري. همـا مـن النتـائج المأســاوية للسقوط، وليس من المعايير الدائمة في الخليقة. وعرفنا من الفصل الثالث أن اللجـوء إلى النواحي البيولوجية لا يكفـي إطلاقـاً لتـبرير مجموعـة معينـة مـن أدوار الذكـورة والأنوثة سواء بالنسبة للرجال أو النساء، ولاسـيما إذا كـان علينـا أن نـأخذ الحريـة الإنسانية والمسئولية الأدبية بشكل جـدي. ولقـد انتهيـت إلى أنـه في حـين أن أدوار الذكورة والأنوثة في حد ذاتها ليست خطـأ (والواقـع أنهـا في أفضـل حالاتهـا سمـة إيجابية وملزمة) ولا يمكن اختزالها لتصبح قائمة جامدة (حتـى لـو كـانت محـدودة)، تصلح لكل زمان ومكان. وهذه النتيجة دُعمت في الفصول اللاحقة، حيث فحصنا سيكولوجية أدوار الذكورة والأنوثة في ثقافتنا كما في الثقافـات الأخـرى. وأخـيراً، حاولت في هذا الفصل أن أُبيِّن أنه حتى أولئك الذين لديهم نظرية منهجية للرئاسـة يبدو أنهم غير قادرين على تطبيقها بصفة دائمة من الناحيـة العمليـة. كمـا ذكـرت أيضاً أن النساء لسن أقل مسئولية مـن الرجـال أمـام الله مـن ناحيـة تنفيـذ قـرارات حاسمة في مواقف صعبة بغض النظر عن حالتهن الزواجية.

ولسوف تتذكر أنه من بين الأسئلة التفسيرية التي ذُكرت سابقاً كان أحدها عن المدى الذي تُؤثّر أيديولوجيات الناس، أو طرقهم المفضلة لرؤية الحقيقة في تفسيراتهم للكتاب المقدس. ومن المؤكد أنني معرضة كأي شخص آخر لأن أقرأ الكتاب المقدس من خلال عدسات أيديولوجية، غير أنه على الرغم من أنني من أنصار المساواة بين الجنسين، إلا أنني حاولت جاهدة أن أتجنب نغمتهم الانتصارية طوال فصول هذا الكتاب. و لم أفترض (على غرار ما يفعل أنصار المساواة بين الجنسين الراديكاليين) أن ما يقوله الرجل بأنه أقوى من المرأة في كثير من الوجوه ليس هو الخطية الأصلية، أو أن النساء بطريقة ما معفيات من آثار السقوط بأكثر مما هو الحال بالنسبة للرجال.

ولقد أشرت إلى أنه يبدو أن السقوط كان له إلى حد ما نتائج مختلفة بالنسبة للرجال والنساء على وجه العموم، فالرجال أصبحوا ميالين بالأكثر إلى أن يحولوا السلطان إلى تسلط، والنساء ميالات بالأكثر إلى تحويل الناحية الاجتماعية إلى شَرَك اجتماعي محفوف بالمخاطر. إلا أن الدافع الأساسي وراء السقوط ــ الرغبة في الاستقلال عن الله ـ ليست له علاقة بالأشخاص ـ فأنصار المساواة بين الجنسين، وأنصار النظام الأبوي يحتاجون بنفس القدر إلى الفداء.

ولقد اقترح المفكر اللاهوتي ويلارد سوارتلي Willard Swartley اختباراً جيداً لدرجة تشويه أيديولوجياتنا لما نقرأه في الكتاب المقدس. وهذا الاختبار هو مدى رغبتنا في التغير نتيجة ما نقرأه، وأن ندع الكتاب المقدس يعمل "كنافذة" نرى من خلالها ما يتعدى نطاق أفكارنا القائمة على مصلحتنا الشخصية، وليس كمرآة تعكس ببساطة ما نريدها أن تبينه.

" والتفسير الكتابي - إذا كان جديراً بأن نسميه هكذا ـ سوف يتحدى أيديولوجية المفسر. وبمقدوره، أن يؤدي إلى التغيير، لأن الناس لا يأتون إلى النص وهم يفكرون كما يفكر الله، أو حتى كما فكر شعب الله في الخدمة كوكلاء للإعلان الإلهي. و"يجب" على المفسرين أن ينصتوا إلى النص بإمعان كاف، وليس ليحبوه. "وحين يفعلون هذا" فإنه سيظهر بقوة أن رسالة النص قد سُمعت واحتُرمت " .

وهكذا قد يُصرّ من يعتقدون في رئاسة الرجل على أن "الكتاب المقدس يجب أن يكون متناغماً". إلا أن هذا من السهولة أن ينقلب إلى لعبة مرآة، يتجاهل فيها القراء تنوع الكتاب المقدس ويرغمون كل الفقرات المرتبطة بالموضوع أن تقول الشيء نفسه، وبهذا يقضون على أي احتمال بأن الله ربما يطلب منهم أن يغيروا من تفكيرهم وسلوكهم. وعلى النقيض من ذلك، فقد يقول أصحاب مبدأ المساواة بين الجنسين إن تفسيرنا للكتاب المقدس يجب أن يعكس المجال المتصاعد الأكثر شمولية وأعني به تاريخ الخلاص، الذي فيه أولاً غير اليهود، ثم العبيد، ثم النساء، (ومع امتداده كل الجماعات الهامشية الأخرى) قد حررت لتنضم بالمواطنة المسيحية الكاملة والمسئولية. إلا أن هذا أيضاً له خطورته، والمتمثلة في تجاهل المبدأ التبشيري، والذي يطلب منا أن نعدل إنجاز العدالة لأنفسنا، بحيث يشمل المجال الأوسع لنشر ملكوت الله في وضع تاريخي معين. وهكذا أحياناً يُدعى كل من النساء والرجال أن يتركوا جانباً "مسئولياتهم"، بغض النظر عن احتمال أن يكون كل منهم قد قرأ هذا بمسئولية من الكتاب المقدس. ومثل المسيح نفسه، لعلهم يرغبون في أن يكونوا خداماً من أجل الملكوت.

جريتشين جايبيلين هل Gretchen Gaebelein Hull، وهي امرأة مسيحية حكيمة جداً ومتقدمة في السن، كتبت كتاباً عن الرجال والنساء عنوانه "متساوون

للخدمة". وكما تستطيع أن تخمن من العنوان، فإنها، متلى، ترى أن الكتاب المقدس يشير نحو المساواة والخضوع المتبادل بين الجنسين، وليس حفظ رئاسة الرجل. ومع ذلك، وتمشياً مع مبدأ سوارتلي من أن التفسير الجيد للكتاب المقدس يجب أن يكون قادراً على أن يزعجنا، فإنها تضيف التحذير التالي :-

اليوم، مثل يعقوب ويوحنا، أناس كثيرون جداً يمسكون بأكمام المسيح : الواقعيون، التقليديون، أنصار المساواة بين الجنسين، التحرريون، وكل الأنواع النشطة. والكل يقول ما معناه : "اجلسني إلى جانبك يا رب، بيّن للآخرين أن نظامي هو الأفضل". وفيما هم يمسكون بكم جلباب المسيح، معتقدين أن الأماكن التي عن يمينه وعن يساره تضفي عليهم الشرف والسلطة والاعتراف العالمي، إلا أنه ينظر نحوهم ـ ونحونا جميعاً ـ وهو لايزال يسأل : هل تستطيعون أن تشربوا كأسي ؟ ألاّ ترون أن من يريد أن يكون أكثر قرباً من الآخر عليه أن يذهب حيث أذهب، ويخدم حيث أخدم ؟ ألا ترون بأني إذ أحب العالم على هذا النحو، فإنه يتعين عليّ أن أخدمه إلى المنتهى ؟

وواصلت كلامها تقول : إن هذا يمكن أن يؤدي إلى أسئلة صعبة بالنسبة للرجال المسيحيين. وعلى سبيل المثال هل بوسعهم أن يخدموا في وضع تكون فيه المرأة رئيسة القسم، أو رئيسة اللجنة، أو رئيسة الهيئة الطبية أو حتى مُعلِّمة للكتاب المقدس أو قائدة كنيسة ؟ هل بوسع الرجل تقبل حقيقة أن مواهب زوجته تجعلها أكثر منه ظهوراً ؟ أبوسعه أن "يتجرأ ويكون مثل يوسف" الذي من المؤكد أن دوره كان قليلاً بالنسبة لدور مريم على مسرح تاريخ الخلاص ؟ وتسأل : إذا كان الجواب بالنفي : ما الذي يمنعك من الرغبة في أن تظهر في وضع ثانوي في نظر العالم ؟ هل ضغط الزملاء ؟ هل كبرياء المكان؟ هل إحساس بأنك تستحق وضعاً

مفضلاً ؟ ولكن نصائحها لا تنتهي بالرجال. وما لم يكن على الخدام المسيحيين أن يكونوا أعلى من سيدهم، فلسوف تكون هناك بعض الأسئلة الصعبة للنساء أيضاً :

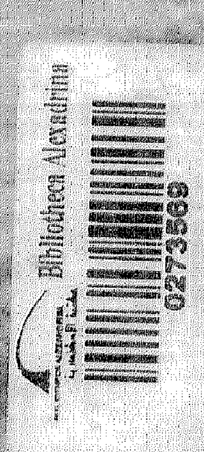
هل تستطعن الشرب من كأس الخضوع ؟ نعم، إني أدرك تماماً ما يدور بخلد كثيرات منكن : هذا ما كنا نعمله دائماً. لكن أود أن أسألكم : هل تستطعن الشرب من الكأس بالمعنى الذي يقصده المسيح ؟ ليس لأنه يجب عليكن ذلك، بل لأنكن اخترتن هذا ؟ هل ترغبن في أن تنحين جانباً حقوقكن المشروعة، إذا لم يكن وقت ممارستها مناسباً في ظروفكن الخاصة ؟ هل ترغبن أن تتنحين عن مهنتكن، إذا كان ذلك في صالح عائلتكن أو وسطكن الثقافي ؟ هل تعملن من أجل التغيير بطريقة تتسم بالصبر والمحبة، بدلاً من الاستغراق في الغضب والمرارة ؟ هل تلزمن أنفسكن بالعمل بالطريقة التي كان ينتهجها المسيح إذا كنتن في مواقف لا تماثل مواقف المسيح.

وبعد أن يُقال كل شيء ويُعمل، تذكرنا جريتشن هل، بأن المعركة من أجل الحرية المسيحية ليست بين الرجال والنساء، ولا حتى بين أنصار المساواة بين الجنسين والتقليديين. فالمعركة في داخل كل واحد منا، ذكراً كان أم أنثى، بين الإنسان العتيق والإنسان الجديد، بين الجسد والروح، بين الرغبة في أن أكون الأول بين الجميع، والدعوة لأن أكون خادماً لكثيرين. ولسوف تتواصل المناقشات حول الجنس وأدوار الذكورة والأنوثة ـ لفترة طويلة قادمة، سواء في مجتمع الكنيسة أو في ميدان علم الاجتماع. ولكن بعد مدة طويلة من حسم أسئلتنا الجارية أو نسيانها، فإن الكلمات الأساسية التي قالها يسوع لأتباعه من النساء والرجال سوف يتردد صداها عبر التاريخ من إنجيل يوحنا : "إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير". وهذا قول سيضايقنا جميعاً باستمرار.

كتبت هذا الكتاب عالمة نفس متخصصة ، هي ماري ستيوارت Mary Stewart وفيه تُقدم لنا أدوار الذكورة والأنوثة مستندة على التكوين البيولوجي لكل منهما ، في إطار أبحاثها في هذا المضمار .

ودار الثقافة إذ تُقدم هذا الكتاب تأمل أن يحقق مزيداً من الفهم المتبادل لهذه الأدوار التي يختص بها كل نوع على حدة مما يخلق تميزاً وإبداعاً ، لا نفوراً وابتعاداً .





دار الثقافة
٢٣٢-٠١٠١٠